

تَفْسِيرُ الْمُرَائِغِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء التاسع

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء التاسع

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعْمُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا
كَارِهِينَ ؟ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ
نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ،
وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المعنى الجملى

هذه الآيات من تمة قصص شعيب ذكر فيها جواب الملأ من قومه عما أمرهم به :
من عبادة الله وحده ، وإيفاء الكيل والميزان ، وعدم الفساد فى الأرض ، وعما ختم به
حديثه من التهديد والإنذار بقوله : فاصبروا حتى يحكم الله بيننا .

وتولى الرد عليه أشراف قومه كما هو الشأن في بحث كبريات المسائل ومهام الأمور .

الإيضاح

(قال الملائكة الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ في ملتنا) أى قال أشراف قومه الذين استكبروا عن الإيمان وعن اتباع ما أمرهم به ونهاهم عنه : قسما لنخرجنك يا شعيب أنت ومن آمن معك - من بلادنا كلها بغضا لكم ودفعنا لفتنتكم ، أو لترجعنَّ إلى ديننا ومعتقداتنا التي ورثناها عن آبائنا ، وتدخلنَّ في زمرتنا وتندجن في غمارنا .
والخلاصة — ليكون أحد الأمرين : إخراجكم من البلاد، أو عودتكم في الملة ، فاختاروا لأنفسكم ما تروونه أرفق بكم وأوفق لكم .

وشعيب عليه السلام لم يكن قبل النبوة على ملة أخرى غير ملة قومه ، فساغ لهم أن يطالبوه بالعود إلى ملتهم ، وكونه لم يشاركهم في شركهم ولا يخس الناس أشياءهم أمر سلبى لا يعده به جهورهم خروجا عنهم - فلا منافاة بين هذا وعصمة الأنبياء عن الكفر .

(قال أولو كنا كارهين) أى تأمروننا أن نعود في ملتكم وتهددوننا بالنفي من أوطاننا والإخراج من ديارنا إن لم نفعل ولو كنا كارهين لكل من الأمرين ؟ .
إنكم لقد جهلتم أن الدين عقيدة وأعمال يتقرب بها إلى الله الذي شرعها لتكميل الفطرة البشرية ، كما جهلتم أن حب الوطن لا يبلغ منزلة حب الدين لدى ولدى قومي ، فظننتم فيّ وفيمن آمن معي أننا نؤثر التمتع بالإقامة في الوطن ، على مرضاة الله بالتوحيد المطهر من أدران الخرافات ، وبالفضائل المهدبة للنفوس والرقية لها في معارج الكمال حتى تتم لنا سعادة الدنيا والآخرة .

فللدين منزلة في النفوس لا تسمو إليها منزلة أخرى ، فإن تمكن صاحبه من إقامته

فى وطنه وإصلاح أهله به فهم أحق به ، وإن فتن فى دينه فيه كان تركه واجبا عليه ، فإن لم يخرج منه شعيب ومن آمن معه إخراجا وهم كارهون ، كما أخرج خاتم النبیین مع صحبه السابقین الأولین إلى الإسلام - خرجوا مهاجرين كما فعل إبراهيم عليه السلام كما حكى الله عنه : « وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وقد أوجب الله الهجرة على من يستضعف فى وطنه ، فيمنع من إقامة دينه فيه ، فإن لم يفعل ذلك دخل تحت وعيد قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ - قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا » .

ثم بين أحق الأمرين بالرفض وأجدرها باليغض متعجبا من كلامهم فقال :

(قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) أى ما أعظم افتراءنا على الله إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهدانا الصراط المستقيم باتباع ملة إبراهيم .

وإذ كان اتباع ملتكم يعدّ افتراء على الله لأنه قول عليه لا علم لنا به بوحى ولا برهان من العقل ، فكيف بمن يفترى عليه ويضل عن صراطه على علم ؟ ، فالكفر بالحق وغمطه بعد العلم به هو شر أنواع الكفر ، والافتراء على الله فيه أظنع ضروب الافتراء التى لا تقبل فيها الأعذار بحال .

وفى قوله إذ نجانا أى نجا أصحابى منها فهو تغليب بإدخاله فى زميرهم ، أو نجانى من الالتئام إلى هذه الملة التى ما كنت أومن بعقيدها ولا أعمل بعمل أهلها ، ولم أهدأ بعقلى ورأى إلى ملة خير منها فوقفت موقف الحيرة فى شأنها ، كما جاء فى خطاب النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « وَرَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » وقوله : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا
نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا » .

(وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) يقولون ما يكون لي أن
أفعل كذا على معنى أنه غير مستطاع لي ولا جار على السنن المعقولة .

أى ليس من شأننا أن نعود فيها في حال من الأحوال إلا حال مشيئة ربنا
المتصرف في جميع شئونها ، فهو وحده القادر على ذلك ، لا أتم ولا نحن ، لأننا موقنون
بأن ملتكم باطلة ، وملتنا هي الحق التي بها صلاح حال البشر وعمران الأرض .

وهذه الجملة رفض آخر للعود إلى ملتهم مؤكدة أبلغ التأكيد ، مؤيس لهم من
عودته ومن آمن معه إلى ملتهم ، فبعد أن نفى وقوع العود منهم باختيارهم نفاها نفيا
مؤكدًا بأنه ليس من شأنهم ولا يحىء من قبلهم بحال من الأحوال كالترغيب والترهيب
بالرجاء في المنافع والخوف من المضار كالأخراج من الديار إلا حالًا واحدة وهي مشيئة
الله ، ومشيئته تجري على حسب علمه وحكمته في خلقه ، وسنته في خلقه أن ينصر أهل
الحق على أهل الباطل ماداموا ناصرين له وقائمين بما هداهم إليه منه .

وخلاصة ذلك — لا تطمعوا أن يشاء ربنا الخيُّ بنا عودتنا في ملتكم بعد
إذ نجانا منها بفضلله ، فما كان الله ليدهض حجتة ويغير سنته .

(وسع ربنا كل شيء علما) فهو سبحانه يعلم كل حكمة ومصلحة ، ومشيئته
تجري على موجب الحكمة ، فكل ما يقع فهو مشتمل عليها ، وفي هذا إيماء إلى عدم
الأمن من مكر الله سبحانه : « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » .

(على الله توكلنا) أى إلى الله وحده وكلنا أمورنا مع قيامنا بكل ما أوجبه
علينا من الحفاظ على شرعه ودينه ، فهو الذى يكفيننا تهديدكم وما ليس في استطاعتنا
من جهادكم : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » إذ من شروط التوكل الصحيح
القيام بالأحكام الشرعية ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية ، فمن يترك العمل
بالأسباب فهو الجاهل المغرور لا التوكل المأجور ، كيف وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم

لمن سألَه أَيْتَرَ نَاقَتَه سَائِبَةً وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ ؟ «اعقلها وتوكل» رواه الترمذى ، وقال تعالى مخاطباً رسوله بعد أن أمره بمشورة أصحابه فى غزوة أحد : « فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » وإِنَّمَا يَكُونُ الْعَزْمُ بَعْدَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ فَقَدْ لَبَسَ مِنْ يَوْمِئِذٍ دَرْعَيْنِ وَأَعَدَّ الْعُدَّةَ لِقِتَالِ أَعْدَائِهِ وَرَتَّبَ الْجِيُوشَ عَلَى حَسَبِ الْقَوَانِينِ الْمَعْرُوفَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ .

وختلاصة رد شعيب على الملأ من قومه — إنه عجب من تهديدهم وإنذارهم ، وأقام الأدلة على امتناع عودهم إلى ملة الكفر باختيارهم ، وعدم استطاعة أحد إجبارهم عليه غير الله الفعال لما يريد . ثم تنبى بذكر توكله على الله الذى يكفى من توكل عليه ما أمه مما هو فوق كسبه واختياره . ثم ثلث بالدعاء الذى لا يكون مرجو الإجابة إلا بعد القيام بعمل ما فى الطاقة من الأعمال الكسبية مع التوكل على الله فقال :

(ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) الفتح إزالة الأغلاق والأشكال ، وهو قسمان : حسى يدرك بالبصر كفتح العين والقفل والكلام الذى يكون من القاضى . ومعنوى يدرك بالبصيرة كفتح أبواب الرزق والمغلق من مسائل العلم والنصر فى وقائع الحرب والمبهم من قضايا الحكم ، ويقال فتح الله عليه إذا جُدَّ وأقبلت عليه الدنيا ، وفتح الله عليه نصره وفتح الحاكم بينهم وما أحسن فتاحته أى حكمه كما قال شاعرهم :

ألا أبلغ بنى وهب رسولا بأنى عن فتاحتهم غنى

ويقال بينهم فتاحات أى خصومات ، وولى الفتاحة أى القضاء ، وعن ابن عباس : ما كنت أدري ما قوله تعالى : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا » حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفتحك ، وقالت أعرابية لزوجها يبنى وبينك الفتاح . والمعنى — ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق الذى مضت به سنتك فى التنازع بين المرسلين والكافرين وبين الحقين والمبطلين ، وأنت خير الحاكمين لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم ، وتنزهك عن اتباع الظلم واتباع الهوى فى الحكم .

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا
 تَخَاسَرُونَ (٩٠) فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)
 الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا مِنْ
 الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي
 وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)

شرح المفردات

الرجف: الحركة والاضطراب، والمراد بها الزلزلة، ومنه: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ
 وَالْجِبَالُ» وغنى بالمكان يعنى: كرضى يرضى، إذا نزل به وأقام فيه، والآسى:
 شدة الحزن.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه جواب الملأ من قوم شعيب وطلبهم منه العود إلى ملتهم،
 وبين بأسهم منه بما كان من جوابه لهم الدال على ثباته في مقارعتهم وأنه دائم
 النصيح والتذكير لهم عليهم يرفعون عن غيهم .
 ذكرهنا أنهم حذروا من آمن منهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، إذ سيلحقهم
 الخسار في دينهم والخسار في دنياهم، لعل ذلك يثنيهم عن عزيمتهم ويردهم إلى الرشاد
 من أمرهم على حسب ما يزعجون، فكانت عاقبة ذلك أن أصبحوا كأمس الدابر
 وأصبحت ديارهم خرابا يبابا لا أنيس فيها ولا جليس.

الإيضاح

(وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا تخاسرون) أى
 وقال الكافرون من قوم شعيب وهم الملأ الذين جحدوا آيات الله وكذبوا رسوله وتمادوا

في غيرهم لآخرين منهم : لئن اتبعتم شعيبا فيما يقول وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله وأقررتهم ببوته إنكم إذا لخاسرون في فعلكم وترككم ملتكم التي أتم عليها مقيمون إلى دينه الذي يدعوكم إليه .

وعموما الخسران ليشمل خسران الشرف والمجد إذ بإيثارك ملتته على ملة آبائكم وأجدادكم تعترفون بأنهم كانوا ضالين ومعذيين عند الله ، وخسران الثروة والريح بما تحترفونه من تطقيف الكيل والميزان وبخس الغرباء أشياءهم لا يتزاد أموالهم .
ووصف الملأ - أولا بالاستكبار - لأنه هو الذي جرأهم على تهديده وإنذاره بالإخراج من القرية وإشعاره بأنهم أرباب السلطان فيها ، وثانيا : بالكفر لأنه هو الحامل على الإغواء وصددهم عن الإيمان والأخذ بما جاء به ، ثم عللوا لهم صددهم بأن في ذلك لهم مصلحة أيما مصلحة وفائدة أيما فائدة .

والخلاصة - إنه تعالى وصفهم أولا بالضلال ثم وصفهم ثانيا بالإغواء والإضلال .
(فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) أى فأخذتهم الزلزلة فأصبحوا في دارهم منكبين على وجوههم ميتين ، وقد عبر عنه هنا بالرجفة ، وفي هود بالصيحة كعذاب ثمود ، وقد علمت هناك وجه الجمع بينهما .

وقد جاء في سورة الشعراء إن الله أرسل شعيبا إلى أصحاب الأيكة وهم إخوة مدين في النسب ، وقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس في قوله : « كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ » قال كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر ومدين - وفي ذلك دليل على أن الله أرسله إلى أهل مدين وإلى من اتصل بهم إلى ساحل البحر ، وأن حال الفريقين في الكفر والمعاصي كانت واحدة ، وكان ينذرهم متنقلا بينهم .

وكان عذاب مدين بالصيحة والرجفة المصاحبة لها ، وعذاب أصحاب الأيكة بالسموم والحرق الشديد وقد انتهى ذلك بظلة من السحاب فزعوا إليها يتبردون بظلالها فأطبقت عليهم فاختنقوا بها أجمعون .

(الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) جاءت هذه الجملة بيانا من الله لما انتهى إليه أمرهم وكيف كانت عاقبة عملهم فكان سائلا سأل عما آل تهديدهم لشعيب وقومه بقوله : « لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا » وقولهم لقومهم : « لنن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) فأجاب عن الأول جوابا مناقضاً له بقوله : الذين كذبوا شعيبا الخ . أى الذين كذبوا شعيبا وأنذروهم بالإخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم فخرموا كأن لم يقيموا ولم يعيشوا فيها بحال ، وأجاب عن الثانى بقوله : الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين : أى الذين كذبوا وزعموا أن من يتبعه يكون خاسرا - كانوا هم الخاسرين لما كانوا موعودين به من سعادة الدنيا والآخرة دون الذين اتبعوه فإنهم كانوا هم الفائزين بالفلاحين .

وفى الآية إيماء إلى أن الحريص على التمتع بالوطن والاستبداد فيه على أهل الحق تكون عاقبته الحرمان الأبدي منه ، كما أن الحريص على الربح بأكل أموال الناس بالباطل ينتهى بالحرمان منه ومن غيره .

(فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم) أى فأدبر شعيب عنهم وخرج من بين أظهرهم حين أناهم عذاب الله، وقال حزنا عليهم : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي وأدبت إليكم ما بعثنى به إليكم وقد تقدم مثل هذا فى قصة صالح ، وقد اتحد إعدار الرسولين لاتحاد حال القومين .

(فكيف آسى على قوم كافرين) أى فكيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم بعد أن أعذرت إليهم وبذلت جهدى فى سبيل هدايتهم ونجاتهم فاختاروا مافيه هلاكهم ، وإنما يأسى من قصر فيما يجب عليه من النصح والإنذار .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)

شرح المفردات

القرية: المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها (العاصمة) والبأساء: الشدة والمشقة كال حرب والجذب وشدة الفقر، والضراء: ما يضر الإنسان في بدنه أو نفسه أو معيشته ، والأخذ بها: جعلها عقابا لهم، والتضرع: إظهار الضراعة أى الضعف والخضوع ، وعفوا كثروا ونموا، من قولك: عفا النبات والشعر إذا كثر، وبغته: فجأة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال الأمم السابقة مع أنبيائها وبين ما في قصصهم من العظة والعبرة فقد كانت العاقبة في كل حال للمتقين ، والدائرة تدور على المبطلين .
أشار هنا إلى سنة الله في الأمم التي تكذب رسلها أن ينزل بها البؤس وشظف العيش وسوء الحال في دنياهم ليتضرعوا إلى ربهم وينيبوا إليه بالإقلاع عن كفرهم والتوبة من تكذيب أنبيائهم ، وفي هذا من التحذير لقريش والتخويف لهم ما لا يخفى .

الإيضاح

(وما أرسَلْنَا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون) أى إن سَنَمْنَا قد جرت (ولا مبدل لها) أننا إذا أرسَلْنَا نبيًا في قوم وكذبوه أُنزلنا بهم الشدائد والمصائب لنعدهم وتوهمهم للتضرع والإخلاص في دعائنا بكشفها ، وقد ثبت بالتجارب لدى علماء الأخلاق أن الشدائد تربي الناس وتصلح فساد

أحوالهم ، فالْمُؤْمِنُونَ قد يشغله هناء العيش عن حاجته إلى ربه ، لكن الشدائد تذكره به ، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها له بفقدائها وتنبيه الشدائد والأهوال إلى وجود الرب الخالق المدبر لأُمُور الخلق وتذكره الأهوال بمصدر هذا النظام في الكون .
(ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أى ثم أعطينا بدل ما كانوا فيه من البلاء والخنة ، الرخاء والسعة .

(حتى عفووا) أى حتى كثر عددهم ونموا ، إذ أن الرخاء مما يكون سببا في كثرة النسل وبه تتم النعمة في الدنيا على الموسرين ، ومن هذه الحسنات ما حدث لقوم هود من النعم التي بطروا بها وذكرهم هود بها في قوله : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ » وكذا ما قاله صالح لقومه : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ مُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » .

(وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء) أى وقالوا قولاً يدل على أنهم لا يعتبرون بأحداث الزمان . قالوا قد مس آباءنا من قبلنا ما يسوء وما يسر ، وما نحن إلا مثلهم فيصيبنا مثل ما أصابهم ، والدهر بالناس قلب . وتلك عادة الدهر بأبنائه ، فلا الضراء عقاب على ذنب يرتكب ، ولا السراء جزاء على صالحات تكسب .

وخلاصة هذا — إنهم لم يفهموا السنن التي وضعها المولى سبحانه في أسباب السعادة والشقاء في البشر والتي أرشد إليها قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقَوْمٌ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ومن ثم لم يتذكروا ولم يعتبروا حين ذكرهم رسولهم ، بل أعرضوا وأنأوا .

(فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) أى فكان عاقبة أمرهم أن أخذناهم بالعذاب فجأة وهم لا شعور لديهم بما سيحل بهم ، إذ هم قد جهلوا سنن الله التي وضعها في شئون

الاجتماع ، فلاحم اعتدوا إليها بعتقولهم ، ولاهم صدقوا الرسل فيما أنذروهم به ، وجاء بمعنى الآية قوله تعالى فى سورة الأنعام : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ » .

فالكافرون إذا مسهم الشر يئسوا وابتأسوا ، وإذا مسهم الخير بطروا واستكبروا وبنغوا فى الأرض وأهلكوا الحرث والنسل ، والمؤمنون بالله وما جاء به رساله تكون الشدائد والمصائب تريية لهم وتمحيصا .

ولما ترك المسلمون هدى القرآن فى حكوماتهم ومصالحهم العامة ، وفى أعمال الأفراد سلبهم الله ما أعطاهم من أنواع العلم والحكمة واتبعوا سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، فاتبعوا أهل الكتاب فى خرافاتهم وحفلهم وتقليد آبائهم وأجدادهم وطلب النفع والضر من دجالى الأحياء وقبور الأموات ، فغشهم الجبل ، والناطقة منهم قلدوا الإفرنج فى الفسق والجود وشر ما وصلوا إليه فى طور فساد حضارتهم وقلدوهم حتى فيما لا يوافق أحوالهم وبلادهم ومصالحهم .

وهكذا ضلت الفتنان عن هدى القرآن وأضاعتا مابقى من ملك الإسلام .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ
أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ
الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ
اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ
يَرُونَنَا الْأَرْضَ مِمَّن بَعْدَ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْعُ عَلَى
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

شرح المفردات

بركات السماء : تشمل معارف الوحي العقلية ونفحات الإلهام الربانية ، والمطر ونحوه مما يوجب الخصب والخير في الأرض ، وبركات الأرض : الخصب والمعادن ونحوها ، والبأس : العذاب ، وبياتا : أى وقت يبات وهو الليل ، والضحي : انبساط الشمس وامتداد النهار ويسمى به الوقت ، ويلعبون : أى يلهون من فرط غفلتهم ، المكر : التدبير الخفى الذى يفرض بالمكور به إلى ما لا يحتسب ، وهده السبيل وهده إليه وهده له أى دله عليه ويبيته له .

المعنى الجملى

بعد أن بن عز اسمه أخذه لأهل القرى الذين كذبوا رسلهم وكفروا بما جاءوا به وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بما افتتوا فيه من أفانين الشرك والمعاصى كما حكى الله في محاورتهم لرسلهم وإجابة الرسل لهم بما سلف ذكره .

ذكر هنا لأهل مكة ولسائر الناس ما كان يكون من إغداق نعمه تعالى عليهم لو آمنوا بالرسول واهتدوا بهديهم واعتبروا بسنة الله فى الأمم من قبلهم ، فإن سنته تعالى فى الأمم واحدة لا تبدل فيها ولا تحويل .

الإيضاح

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) أى ولو أن أهل مكة ومن حولهم من أهل القرى آمنوا بما دعاهم إليه خاتم الرسل صلوات الله عليه من عبادته تعالى وحده واتقوا ما نهاهم عنه من الشرك والفساد فى الأرض بارتكاب الفواحش والآثام - لفتحنا عليهم أنواعا من بركات السماء والأرض لم يعهدوها من قبل فتكون لهم أبواب نعم وبركات غير التى عهدوا فى صفاتها ونماؤها وثباتها وأثرها فيهم ، فأنزلنا عليهم الأمطار النافعة التى تخصب الأرض وتكسب

البلاء رفاهية العيش ، وآتيناهم من العلوم والمعارف وفهم سنن الكون ما لم يصل إلى مثله البشر من قبل .

وإخلاصة — إنهم لو آمنوا لوسعنا عليهم الخير من كل جانب ويسرناه لهم بدل ما أصابهم من عقوبات بعضها من السماء وبعضها من الأرض .

والقاعدة التي أقرها القرآن الكريم أن الإيمان الصحيح ودين الحق سبب لسعادة الدنيا ويشارك المؤمنين في المادى منها الكفار كما قال تعالى : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » أى إن ذلك الفتح كان ابتلاء واختبارا لحالهم ، وكان من أثره فيهم البطر والأشر بدلا من الشكر لأولى النعم فكان نعمة لانعمة ، وفننة لابركة ، ولكن المؤمنين إذا فتح الله عليهم كان أثره فيهم شكر الله عليه والاعتباط بفضلله واستعماله في سبيل الخير دون الشر وفى الإصلاح دون الإفساد ، ويكون جزاؤهم على ذلك زيادة النعم فى الدنيا وحسن الثواب عليها فى الآخرة .

(ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) أى ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا فأخذناهم بما كانوا يعملون من أعمال الشرك والمعاصى التى تفسد نظم المجتمع البشرى .

وذلك الأخذ بالتقلب أثر لازم لكسبهم للمعاصى على حسب السنن التى وضعها الله فى الكون وتكون فيها العبرة لأمثالهم إن كانوا يعقون هذه النواميس العامة التى لا تبدل فيها ولا تتغير .

ثم تعجب من حالهم وذكركم من غفلتهم فقال :

(أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون) أى أجهل أهل مكة وغيرهم من أهل القرى الذين بلغتهم الدعوة والذين سببلغهم ما نزل بمن قبلهم وغيرهم ما هم فيه من نعمة فأمنوا أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم وهم نائمون .

(أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يالعبون) أى أو أمن أهل القرى أن يأتيهم عذابنا فى وقت الضحى وهم منهكون فى أعمالهم التى كأنها لعب أطفال لعدم فائدة ترتب عليها .

والخلاصة — إنه تعالى خوفهم نزول العذاب بهم فى أوقات الغفلات إما حين النوم وإما وقت الضحى ، إذ يكثر فيه تشاغل الناس بالذات .

(أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) أى أكان سبب أمنهم إتيان بأسنا بياتا أو ضحى وهم غافلون عن مكر الله بهم بإتيانهم بيأسنا من حيث لا يحتسبون ولا يقدرّون ؟ إن كان الأمر كذلك فقد خسروا أنفسهم فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وإذا كانت الآية ناطقة بأن أمن الصالح المتعبد من مكر الله جهلا يورث الخسر فما بال من يأمن مكر الله وهو مسترسل فى معاصيه انكالا على عفوه ومغفرته ورحمته ؟ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء بقوله : « يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك » . وذكر سبحانه أن الراسخين فى العلم يدعونهم فيقولون : « رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » .

وكما أن الأمن من مكر الله خسران ومفسدة ، فالأيس من رحمة الله ، كذلك ، فكلاهما مفسدة تتبعها مفسد .

(أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) أى أكان ما ذكر آنفا مجهولا لأهل القرى وأنه هو سنة الله ولم يتبين لأولئك الذين يرثون الأرض من بعد أهلها قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل أن شأننا فيهم كشأننا فيمن سبقهم فهم خاضعون لمشيئتنا ، فلو نشاء أن نعذبهم بسبب ذنوبهم لعذبناهم كما أصبنا أمثالهم من قبلهم بمثلها وأهلكناهم كما أهلكناهم ، فإن لم نهلكهم بالعذاب نطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون الحكم

والنصائح سماع تفقه وتدبر: «وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» إذ أن قلوبهم قد ملئت بمعتقدات وشهوات تصرفها عن غيرها فجعلتهم من: «الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا»، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا». وقد كان في مثل هذا القصص عبرة للمسلمين أيما عبرة فسكتابهم يقص عليهم قصص الأمم قبلهم ويبين لهم أن ذنوب الأمم لا تغفر كذنوب بعض الأفراد وسنته فيها لا تتبدل ولا تتحول فكان عليهم أن يتقوا كل ما قصه من ذنوب الأمم التي هلك بها من قبلهم وزالت بها الذلولة لأعدائهم، ولكنهم قصرُوا في وعظ الأمة بها وإنذارهم عاقبة الإعراض عنها وترك الإعراض عن تدبرها، وكان عليهم أن يعتبروا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «شيبني هود وأخواتها» وقوله تعالى: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ».

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢).

شرح المفردات

العهد: الوصية. والوصية تارة يراد بها إنشاؤها وإيجادها، وأخرى يراد بها ما يوصى به، ويقال عهدت إليه بكذا أى وصيته بفعله أو حفظه، وهو إما أن يكون بين طرفين وهو المعاهدة، وإما من طرف واحد بأن يعهد إليك بشيء أو تلزم بشيء، والميثاق هو العهد الموثق بضرب من ضروب التوكيد.

وقال الراغب: عهد الله تارة بكون بما ركزه في عقولنا ، وتارة يكون بما أمرنا به في الكتاب والسنة رسله ، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشرع كالنذور وما يجرى مجراها هـ .

والفسوق : الخروج عن كل عهد فطرى وشرعى بالنكث والغدر وغير ذلك من المعاصى ، ووجدنا الأولى بمعنى : ألقينا . والثانية بمعنى : علمنا .

المعنى الجملى

هذا خطاب وجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم تسليمة وتثبيتاً له على الصبر على دعوته بتذكيره بما فى قصص أولئك الرسل مع أقوامهم من وجوه العبر والمواعظ ، وبيان أن ما يلاقيه منهم من ضروب العناد والاستكبار والإيذاء ليس بدعاً بين الأمم بل ذلك طريق سلكه كثير من الأمم المجاورة لهم كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وغيرهم ممن تقدم ذكرهم ، وقصصهم يدور على ألسنتهم بحكم الجوار لهم وطروق أرضهم فى حلهم وترحالهم فى رحلتى الشتاء والصيف .

الإيضاح

(تلك القرى نقص عليك من أنبائها) أى تلك القرى التى بعد عهدنا ، وطال الأمد على تاريخها وجهل قومك حقيقة حالها نقص عليك بعض أنبائها مما فيه العبرة لقومك ولك .

والمراد بها القرى المعهودة فى هذا القصص ، والحكمة فى تخصيصها بالذكر أنها كانت فى بلاد العرب وما جاورها ، وكان أهل مكة وغيرهم ممن وجهت إليهم الدعوة أول الإسلام يتناقلون بعض أخبارها وهى جميعاً طبعت على غرار واحد فى تكذيب الرسل والمماراة فيما جاءوا به من النذر فخل بهم النكال وأخذوا بعذاب الاستئصال ، فالعبرة فى جميعها واحدة ، ومن ثم فضلها من قصة موسى الآتية لأن قومه آمنوا به وإنما كذب فرعون وملؤه فعدبوا .

(ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) أى ولقد جاء أهل تلك القرى رسلهم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم والآيات التى اقترحوها عليهم لإقامة حجتهم ، فجاء كل رسول قومه بما أعذر به إليهم ، ولكن لم يكن من شأنهم أن يؤمنوا بعد مجئ البينات بما كذبوا به من قبل مجئها حين بدء الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده بما شرعه وترك الشرك والمعاصى .

ذاك أن شأن المكذبين عنادا أو تقليدا أن يصروا على التكذيب بعد إقامة البينة ، إذ لا قيمة لها فى نظرهم ، فهم إما جاحدون معاندون ضلوا على علم ، وإما مقلدون يابون النظر والفهم .

وفى معنى الآية قوله فى قصة نوح فى سورة يونس : « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ » .

(كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) أى مثل ما ذكر من عناد هؤلاء وإصرارهم على الضلال وعدم تأثير الدلائل والبينات فى عقولهم يكون الطبع على قلوب من ران الكفر على قلوبهم وصار العناد دينهم على حسب سنة الله فى أخلاق البشر وأحوالهم ، إذ هم يأنسون بالكفر وأعماله وتستحوذ أوهامه على عقولهم ويملا حب الشهوات أفئدتهم فلا يقبلون بحشا ولا فيما هم عليه نقدا ، فما مثلها إلا مثل السكة التى طبعت على طابع خاص أثناء صهر معدنها وإذا بته ثم جددت فلا تقبل بعد ذلك نقشا ولا شكلا آخر .

وفى الآية تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم وإعلام له بأن أهل مكة قد وصلوا إلى حال من الجود والعناد وفساد الفطرة وإهمال النظر والعقل لا تؤثر فيها البينات وإن وضحت ، ولا الآيات وإن اقترحت .

وقد كانوا يقترحون عليه الآيات ، وكان يتمنى أن يؤتيه الله ما اقترحوا منها حرصا

على إيمانهم ، حتى بين الله له طباعهم وأخلاقهم ليعرف مبالغ أمرهم في قبول دعوته وأنه لا أمل له فيهم بحال .

(وما وجدنا لأكثرهم من عهد) أى وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام عهدا ما يفون به سواء كان عهد الفطرة التى فطر الله الناس عليها (إذ قد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان غيبى فوق جميع القوى ، وعلى إيثار الحسن واجتناب غيره وعلى حب الكمال وكراهة النقص) أم كان العهد الذى أخذه ربهم عليهم وهم فى الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع ، وقد جاء فى صحيح مسلم : « يقول الله : إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتاتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وفى الصحيحين : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

(وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) أى وإننا وجدنا أكثرهم خارجين على كل عهد فطرى وشرعى وعرفى فهم ناكثون غادرون لليهود مرتكبون أفانين المعاصى . وفى التعبير بالأكثر إيماء إلى أن بعضهم قد آمن والتزم كل عهد عاهده الله عليه أو تعاهد عليه مع الناس .

وهذا من دأب القرآن فى تحقيق الحقائق على وجه الصدق بحيث لا تشوبها شبهات المبالغة بما يسلب أحدا حقه أو يعطى أحدا حق غيره .

قصص موسى عليه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولُ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىَّ أَلَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ

بَيِّنَةً مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَا ثُؤُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) .

شرح المفردات

موسى: هو موسى بن عمران (بكسر العين) وأهل الكتاب يقولون : (عرام) بفتح أوله ، وإنما سمي موسى لأنه ألقى بين ماء وشجر ، فالهاء بالقبطية (مو) والشجر : (سى) وذلك أن أمه وضعته بعد ولادته في تابوت : (صندوق) وأقفلته إقفالا محكما وألقته في (نهر النيل) خوفا من فرعون وحكومته أن يعلموا به فيقتلوه إذ كانوا يذبحون ذكور بني إسرائيل عند ولادتهم ويتركون نساءهم .

وفرعون لقب ملوك مصر القدماء كلقب قيصر ملوك الروم وكسرى ملوك الفرس ، والراجح لدى كثير من يعنون بالتاريخ المصرى القديم أن فرعون موسى هو الملك منفتح وكان يلقب بسليل الإله : (رع) أى الشمس وقد كتب بجانب هيكله الذى بدار الآثار الآية الكريمة : «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقْتَ آيَةً» والملاأ أشرف القوم ، وظلموا بها : جحدوا بها وكفروا ، وحقيق : أى جدير وخلق به ، يقولون أنت حقيق بكذا كما يقولون : أنت جدير به وخلق به ، والنزع : إخراج الشيء من مكانه ، وتأمرؤن : أى تشيرؤن فى أمره ، يقولون : مرئى بكذا على معنى : أشر على وأدل برأيك ، وأرجئ : أى أرجئ أمره وأخره ولا تفصل فيه بادى الرأى ، وفى المدائن

أى مدائن ملكك ، وحاشرين أى جامعين سائقين السحرة منها ، وعليم : أى بفنون السحر ، ماهر فيها .

المعنى الجملى

هذه هى القصة السادسة من قصص الأنبياء التى ذكرت فى هذه السورة وفيها من الإيضاح والتفصيل ما لم يذكر فى غيرها لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات غيره ممن سبق ذكرهم ، وجهل قومه كان أخش . وقد ذكرت قصته فى عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة ، وذكر اسمه فى سور كثيرة زادت على مائة وثلاثين مرة ، وسر هذا : أن قصته أشبه قصص الرسل بقصص النبي صلى الله عليه وسلم إذ أنه أوفى شريعة دينية دنيوية ، وكون الله تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية .

الإيضاح

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظالموا بها) أى ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى بالمعجزات التى تدل على صدقه فيما يبلغه عنا إلى فرعون وأشراف قومه فظالموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها كبرا وجحودا فكان عليهم إثم ذلك وإثم قومهم الذين حرموا من الإيمان باتباعهم لهم ، وقال : « إلى فرعون وملئه » ولم يقل فرعون وقومه لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبني إسرائيل ويبدعهم أمرهم وليس لسائر المصريين من الأمر شئ لأنهم كانوا مستعبدين أيضا ، ولكن الظلم كان على بني إسرائيل الغرباء أشد ، ولو آمن فرعون وملؤه لآمن سائر المصريين لأنهم كانوا تبعاء لهم ، وقد كان موسى مرسلًا إلى قومه بنى إسرائيل قصدا وإلى فرعون وملئه وسيلة .

(فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى فانظر أيها الرسول كيف كان عاقبة فرعون وملئه المفسدين فى الأرض بالظلم واستعباد البشر حين جحدوا آيات الله وكفروا بها .

وفي هذا تشويق وتوجيه للنظر إلى ما سيقصه الله تعالى من عاقبة أمرهم إذ نصر
رسوله موسى وهو واحد من شعب مستضعف مستعبد لهم، على فرعون وملئه وهم أعظم
أهل الأرض قوة وصولاً بأن أبطل سحرهم وأقع علماءهم وسحرتهم بصحة رسالته
وكون آياته من عند الله، ثم نصره بإرسال أنواع العذاب على البلاد ثم بإتخاذ قومه
وإغراق فرعون ومن تبعه من ملئه وجنوده. وهذه عبرة قائمة على وجه الدهر وحجة
على أن الغلب ليس للقوة المادية فحسب كما يقوله المغرورون بمظلمة الأمم الظالمة في الغرب
لمن استضعفتهم من أهل الشرق.

وبعد التشويق والتنبيه المتقدم، قص الله تعالى ما كان من أولئك القوم في مبدأ
أمرهم حتى انتهوا إلى تلك العاقبة.

(وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين. حقيق على ألا أقول على الله
إلا الحق) أي إن موسى صلى الله عليه وسلم بلغ فرعون أنه رسول من رب العالمين
كلهم: أي سيدهم ومالكهم ومدبر جميع أمورهم، فهو لا يقول على الله إلا الحق
إذ لا يمكن أن يبعث الله رسولا يكذب عليه وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، فهو
معصوم من الكذب والخطأ فيه.

والخلاصة—إن كلامه اشتمل على عقيدة الوجدانية، وهي أن للعالمين ربا واحدا
وعلى عقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة في التبليغ والهداية.

ثم ذكر بعد هذا أن الله أيده ببينة تدل على صدقه في دعواه فقال:
(قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل) أي قد جئتكم ببرهان
من ربكم شاهد على صدق ما أقول.

وفي قوله: من ربكم إيماء إلى أنهم مريون وأن فرعون ليس ربا ولا إلها وإلى
أن البينة ليست من كسب موسى ولا مما يستقل به عليه السلام. ثم رتب على مجيئه
بالبينة طلبه منه أن يرسل معه بنى إسرائيل أى يطلقهم من أسرهم ويعتقهم من رقه
وقهره ليذهبوا معه إلى دار غير داره ويعبدوا فيها ربهم وربهم.

وقد أجابه فرعون على طلبه بقوله :

(قال إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين) أى قال فرعون لموسى إن كنت قد جئت مؤيدا بآية من عند من أرسلاك كما تدعى فأتني بها وأظهرها لى إن كنت ممن يقول الصدق ويلتزم قول الحق .

(فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين) أى فلم يلبث موسى أن ألقى عصاه التى كانت يمينه أمام فرعون فإذا هي ثعبان (ذكر الحيات) مبين ، أى ظاهر بين لا خفاء فى كونه ثعبانا حقيقيا يسعى وينتقل من مكان إلى آخر وتراه الأعين من غير أن يسحرها ساحر فيخيل إليها أنها تسعى ، وقوله : ونزع يده ، أى أخرجها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه بعد إلقاء العصا فإذا هي بيضاء ناصعة البياض تتلألأ لكل من ينظر إليها .

وقد ذكر رواة التفسير بالمأثور روايات غاية فى الغرابة فى وصف الثعبان ليس لها سند يوثق به وما هى إلا إسرائيليات تلقفها المفسرون من أهل الكتاب الذين كانوا يكيدون للإسلام وللعرب كروايات وهب بن منبه وهو فارسى الأصل أخرج كسرى والده إلى بلاد الين فأسلم فى زمن النبی صلى الله عليه وسلم وكان ابنه من بعده يختلف إلى بلاده بعد فتحها ، ومثله روايات كعب الأحبار الإسرائيلى ، وقد كان كلاهما كثير الرواية للغرائب التى لا يعرف لها أصل معقول ولا منقول ، وقومهما كانوا يكيدون للمسلمين الذين فتحوا بلاد الفرس وأجلوا اليهود من الحجاز ، ألا ترى أن قاتل الخليفة الثانى فارسى مرسل من جماعة سرية لقومه ، وقتلة الخليفة الثالث كانوا مفتونين بدسائس عبد الله بن سبأ اليهودى .

ويرى المحققون من أعلام المسلمين أن الفتن السياسية والأكاذيب التى حدثت فى الرواية فى الصدر الأول يرجع أمرها إلى جماعة السبئيين وجماعات الفرس التى كانت تزود هؤلاء الوضاعين بأسلحة من الغش والتدليس ليفسد الإسلام على أهله ولولا أن قيض الله للإسلام جماعة من أهل التحقيق أخرجوا البهرج والزيوف وألقوه

وراءهم ظهريا وأبقوا الجيد الذي لا لبس فيه ولا شك في صحة روايته لكان خطبهم قد استفحل في الإسلام وأفسدوا كثيرا منه على أهله ، ولكن الله قد حفظ الحنيفية لأهلها بيضاء نقية سمحة لا عنت فيها ولا إرهاق :

(قال الملائكة من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فإذا تأمروا) أى قال الأشراف من قوم فرعون وهم أهل مشورته ورؤساء دولته : إن هذا لساحر عليم : أى ماهر فى فنون السحر قد وجه كل همه لسلب ملككم منكم وإخراجكم من أرضكم بسحره ، إذ به يستميل الشعب وينتزع منكم الملك ، ثم يخرج الملك وعظماؤه رجاله من البلاد حتى لا ينافووه فى شئون الملك واستعادته منه .

وقد أبان هذا المعنى بوضوح بقوله فى سورة يونس حكاية عنهم من مراجعتهم لموسى وأخيه : « قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَكَ وَأَنْتَ فَتَكُونُ كَكُلِّ الْكِبَرِيَاءِ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » .

ولم يكن هذا القول منهم إلا صدق لما قاله فرعون وقد حكاها الله عنه فى سورة الشعراء بقوله : « قَالَ الْمَلَأُ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » وقد رددوه بعده وصار بعضهم يلقيه إلى بعض كما هى عادة الناس فى ترديد كلام الملوك والرؤساء إظهارا للموافقة عليه وتعميما لتبليغه ، وبعد أن أتموا مقالتهم موافقين ما قاله فرعون تشاوروا فى أمره وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء نوره وإخماد ناره دعوته متخوفين أن يستميل الناس بسحره ، فاتفقت كلمتهم على ما حكاها الله عنهم بقوله :

(قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين) أى قال الملائكة لفرعون حين استشارهم بقوله : فما تأمرون ؟ آخر الفصل فى أمره وأمر أخيه وأرسل فى مدائن ملكك جماعات من رجال شرطتك وجندك حاشرين : أى جامعين لك السحرة منها وساتقيهم إليك .

وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً ، ومن ثم خيل إلى كثير منهم أن
 ما جاء به موسى من قبيل ما تشعبد به سحرتهم فلهمذا جمعوا له السحرة ليعارضوه
 بنظير ما أراهم من البيّنات كما حكى الله عن فرعون حيث قال : « أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا
 مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ، فَلَمَّا تَبَيَّنَكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا
 لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا ، قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ
 ضُجًى ، فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ، »

(ياتوك بكل ساحر عليم) أى فإن ترسلهم يأتوك بكل ساحر مجيد لفنون السحر
 ماهر فيها فيكشفوا لك حقيقة ما جاء به موسى فلا يفتن به أحد .
 وإنما قال في الدائن لأن السحر من العلوم التى توجد فى الدائن الجامعة المأهولة
 بدور العلم والصناعة ، وإنما نصحوه بإحضار السحرة الماهرين ، لأنهم الجديرون أن
 يأتوا موسى بتثل ما أتى به من الأمر العظيم .

فذلك في السحر وضرره

السحر أعمال غريبة وحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها .
 وقد كان فنا من الفنون التى يتعلمها قدماء المصريين فى مدارسهم الجامعة مع
 كثير من العلوم السكونية ، واقتفى أثرهم فى ذلك البابليون والهنود وغيرهم ولا يزال
 يؤثر عن الوثنيين من الهنود أعمال غريبة مذهشة من السحر اهتم بعض الإنكليز
 وغيرهم بالبحث عن حقيقة أمرها فعرفوا بعضاً وجهلوا تعليل الأكثر .
 والسحر لا يروج إلا بين الجاهلين وله مكانة عظيمة فى القبائل الممجية ،
 والبلاد ذات الحضارة تسميه بالشعوذة والاحتفال والدجل ، وهو أنواع ثلاثة :

(١) ما يعمل بأسباب طبيعية من خواص المادة معروفة للساحر بمجهولة عند من
 يسحرهم بها كالزئبق الذى قيل إن سحرة فرعون وضعوه فى حبالهم وعصيمهم كما
 سذكروه بعد ولو ادعى علماء الطبيعة والكيمياء فى هذا العصر السحر فى أواسط

إفريقيا وغيرها من البلاد التى يروج فيها السحر لأروهم العجب العجاب من غرائب الكهرباء وغيرها حتى لو ادعوا فيهم الألوهية لخضعوا لهم فضلا عن النبوة والولاية .
(٢) الشعوذة التى ملاك أمرها خفة اليدين فى إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعض وإراءة بعضها بغير صورها وغير ذلك مما هو معروف فى هذه البلاد وغيرها من البلاد المتمدينة .

(٣) ما يكون مداره على تأثير الأنفس ذات الإرادة القوية فى الأنفس الضعيفة القابلة للأوهام والانفعالات التى يسميها علماء النفس : (بالأنفس المستيرية) وأصحاب هذا النوع يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين ومنهم من يكتب الأوقاف والطلسمات للحب والبغض إلى نحو ذلك .

ومن ذلك ما استحدث فى هذا العصر من التنويم المغناطيسى .
وعلى الجملة فالسحر صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص الكتاب الكريم وبالاختبار الذى لم يبق فيه شك بين العلماء فى هذا العصر .

قال أبو بكر الرازى المعروف بالخصاص وهو من فقهاء الحنفية فى القرن الرابع :
زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم سحر وأن السحر عمل فيه حتى قال فيه : (إنه يخيل إلى أنى أقول الشئ وأفعله ، ولم أقله ولم أفعله وإن امرأة يهودية سحرته فى جُفْ طلعة : (وعاء طلع النخل) ومشط ومشاة حتى أتاه جبريل عليه السلام فأخبره أنها سحرته فى جُفْ طلعة وهو تحت راعوفة البئر^(١) . فاستخرج وزال عن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك العارض .

إلى أن قال : ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدين تلعبا بالخشو الطغام واستجرارا لهم إلى القول بإبطال معجزات الأنبياء عليهم السلام والتدح فيها ، وأنه لا فرق بين معجزات الأنبياء وفعل السحرة وأن جميعه من نوع واحد . والعجب ممن يجمع بين

(١) المشاة : بالضم الشعر الذى يسقط حين تسريحه بالمشط ، وراعوفة البئر : الحجر الثابت الذى يقف عليه المستقى من البئر ، أى لمنها وضعت المشط والمشاة فى جف طلعة تحت حجر البئر .

تصديق الأنبياء عليهم السلام وإثبات معجزاتهم وبين التصديق بمثل هذا من فعل السحرة مع قوله تعالى : « وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » فصدق هؤلاء من كذبه الله وأخبر ببطالان دعواه وانتحاله ، وجاز أن تكون المرأة اليهودية بمجهاها فعلت ذلك ظنا منها بأن ذلك يعمل في الأجساد وقصدت به النبي عليه السلام فأطلع الله نبيه على موضع سرها وأظهر جهلها فيما ارتكبت وظنت ليكون ذلك من دلائل نبوته ، لا أن ذلك ضره ، وخاط عليه أمره ، ولم يقل كل الرواة انه اختلط عليه أمره ، وإنما هذا اللفظ زيد في الحديث ولا أصل له اه .

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ
(١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أنهم طلبوا إليه تأخير الفصل في أمره حتى يحضر السحرة ليفسدوا عليه أعماله ويبينوا خبيء حيله - ذكر هنا أن السحرة جاءوا وطلبوا المثوبة من فرعون إن هم نفذوا ما طلبه فأجابهم إلى ذلك ففعلوا أفاعيلهم السحرية التي أوقعت الرهب في قلوب المشاهدين .

الإيضاح

(وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين) أى وجاء السحرة الذين حشرهم أعوان فرعون وشرطته إليه ، وحين جاءوا قالوا لفرعون : هل لنا من أجر كفاء ما نقوم به من العمل العظيم الذى يتم به الغلب على موسى .

(قال نعم وإنكم لمن المقرين) أى قال فرعون مجيباً لهم إلى ما طلبوا : نعم إن لكم أجراً عظيماً على ما تقومون به من ذلك العمل الجليل ، وأنتم مع ذلك تكونون من المقرين منا فتجمعون بين المال والجاه وذلك منتهى ما تطمعون فيه من نعيم الدنيا وسعادتها .

(قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين) أى قال السحرة لموسى بعد عدة فرعون لهم : إما أن تلقى ما عندك أولاً ، وإما أن تلقى ما عندنا ؛ وفى هذا التخيير منهم له ... دليل على اعتدادهم بسحرتهم وثقتهم بأنفسهم وعدم المبالاة بعمله ، ولولا ذلك لما خيروه . إذ المتأخر فى العمل يكون أبصر بما تقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى جهد خصمه .

(قال ألقوا) أى قال موسى عليه السلام وهو واثق بشأنه محتقر لهم غير مبال بهم : ألقوا ما أنتم ملقون وهو عليه السلام لم يأمرهم بفعل السحر ابتداء وإنما أمر بأن يتقدموه فيما جاءوا لأجله ولا بد لهم منه ، وأراد بذلك التوسل إلى إظهار بطلان السحر لا إثباته وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه ، ولم يكن هناك وسيلة للإبطال إلا ذلك ، وقد صرح به فيما حكاه تعالى عنه : « قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » .

(فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) استرهبه أوقع فى قلبه الرهب والخوف ، أى فلما ألقوا ما ألقوا من حبالهم وعصيم سحروا أعين النظارة ومنهم موسى عليه السلام كما جاء فى سورة طه : « فَإِذَا حَبَّاهُمْ وَعَصِيَهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَهَّا تَسَعَى » وجاءوا بسحر عظيم فى مظهره كبير فى تأثيره فى أعين الناس .

قال ابن كثير أى خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخیال .

قال ابن عباس رضى الله عنه : إنهم ألقوا جبالا غلاظاً وخشبا طوالا فأقبلت يخيل إلى من سحرهم أنها تسعى .

قال ابن اسحق إن السحرة كانوا خمسة عشر ألف ساحر وأن الحيات التى أظهروها بخيال سحرهم كانت كأمثال الجبال قد ملأت الوادى . وقال السدى : إن السحرة كانوا بضعا وثلاثين ألفا هـ .

وكل هذا مبالغات إسرائيلية وتهويلات لم يصح شىء منها وليس فى التوراة ما يؤيدها .

وقال الجصاص فى تفسيره : سحروا أعين الناس ، يعنى موهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى ، كما قال : « يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » فأخبر أن ما ظنوه سعيها منها لم يكن سعيها وإنما كان تخيلا . وقد قيل إنها كانت عصيا مجوفة قد ملئت زئبقا وكذلك الحبال كانت معمولة من جلد محشوة زئبقا ، وقيل حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابا ملئوها نارا فلما طرحت عليه وحى الزئبق حركها لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير هـ .

فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية إذا صح خبرها . ويمكن أن تكون هناك حيلة أخرى كإطلاق أبخرة أثرت فى الأعين فجعلتها تبصر ذلك ، أو أن الحبال والعصى جعلت على صورة الحيات وحركت بحركات خفية سريعة لاتدركها أبصار الناظرين .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
(١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَعَلَبُوا هُمُتَهُمْ وَتَنَبَّأُوا

صَاغِرِينَ (١١٩) وَأَلْقَى السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) .

شرح المفردات

لَقِفَ الشَّيْءَ وَتَلَقَّفَهُ : تناوله بحذق وسرعة ، والمأفوك : المصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه ، ومن ثم يقال للرياح التى عدلت عن مهابها مؤتفكة كما قال : « وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ » وقال : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ » أى يصرفون عن الحق فى الاعتقاد إلى الباطل ، وعن الصدق فى المقال إلى الكذب ، وعن الجليل فى الفعل إلى التبيح ، فالإفك يكون بالقول كالكذب وقد يكون بالفعل كعمل سحرة فرعون ، وانقلبوا عادوا ، وصاغرين أى أدلة بما رزؤوا به من الخذلان والخيبة ، وألقى السحرة ساجدين : أى خروا سجدا لأن الحق بهزم واضطهرهم إلى السجود .

الإيضاح

(وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون) أى أوحى الله إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام فى ذلك الموقف العظيم الذى قرن فيه بين الحق والباطل - أن يلتقى ما فى يمينه وهى عصاه فإذا هى تبتلع ما يلقون ويوهمون به أنه حق وهو باطل - قال ابن عباس فجعلت لا تمر بشئ من حبالهم ولا خشبهم إلا التقتته فعرفت السحرة أن هذا شئ من السماء وليس بسحر فخرؤا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون .

ويرى جماعة من المفسرين أن تلقفها لما يأفكون - هو أنها أتت عليه حتى أظهرت بطلانه وبيان حقيقة أمره فى نفسه بسرعة فإن كان إفكهم بما أحدثوه من التأثير فى الأعين فلقفها إياه إزالته وإبطاله برؤية الحبال والعصى على حقيقتها وإن

كان تحريكها لها بمحركات خفية سريعة فكذاك ، وإن كان قد حصل يجعلها مجوفة محشوة بالزئبق وتحريكه إياها بفعل الحرارة : (سواء كانت نارا أعدت لها أو الشمس حين أصابتها) فلقفها لذلك يكون بعمل من الحية أخرجت به الزئبق من الحبال والعصى فانكشفت به الحيلة ، ولو كانت قد ابتلعها لبقى الأمر ملتبسا على الناس إذ قصاره أن كلا من السحرة وموسى قد أظهر أمرا غريبا ولكن أحد الفريقين كان أقوى من الآخر فأخفاه على وجه غير معلوم ولا مفهوم ، وهذا لا ينافي كونهما من جنس واحد - ولكن زوال غشاوة السحر وتخييله حتى رأى الناس أن الحبال والعصى التي ألقاها السحرة ليست إلا حبالا وعصيا لا تسعى ولا تتحرك ، وأن عصا موسى لم تنزل حية تسعى هو الذي ماز الحق من الباطل وعرفت به الآية الإلهية والحيلة الصناعية وقد فعلت ذلك بسرعة ومن ثم عبر عنه بالقف ، ولكن لا يعرف بما كان لها هذا التأثير لأنها آية إلهية لا أمر صناعي حتى تدرك حقيقته .

(فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) أى قُتِبَ الحق وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخيل وذهب تأثيره ، إذ تبين لمن شاهده وحضره أن موسى رسول من عند الله يدعو إلى الحق وأن ما عملوه ما هو إلا إفك السحر وكذبه ومخايله .

(فقلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) أى فغلب موسى فرعون وجنوده في ذلك الجمع العظيم الذي كان في عيد لهم ضربه موسى موعدا لهم كما جاء في سورة طه : « قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنِقَةِ وَأَنْ تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى » وعادوا من ذلك الحفل صاغرين أذلة بما رزؤوا به من خيبة وخذلان .

(وألقى السحرة ساجدين) أى وألقى السحرة حينما عاينوا عظيم قدرة الله ساقطين على وجوههم سجدا لرهبهم ، لأن الحق قد بهرهم واضطرهم إلى السجود ، حتى كأن أحدا دققهم وألقاهم .

والخلاصة - إن ظهور بطلان سحرهم وإدراكهم فجأة لآية موسى وعلمهم بأنهم من عند الله لاصنع فيها مخلوق ملأت عقولهم يقينا وقلوبهم إيمانا فكان هذا

اليقين الحاكم على الأعضاء والجوارح هو الذى ألقاهم على وجوههم سجداً لرب العالمين الذى بيده ملكوت كل شيء - وزالت من نفوسهم عظمة فرعون الدنيوية الزائلة بعد أن ظهر لهم صغاره أمام هذه الآية فنطقوا .

(قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون) أى قالوا صدقنا بما جاءنا به موسى ، وأن الذى علينا أن نعبد هو رب الإنس والجن وجميع الأشياء المدبر لها رب موسى وهارون .

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا مَكْرٌ مَكْرٌ مُتَمَوُّ
فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَا صَلْبَ لَكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا
مُنتَقِلُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) .

شرح المفردات

المكر : صرف الإنسان عن مقصده بحيلة ، وهو نوعان : محمود ويراد به الخير . ومذموم يقصد به الشر ، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والعكس بالعكس ، والصلب الشد على خشبة ونحوها وشاع في تعليق الشخص بنحو جبل في عنقه لموت وهو المتعارف اليوم - ونقمت الشيء : إذا أنكرته إما باللسان وإما بالعقوبة كما قال تعالى « وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ » - « وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ » وأفرغ علينا : أى أفض علينا صبراً يغمرنا كما يفرغ الماء من القرب .

المعنى الجملى

فى هذه الآفة إخبار بما تؤعد به فرعون السخرة لما آمنوا بموسى عليه السلام وبما عزم عليه من التنكيل بهم وبما رد به السخرة عليه من استسلامهم لأمر الله للأمره ودعائهم ربهم بالتوفى على ملة الإسلام .

الإيضاح

(قال فرعون آمتم به قبل أن آذن لكم) آمتم إما خبر يراد به التوبيخ ، وإما استفهام يراد به الإنكار والتوبيخ .

والمعنى — أ آمتم به واتبعتموه مذعنين لرسالته قبل أن آذن لكم ؟ .
(إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها) أى إن هذا الذى فعلتموه أتم وهو ليس إلا مكرًا مكرتموه واتفاقًا دبرتموه من قبل بما أظهرتم من المعارضة والرغبة فى الغلب عليه مع إصرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته كما جاء فى سورة طه : « إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَيْهِ السَّحَرُ » فأجتمعت كيدكم لنا فى هذه المدينة لأجل أن تخرجوا المصريين منها بستركم ، ويكون لكم فيها مع بنى إسرائيل ما هو لنا الآن من الملك والرياسة والتصرف فى البلاد .

وكل ذى لب وفطنة يعلم أن هذه مقالة لانصيب لها من الصحة ولا ظل لها من الحقيقة ، فإن موسى إثر مجيئه من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة ، فلم يكن من فرعون إلا أن أرسل رسله فى المدائن حاشرين ووعدهم بالعطاء الجزيل ، وموسى لا يعرف منهم أحداً ولا رآه ولا اجتمع به ؛ وفرعون يعلم ذلك وإنما قال ذلك تسترا وتديسا على رعاى دولته وجهلهم كما قال تعالى « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ » .

(فسوف تعلمون) ما أضع بكم من العذاب جزاء على هذا المكر والخداع .

ثم بين ذلك بقوله :

(لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين) أى أقسم لأنكائن بكم أشد التشكيل ، لأقطعن الأيدي والأرجل من خلاف ثم لأصلبن كل واحد منكم وهو على تلك الحال لتكونوا عبرة لمن تحدّثه نفسه بالكيد لنا والترفع عن الخضوع لعظمتنا .

والخلاصة — إن اتهمه السحرة بالتواطؤ مع موسى إنما كان تمويهاً على قومه المصريين إذ خاف عاقبة إيمان الشعب بموسى فادعى أنه لا ينتقم من السحرة إلا حباً فيهم ودفاعاً عنهم وإبقاء لاستقلالهم في وطنهم كما هو شأن كل رئيس أو ملك في شعب يخاف أن ينتقض عليه وتجتمع كلمته على اختيار زعيم آخر يقوم بدعوة دينية أو سياسية .

وعندما سمع السحرة هذا التهديد والوعيد من ذلك الجبار المتكبر أجابوه .
(قالوا إنا إلى ربنا منقلبون) أى إنهم لا يأبهون بقتلهم ، لأنهم راجعون إلى ربهم ، راجون مغفرته ورحمته ، فتعجيل القتل يكون سبباً لقرب لقائه والتمتع بجزائه .
وقد يكون المعنى — إنا وإياك سنقلب إلى ربنا وما أنت بمخلد بعدنا ، فلئن قتلنا فسيحكم الله بعدله بينك وبيننا .

إلى ديان يوم الدين نمضى وعند الله تجتمع الخصوم

وفى هذا إيماء إلى تكذيبه فى دعوى الربوبية وتصريح بإثبات ما عند الله على ما عنده من الشهوات الدنيوية الزائلة وما جاء فى سورة الشعراء من قولهم « قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ » يؤيد المعنى الأول .

(وما نتقم منا إلا أن آمنّا بآيات ربنا لما جاءتنا) أى وما تعيب منا وما تنكر إلا خير الأعمال وأصل المفاخر وهو الإيمان بالله ، ومثل هذا لا يمكن العدول عنه مرضاة لك ولا طلباً للزلفى إليك .

وفيه تبيّن له وكأنهم قالوا لا مطمع لك في رجوعنا عن إيماننا ، وإلى أن تهديك لا يجدى فائدة .

وما ذكره السحرة من تقم فرعون منهم كان بالقول بالاستنكار التوبيخى لإيمانهم والتهمة فيه والوعيد عليه ، وهل نفذ الوعيد بالانتقام بالفعل ، الظاهر نعم بدليل قوله « فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » يعنى فرعون وملائه .
وقد ختم سبحانه كلام السحرة بدعائهم بقولهم :

« رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ » أى ربنا هب لنا صبراً واسعا تفرغه علينا وأيدنا بروحك حتى لا يبقى في قلوبنا شيء من خوف غيرك ولا من الرجاء فى سوى فضلك ، وتوقفنا إليك مذعنين لأمرك ونهيك مستسلمين لقضائك غير مفتونين بتهديد فرعون ولا مطيعين له فى قوله ولا فعله . وقد ذكر المؤرخون قديما وحديثا أن المؤمنين بالله واليوم الآخر من كل ملة ودين يكونون أعظم شجاعة وأكثر صبراً على مشاق الحروب من غيرهم ، ومن ثم يحرص زعماء الشعوب على بث النزعة الدينية بين رجالات الجيوش .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ ؟ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدٍ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

المعنى الجملى

ينجز سبحانه عما تمالأ عليه فرعون وملؤه وما أضمره لموسى وقومه من الأذى والبغض وما كان من تأثير جوابه فى موسى وقومه ؛ لقد نصح موسى قومه ودار بينهم حوار قصه الله علينا فى تلك الآيات .

الإيضاح

(وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآهتك ؟) أى قال الأشراف من قوم فرعون لفرعون : أتترك موسى وقومه أحرارا آمنين فتكون عاقبتهم أن يفسدوا عليك قومك بإدخالهم فى دينهم ، أو يجعلهم تحت سلطانهم ورياستهم ويتركك مع آهتك فلا يعبدوك ولا يعبدوها فيظهر لأهل مصر عجزك وعجزها ولا يعين عنك إيمان السحرة فقد يكون مقدمة لما بعده .

والتاريخ المصرى المستمد من العاديات المصرية يدل على أنه كان للمصريين آلهة كثيرة منها الشمس ويسمونها (رع) وفرعون عندهم سليل الشمس وابنها . (قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم) أى قال فرعون مجيها للملأ سنقتل أبناء قومه تقتيلا كلما تناسلوا ونستحي نساءهم أحياء كما كنا نفعل قبل ولادته حتى ينقرضوا ويعلموا أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة .

(وإنا فوقهم قاهرون) أى وإنا مستعلون عليهم بالغلبة والساطان قاهرون لهم كما كنا من قبل ، فلا يقدرّون على أذانا ولا الإفساد فى أرضنا ولا الخروج من عبوديتنا وقد جاء فى سورة المؤمن « وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » .

ولما سمع بنو إسرائيل هذا الوعيد خافوا من فرعون فطمأنهم موسى كما حكى الله عنه بقوله :

(قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) أى قال لهم يا قوم اطلبوا معونة الله وتأيدوه على رفع ذلك الوعيد عنكم ، واصبروا ولا تحزنوا فإن الأرض (فلسطين) التى وعد كوها ربكم هى لله الذى بيده ملكوت كل شئ يورثها من يشاء من عباده لافرعون ، فهى على مقتضى سننه دول وأيام ، والعاقبة الحسنى لمن يتقون الله ويراعون سننه فى أسباب إرث الأرض باتحاد الكلمة والاعتصام بالحق وإقامة العدل والصبر على الشدائد والاستعانة بالله لدى المسكاره ، ونحو ذلك مما هدت إليه التجارب ودلت عليه الشرائع .

والخلاصة — إن الأمر ليس كما قال فرعون ، بل التهور والغلبة لمن صبر واستعان بالله ولمن وعده الله تعالى تورث الأرض ونحن الموعودون بذلك ولكن بشرط أن نقيم شرعه ونسير على سننه فى الخلق .

وليس الأمر كما يظن فرعون وقومه من بقاء القوى على قوته ، والضعيف على ضعفه اعتمادا على أن الآلهة ضمنت له بقاء ملكه وعظمته وجبروته .

لكن هذه الوصية وتلك النصائح لم تؤثر فى قلوبهم ففزعوا من فرعون وقومه .

و (قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) فقد كان بنو إسرائيل قبل مجيء موسى مستضعفين فى يد فرعون يأخذ منهم إتاوات مختلفة ويستعملهم فى الأعمال الشاقة ويمنعهم من الترف ويقتل أبناءهم ويستحي نساءهم ، فلما بعث الله موسى لم يستطع أن ينقذهم من ظلم فرعون إذ كان يؤذيهم ويظلمهم بعد إرساله كما كان يؤذيهم من قبل ذلك أو أشد .

ولما ذكروا ذلك لموسى أجابهم :

(قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) أى قال موسى إن رجائى من فضل الله أن يهلك عدوكم الذى ظلمكم ويجعلكم خلفاء فى الأرض التى وعدكم إياها ومنعكم فرعون من الخروج منها فينظر سبحانه كيف

تعملون بعد استخلافه إياكم فيها — أتشكرون النعمة أم تكفرون ؟ وتصلحون في الأرض أم تفسدون ، ويكون جزاؤكم في الدنيا والآخرة على وفق ما تعملون .
وعبر بالرجاء دون أن يجزم بذلك لئلا يتركوا ما يجب من العمل ويتكلموا على ذلك ، أو لئلا يكذبوه لأن أنفسهم قد ضعفت بما طال عليها من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه واستعظامهم لقومه وملكه .

وقد جاء في الفصل السادس من سفر الخروج من التوراة : فقال الرب لموسى : ألا ترى ما أصنع بفرعون إنه بيد قديرة سيطلقكم ، وبيد قديرة سيطردهم من أرضه — وأعلمه بأنه أعطى إبراهيم وإسحق عبدا بأن يعطيهم أرض كنعان وأنه سمع أنين بنى إسرائيل الذين استعبدتهم المصريين فذكر عهده — ثم قال : لذلك قل لبنى إسرائيل أنا الرب لأخرجكم من تحت أثقال المصريين ، وأخلصكم من عبوديتهم وأفديكم بذراع مبسوطة وأحكام عظيمة وأتخذكم لى شعبا وأكون لكم إلها وتعاملون أننى أنا الرب إلهكم أخرج لكم من تحت أثقال المصريين وسأدخلكم الأرض التى رفعت يدي مقسما أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب فأعطيها لكم ميراثا أنا الرب فكلم موسى بذلك بنى إسرائيل فلم يسمعوا لموسى لضيق أرواحهم وعبوديتهم الشاقة؟ اهـ.

وعلمنا أن نعرف أن جل ما كتبه المفسرون عن بنى إسرائيل إما منقول مما سمعوه ممن أسلم منهم وليس كل من أسلم منهم كان حافظا ثقة صادقا فى النقل وإما مأخوذ من كتب غير موثوق بها ، ومن ثم كان أكثر ما كتبوه فى التفسير منها مهوشا مضطربا حجة لأهل الكتاب علينا .

وإذا كان هذا حال علمائنا فى أخبارهم بعد انتشار العلوم فى البلاد الإسلامية ، فما بالك بأخبارهم لدى أهل مكة عند ظهور الإسلام ولم يكن فى مكة كتاب يقرأ ولا أحد يعرف القراءة والكتابة إلا ستة نفر من التجار يعرفونها معرفة ساذجة لا تشفى غليلا ولا تفيد فى تحقيق حادثة ولا حل مشكلة .

فأنى ل محمد بن عبد الله أن يعرف حقائق أخبارهم ومعرفة أحوالهم لولا الوحي الإلهي والفيض الرباني من لدن عليم خبير .

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا لِنَمَّا طَأْرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَتَاخَنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) .

تفسير المفردات

كثر استعمال الأخذ في العذاب كقوله « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » وآل فرعون : قومه وخاصته وأعوانه في أمور الدولة، وهم الملأ من قومه ولا يستعمل هذا اللفظ إلا فيمن يختص بالإنسان بقرابة قريبة كما قال عز اسمه (وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ) أو بموالاة ومتابعة في الرأي كما قال « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » والسنون ، واحداها سنة : وهي بمعنى الحول ولكن أكثر ما تستعمل في الحول الذي فيه الجذب كما هنا بدليل نقص الثمرات ، والمراد بالحسنة هنا : الخصب والرخاء ، وبالسيئة : ما يسوءهم من جذب وجائحة أو مصيبة في الأبدان والأرزاق ، ويطيروا بتشاءموا ، وسر إطلاق التطير على التشاؤم أن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير فإذا طارت من جهة اليمين تيمنت بها ورجت الخير والبركة ، وإذا طارت من جهة الشمال تشاءمت وتوقعت

الشر ويسمى الطائر الأول السانح ، والثاني البارح ، وسموا الشؤم طيرا وطائرا والتشاؤم تطيرا ، الطوفان لغة : ما طاف بالشيء وغشيه ، وغلب في طوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض ، والقمل (بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة) هو السوس الذى يخرج من الحنطة ، وقيل هو صغار الجراد ، وقال الراغب : هو صغار الذباب ، والدم : هو الرعاف ، وقيل هو دم كان يحدث في مياه المصريين .

المعنى الجملى

بعد أن حكى الله وعد موسى لقومه بقوله . عسى ربكم أن يهلك عدوكم - ذكر هنا مبادئ الهلاك الموعود به بما أنزله على فرعون وقومه من الحق حالا بعد حال ، إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال تنبيها للسامعين وزجرا لهم عن الكفر وتكذيب الرسل حذر أن ينزل بهم من الشر مثل ما نزل بهؤلاء .

الإيضاح

(ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) أى إنه تعالى أخذ آل فرعون بالجذب وضيق المعيشة لعلهم يتذكرون ضعفهم أمام قوة الله وعجز ملكهم العالى الجبار وعجز آلهتهم ، ايرجموا عن ظلمهم لبني إسرائيل ويحيبوا دعوة موسى عليه السلام ، إذ قد دلت التجارب على أن الشدائد ترقق القلوب وتهذب الطباع وتوجه النفوس إلى مناجاة الرب سبحانه والعمل على مرضاته والتضرع له دون غيره من المعبودات متى اتخذوها وسائل إليه وشفعاء عنده .

فإن لم تُجَدِ المصائب في تذكر المولى وبلغ الأمر بالناس أن يشركوا به حتى في أوقات الشدائد فهم في خسران مبين وضلال بعيد ، وكذلك كان دأب آل فرعون بعد أن أنذرهم موسى عليه السلام .

(فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه)

أى فإذا جاءهم خصب وثمار ومواش وسعة فى الرزق والعافية قالوا لنا هذه أى نحن المستحقون لها بما لنا من التفوق على الناس فبلادنا بلاد خصب ورخاء ، وقد غاب عنهم أن يعلموا أن هذا من الله فعليهم أن يشكروه عليه ويقوموا بحق النعمة فيه - وإن أصابهم قحط وجذب ومرض وبلاء تشاءموا بموسى ، وقالوا إنما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه وغفلوا عن سيئات أنفسهم وظلمهم لقوم موسى توها منهم أن ذلك حق من حقوقهم .

ومثل هذه المعاملة هى التى يجب أن يعامل بها الأجنبى فى الوطن والدين كما هى الحال الآن فى معاملة أهل المغرب للبلاد الشرقية المستعمرة لهم .

(ألا إنما طأثرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى إن كل ما يضييهم من خير أو شر فهو بقضاء الله وتقديره وهو الذى وضع لنظام الكون سننا تكون فيه المسببات على وفق أسبابها ، وبمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل عليهم البلاء ويكون امتحاننا واختبارا لهم ليتوبوا ويرجعوا عن ظلمهم وبغيهم على بنى إسرائيل وعن طغيانهم وإسرافهم فى جميع أمورهم ، ولكن أكثرهم لا يعلمون حكمة تصرف الخالق فى هذا الكون ولا أسباب الخير والشر ، ولا أن كل شئ فيه جاء بمشيئته وتديره .

وبعد أن ذكر أن هذه الحسنات والسيئات لم تردعهم عما هم فيه من الطغيان - ذكر أنه أصابهم بضروب أخرى من العذاب وهى فى أنفسها آيات بينات - وهم مع ذلك لم يرفعوا عن كفرهم وعنادهم .

(وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) أى إنك إن جئتنا بكل نوع من أنواع الآيات التى تستدل بها على أنك محق فى دعوتك لأجل أن تسحرنا بها وتصرفنا بها بدقة ولطف عما نحن فيه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك فى خدمتنا ، فما نحن بمصدقين لك ولا بمتبعين رسالتك .

(فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أى فأرسلنا عليهم عقوبة على جرأتهم تلك المصائب والنكبات ، وهى آيات بينات على صدق رسالة موسى إذ قد توعدهم بوقوع كل واحدة منها على وجه التفصيل لتكون دلائلها على صدقه واضحة لا تحتمل تأويلا بأنها وقعت لأسباب لا ارتباط لها برسالته ، فاستكبروا عن الإيمان بها لرسوخهم فى الإجرام والإصرار على الذنوب وإن كانوا يعتقدون صدق دعوته وصحة رسالته .

وقد عدد سبحانه هنا من الآيات خمسا وفى سورة الإسراء تسعا وهى :

(١) الطوفان فقد نزلت عليهم أمطار أغرقت أرضهم وأتلفت زرعهم وثمارهم وجاء وصفها فى التوراة ، فى الفصل التاسع فى سفر الخروج (ثم قال الرب لموسى : بكر فى العداة وقف بين يدي فرعون وقل له : كذا قال الرب إله العبرانيين أطلق شعبي ليعبدوني فإنى فى هذه المرة منزل جميع ضرباتي على قلبك وعلى عبيدك وشعبك لكي تعلم أنه ليس مثلى فى جميع الأرض وأنا الآن أمد يدي وأضربك أنت وشعبك بالوباء فتضمحل من الأرض ، غير أنى لهذا أبقيك لكي أريك قوتي ولكي يخبر باسمي فى جميع الأرض ، وأنت لم تزل مقاوما لشعبي ، هاأنا مطر فى مثل هذا الوقت من غد بردا عظيما جدا لم يكن مثله فى مصر منذ يوم أسست إلى الآن .

ثم ذكر فيها وقوع البرد مع نزول نار من السماء ، ووصف عظمته وشموله لجميع بلاد مصر وأن فرعون طلب موسى وهارون واعترف لهما بخطئهما وطلب منهما أن يشفعا إلى الرب ليكف هذه النكبة عن مصر ووعدهما بإطلاق بنى إسرائيل وجاء فى ختام هذا الفصل .

فخرج موسى من المدينة من لدن فرعون وبسط يديه إلى الرب فكفت الرعود ولم يعد المطر يهطل على الأرض .

(٢) الجراد وقد ذكر فى التوراة بعد الطوفان فقد جاء فيها (إن فرعون قسا قلبه فلم يطلق بنى إسرائيل فأخبر الرب موسى فأمره بأن يندره بإرسال الجراد عليهم

فياً كل ما سلم من النبات والشجر ويملاً بيوته وبيوت عبيده وسائر بيوت المصريين
ففعّل - فرضى فرعون أن يذهب الرجال من بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم دون النساء
والأولاد والمواشى ، فرد موسى عصاه بأمر الرب على أرض مصر فأرسل الرب ريحا
شرقية ساقت الجراد على أرض مصر فغطى جميع وجه الأرض حتى أظلمت الأرض
وأكل عشبها وجميع ما تركه البرد من ثمر الشجر حتى لم يبق شئ من الخضرة
فى الشجر ولا فى عشب الصحراء فى جميع أرض مصر ، وجاء فيها : إن فرعون
استدعى موسى وهارون واعترف لهما بخطئته وطلب منهما الصفح والشفاعة إلى الرب
إلههما أن يرفع عنه هذه التهلكة ففعلاً فأرسل الله ريحا غربية فحملت الجراد كله
فألقتة فى بحر القلزم .

(٣) القمل : وهو صغار الذباب - وقد جاء فى التوراة - إن البعوض والذباب
كان من الضربات العشر التى ضرب الرب بها فرعون وقومه ليرسلوا بنى إسرائيل
مع موسى ، فى الفصل الثامن من سفر الخروج : إن موسى أُنذر فرعون أن الذباب
سيدخل بيوته وبيوت عبيده وسائر قومه فيفسدها ولا يدخل بيوت بنى إسرائيل
المقيمين فى أرض جاسان وأن ذلك وقع وفسدت الأرض من تأثير الذباب .

(٤) الضفادع : وفى سفر الخروج - وقال الرب لموسى : ادخل على فرعون
وقل له كذا قال الرب - أطلق شعبى ليعبدونى وإن أبيت أن تطلقهم فهأنذا ضارب
جميع تخومك بالضفادع فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتنشر فى بيتك وفى مخدع
فراشك وعلى سريرك وفى بيوت عبيدك وشعبك وفى تنانيرك ومعاجنك الخ .

وكذلك كان - وفيها - إن فرعون طلب من موسى أن يشفع له عند ربه برفع
الضفادع فأجابه إلى ذلك قال : ففعل الرب كما قال موسى وماتت الضفادع من البيوت
والأقبية والحقول فجمعوها أكواما وأنتنت الأرض منها .

(٥) الدم : فقد كانت مياه المصريين تتحول إلى دم وقد جاء فى الفصل السابع
من سفر الخروج : « إن الرب أمر موسى أن ينذر فرعون ذلك ففعل ، ثم قال الرب

لموسى قل لمرون : خذ عصاك ومدّ يدك على مياه المصريين وأنهارهم واخلجهم ومنافعهم وسائر مجامع مياههم فتصير دما ، ويكون دم في جميع أرض مصر وفي الخشب وفي الحجارة » وفيها أن موسى وهارون فعلا ذلك وأن سمك النهر مات وأنّ النهر فلم يستطيع المصريون أن يشربوا منه .

هذه هي الآيات الخمس التي أيد الله بها رسوله موسى عليه السلام وليس فيها ما ينفي ما في التوراة ولا ما يؤيدها ، وعلينا أن نقف عندما أثبتته القرآن فقط دون زيادة عليه .

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ إِنَّمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَنَا أَنْ كُشِفَتْ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوءِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) .

شرح المفردات

الرجز : العذاب الذي يضطرب له الناس في شئونهم ومعاشهم ، وذلك شامل لكل نقمة وجائحة أنزلها الله على قوم فرعون كالحبس التي ذكرت قبل ، والعهد : النبوة والرسالة ، والنكث لغة : نقض ما غزل أو ما قتل من الحبال ثم استعمل في الخنث في اليهود والموثيق ، واليم : البحر في اللغة المصرية الموافقة للغة العربية في كثير من مفرداتها مما يدل على أن أصل الأمتين واحد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الآيات الخمس التي سبق ذكرها ، بين هنا ما كان من أثرها في نفوس المصريين جميعا وطلبهم من موسى أن يرفع الله عنهم العذاب ، فإذا هو فعل

آمنوا به ثم تبين نكثهم وخلفهم للوعد كل مرة حدث فيها الطلب حتى حل بهم عذاب الاستئصال بالغرق في البحر .

الإيضاح

(ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل) أى ولما وقع ذلك العذاب الذى ذكره فى الآية السالفة اضطربوا وفزعوا أشد الفزع وقالوا حين نزول كل نوع بهم : يا موسى ادع لنا ربك وتوسل إليه بعهد عندك ورسالته لك أن يكشف عنا هذا الرجز ، ونحن نقسم لك لئن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، وفى التوراة : إن فرعون كان يقول لموسى حين نزول كل آية منها : ادع لنا ربك واشفع لنا عنده أن يرفع عنا هذه ، ويعده بأن يرسل معه بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم ويذبحوا له ثم ينكت .

(فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون) أى فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد أخرى إلى أجل هم بالغوه ومنتهون إليه وهو الغرق الذى هلكوا فيه - إذا هم ينكثون عهدهم ويحنثون فى قسمهم فى كل مرة .

والخلاصة - إنه كشف العذاب عنهم إلى حين من الزمان هم واصلون إليه ولا بد ، فمُعذَّبون فيه أو مهلكون وهو وقت الغرق كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أى فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لهم بأن أغرقناهم فى البحر ، وذلك بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم تفكيرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها .

والخلاصة - إنهم كانوا يظهرون الإيمان عند كل آية من آيات العذاب ثم يكذبون حتى إذا انقضى الأجل المضروب لهم انتقمنا منهم بسبب أنهم كذبوا بها .

كلها وكانوا غافلين عما يعقبها من العذاب فى الدنيا والآخرة إذ كانت فى نظر الكثير منهم من قبيل السحر والصناعة ، ومن ثم كانوا يكابرون أنفسهم فى كل آية منها ويحاولون أن يأتى سحرتهم وعلمائهم بمثله .

ومنهم من اهتدى إلى الحق وظهر له صدقه فأمن به جبهة ككبار السحرة ، ومنهم من كتم إيمانه كالذى عارض فرعون وملائه بالحجة والبرهان فى قتل موسى كما جاء فى سورة غافر ، ومنهم من جحد بها كبرا وعلاوا فى الأرض كفرعون وأكابر وزرائه ورؤسائه .

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا
الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا
وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)

شرح المفردات

مشارق الأرض ومغاربها : يراد بها جميع نواحيها والمراد بها أرض الشام ، وتنام
الشيء : وصوله إلى آخر حده ، وكلمة الله : هى وعده لبنى إسرائيل بإهلاك عدوهم
واستخلافهم فى الأرض : « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ
فِي الْأَرْضِ » والتدمير : إدخال الهلاك على السالم والخراب على العامر ، والعرش : رفع
المباني والسقائف للنبات والشجر المتسلق كعرائش العنب : ومنه عرش الملك .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه ما حل بالمصريين من الفرق عقوبة لهم على تكذيبهم
بموسى بعد وجود الآية تلو الآية الدالة على صدقه - ذكر هنا ما فعله بنى إسرائيل

من الخيرات إذ أصبحوا أعزة بعد أن كانوا أذلة وملكوا الأرض المقدسة التي بارك الله فيها ، وهي بلاد الشام .

الإيضاح

(وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها)
 أى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون في مصر بقتل الأبناء واستحياء النساء وأخذ الجزية واستعمالهم في الأعمال الشاقة الأرض التي باركنا فيها بالخصب والخير الكثير ، مشارقها من حدود الشام ، ومغاربها من حدود مصر تحقيقا لما وعدنا به : « وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » .

وعن كعب الأحبار أنه قال : إن الله بارك في الشام من الفرات إلى العريش ، ويؤيد ذلك قوله في إبراهيم عليه السلام : « وَنَجِّنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ » وقوله : « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » .

(وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) أى ونفذت كلمة الله ومضت على بنى إسرائيل تامة كاملة بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه ، وقد كان وعد الله تعالى إياهم بما وعد مقرونا بأمرهم بالصبر والاستقامة كما أمرهم نبيهم عليه السلام مبلغا عن ربه : « وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ لِمَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا » ومن قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه ، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج وقد تم وعد الله تعالى لهم بذلك ثم سلبهم تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس ولم يكن من مقتضى الوعد أن يعودوا إليها مرة أخرى .

(ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) أى وخرّبنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المباني والقصور التى كانوا يبنونها للمصريين والمكاييد السحرية والصناعية التى كان يصنعها السحرة لإبطال آياته والتشكيك فيها كما قال تعالى : « إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ » وما كانوا يعرشون من الجنات والبساتين ، وأسباب هذا التدمير لتلك المصانع والعروش أمور :

(١) الآيات التى أيد الله تعالى بها موسى من الطوفان والجراد وغيرها ، وسمتها التوراة : الضربات العشر .

(٢) إنجاء بنى إسرائيل وحرمان فرعون وقومه من استعبادهم فى أعمالهم .
(٣) هلاك من غرق من قوم فرعون وحرمان البلاد وسائر الأمة من ثمرات أعمالهم فى العمران ، وقد أنذرهم موسى عاقبة ذلك فكذبوا بالآيات وأصرّوا على الجود والعدا فظلموا أنفسهم وما ظلمهم الله .

ووجه العبرة فى هذه الآيات ما كان للايمان فى قلب موسى وهارون من التأثير إذ تصديا لأكبر ملك فى أكبر دولة فى الأرض استعبدت قومه فى خدمتها عدة قرون ، ومازالا يكافئانه بالحجج والآيات حتى أظفرهما الله تعالى به وأنقذا قومهما من ظلمه ، ولهذا يجدر ألا تستعظم قوة الدول الظالمة أمام قوة الحق كما قال : « إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ » وقال : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هُوَ لَا مُتَبَرِّجَ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ

أَجْنَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)

شرح المفردات

جاز الشيء وجاوزه وتجاوزه : عداه وانتقل عنه ، والمعكوف على الشيء : الإقبال عليه وملازمته تعظيماً له ، والأصنام واحدها صنم : وهو ما يصنع من الخشب والحجر أو المعدن مثلاً لشيء حقيقي أو خيالي ليعظم تعظيم العبادة ؛ وقد اتخذ بعض العرب في الجاهلية أصناماً من عجوة التمر فعبدوها ثم جاعوا فأكلوها ، والتمثال لا بد أن يكون مثلاً لشيء حقيقي ، وقد يكون للعبادة فيسمى صنماً ، وقد يكون للزينة كالذي يكون على جدران بعض القصور أو أبوابها أو في حدائقها ، وقد يكون للتعظيم غير الديني كالتماثيل التي تنصب لبعض الملوك وكبار العلماء والقواد للتذكير بشاريخهم وأعمالهم للاقتداء بهم .

والتعظيم الديني يكون الغرض منه التقرب من المعبود وطلب ثوابه بدفع ضرر أو جلب منفعة من طريق الغيب باعتقاد أن له سلطة غيبية أو تعظيم ما يذكر به من صورة أو تمثال أو قبر أو غير ذلك من آثاره لأجل التقرب إليه وقصد الانتفاع به في الأمور التي لا تنال بالأسباب العامة ، وكل ذلك عبادة ظاهرة فإن قصد التقرب به إلى الله ليحمله بجاهه على إعطائه ما يريد كانت العبادة له والله بالاشتراك ، وهذا مظهر من مظاهر الشرك الجلي التي تعتبر كفراً مهما اختلفت تسميتها ، والتبار والتبر : الهلاك ، والتبشير : الإهلاك والتدمير ، فيقال تبره : أهلكه ودمره ، وباطل : أي هالك وزائل لا بقاء له ، وبغى الشيء وابتغاه : طلبه .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنواع نعمه على بني إسرائيل بأن أهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم أتبع ذلك بالنعمة الكبرى عليهم وهي أنه جاوز بهم البحر آمنين ،

ثم ارتدوا وطلبوا من موسى أن يعمل لهم آلهة وأصناما ، وفى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما رآه من اليهود بالمدينة ؛ فإنهم جروا معه على دأب أسلافهم مع أخيه موسى صلوات الله عليه ، وإيقاظ المؤمنين ألا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة نعم الله تعالى عليهم فإن بنى إسرائيل وقعوا فيما وقعوا فيه من جراء غفلتهم عما منّ الله تعالى به عليهم من النعم .

الإيضاح

(وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) أى إنهم تجاوزوه بعناية الله وتأبيده فكأنه معهم بذاته فجاوزه مصاحبا لهم فأتوا عقب تجاوزهم إياه ودخلهم فى بلاد العرب من البحر الأسبوى على قوم يعبدون أصناما لهم : فقالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة حثينا منهم إلى ما ألفوا فى مصر من عبادة المصريين وتمائمها وأنصابها وقبورها .

وسر هذا الطلب أنهم لم يكونوا قد فهموا التوحيد الذى جاء به موسى كما فهمه من آمن من سحرة المصريين ، إذ أن السحرة كانوا من العلماء فأمكنهم التمييز بين آيات الله التى لا يقدر عليها غيره والسحر الذى هو من صناعات البشر وعلومهم .

ولم يذكر القرآن شيئا يعين شأن هؤلاء القوم الذين أتى عليهم بنو إسرائيل ، والراجح أنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر ، روى عن قتادة أنهم من عرب نخم ، وعن ابن جرير أن أصنامهم كانت تماثيل بقر من نحاس .

وقد جاء آخر الفصل الثالث عشر من سفر الخروج (وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود من غمام ليهدهم الطريق ، وليلا فى عمود من نار ليضىء لهم ليسيروا نهارا وليلا ، لم يبرح عمود الغمام نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب) .

ثم جاء فى الفصل الرابع عشر منه بعد ذكر أتباع فرعون ومن معه من بنى إسرائيل (فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر بنى إسرائيل فصار وراءهم وانتقل عمود الغمام من

أمامهم فوقف وراءهم ، ودخل بين عسكر المصريين ، وعسكر بني إسرائيل ، فكان من هنا غماما مظلما ، وكان من هناك ينير الليل ، فلم يقترب أحد الفريقين من الآخر طول الليل .

ولاشك أن هذا الطلب دليل على الضعف البشري في كل زمان ومكان ، فلا عجب أن روى عن بعض حديثي العهد من الصحابة بالإسلام مثل ما طلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام لما كان للوثنية في قلوبهم من التأثير - روى أحمد والنسائي عن أبي واقد الليثي قال « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلاً حين فررنا بسيرة فقلت يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط فقال (الله أكبر) هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) إنكم تركبون سنن من قبلكم » .

وللمسلمين عبرة في هذا فإن لهم الآن ذوات أنواط في بلاد كثيرة كشجرة الحنفي بمصر ، وقد اجتثت أخيراً وشجرة (ست المنصورة) ونحو ذلك مما اتخذوه من الثبور والأشجار والأحجار التي يعكفون عليها ويطوفون حولها وبقبائلها ويتمتعون بأعتابها ويتمسحون بها خاشعين ضارعين راجين شفاء الأدوية والانتقام من الأعداء وحبل العقيم ورد الضالة وغير ذلك من النفع ، وكشف الضر ، وهذا يخالف لنصوص كتاب الله وسنة رسوله ، إذ هذا عبادة وإن كانوا لا يسمونها بذلك ، فلا فرق بينه وبين شرك الجاهلية (إلا بالتسمية) إذ حقيقة العبادة كل قول أو عمل يوجه إلى معظم يرجى نفعه أو يخشى ضره وحده ، وقد أجابهم موسى عن طلبهم بقوله :

(إنكم قوم تجهلون) أي إنكم تجهلون مقام التوحيد ، وما يجب من تخصيص الله بالعبادة بلا واسطة ولا مظهر من المظاهر كالأصنام والتماثيل والعجل أليس والثعابين - قاله قد كرم البشر وجعلهم أهلاً لمعرفته ودعائه ومناجاته بلا واسطة تقر به إليهم فإنه أقرب إليهم من جبل الوريد .

وبعد أن بين لهم جهلهم وسفههم بين لهم فساد ما طلبوه عسى أن تستعد عقولهم لفهمه واستبانة قبحه فقال :

(إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) أى إن هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام مقضى على ما هم فيه بالتبار بما سيظهر من التوحيد الحق فى هذه الديار ، وزائل ما كانوا يعملون من عبادة غير الله ذى الجلال ، فإنما بقاء الباطل فى ترك الحق له وبعده عنه .

وفى هذا بشارة منه عليه السلام بزوال الوثنية من تلك الأرض ، وقد حقق الله ما قال :

(قال أغير الله أبغىكم إلها وهو فضلكم على العالمين) أى قال لهم موسى : أطلب لكم معبودا غير الله رب العالمين وخالق السموات والأرض ، وقد فضلكم على العالمين بما جدد فيكم من التوحيد وهداية الدين ، فإذا تبغون من عبادة غيره معه أو من دونه ؟ .

والخلاصة : إن موسى بدأ جوابه لقومه بإثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم ، وثى ببيان فساد ما طلبوه وكونه عرضة للتبار والزوال لأنه باطل فى نفسه ، ثم انتقل إلى بيان أن العبادة لغير الله لا تصح البتة سواء أكان المعبود أفضل المخلوقات كالملائكة والنبيين أو أخسها كالأصنام ؛ ثم أنكر عليهم أن يكون هو الواسطة فى هذا العمل الذى دعا إليه الجهل ، ليعلمهم أن طلب هذا الأمر المنكر منه عليه السلام جهل بمعنى رسالته ، وأيد إنكاره لكلا الأمرين بما يعرفون من فضل الله عليهم بتفضيلهم على أهل زمانهم ممن كانوا أرق منهم مدنية وحضارة وسعة ملك وسيادة على بعض الشعوب ، وهم فرعون وقومه - برسالة موسى وهرون منهم وتجديد ملة إبراهيم فيهم وإيتائهما من الآيات ما تقدم ذكره .

(وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أى واذكروا إذ أنجيناكم

بإرسال موسى وبما أيدناه به من الآيات - من آل فرعون الذين كانوا يسومونكم
سوء العذاب يجعلكم عبيدا مسخرين لخدمتهم ، ويقتلون ما يولد لكم من الذكور
ويستبقون نساءكم لتزدادوا ضعفا بكثرتهم ، وفي ذلكم العذاب والإنجاء منه بفضل
الله عليكم وتفضيله إياكم على غيركم من سكان مصر ، وسكان الأرض المقدسة التي
سترثونها - بلاء عظيم أى اختبار لكم من ربكم المدبر لأموركم ليس هناك اختبار
أعظم منه ، فلا أجدر بالاعتبار والاستفادة من أحداث الزمان ممن يعطى النعمة بعد
النعمة ، وأحق الناس بمعرفة الله وإخلاص العبادة له من يرى في نفسه وفي الآفاق
ما يوقن به أنه لا يمكن أن يكون فيه شركة لغير الله ، وإن أعجب العجب أن تطلبوا
بعد هذا كله ممن رأيتم على يديه هذه الآيات أن يجعل لكم آلهة من أخس
الخلوقات - تجعلونها واسطة بينكم وبين الله ، وهو قد فضلكم عليها وعلى من
يعبدونها ومن هم أرقى منهم .

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا
تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ
رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ
مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى
صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)
قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ
مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ

شَيْءٌ مَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا
بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)

شرح المفردات

الميقات : الوقت الذى يقرر فيه عمل من الأعمال كمواقيت الحج ، اخلفنى أى
كن خليفتى ، وجلا الشئ والأمر والنجلي وتجلي وجلاه فتجلى : إذا انكشف ووضح
بعد خفاء فى نفسه أو على مجتليه وطالبه ، والدك : الدق ، والخر والحرور : السقوط من
علو ، والانكباب على الأرض كما قال «يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا» وصعقا أى صاعقا
صاعجا مغشيا عليه ، وأفاق أى رجع إليه عقله وفهمه بعد ذهابهما بالغشيان : والاصطفاء
اختيار صفوة الشئ أى خالصة الذى لا شائبة فيه ، بقوة أى بجدة وعزيمة وحزم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه ما أنعم به على بنى إسرائيل من النجاة من العبودية ومن
جعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يشرعه الله لها من العبادات والأحكام - ذكر
هنا بدء وحى الشريعة لموسى عليه السلام ممتنا عليهم بما حصل لهم من الهداية بتكليم
موسى وإعطائه التوراة ، وفيها تفاصيل شرعهم وبيان ما يقربهم من ربهم من
الأحكام ، وقد روى أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهو بمصر ، إن
أهلك الله عدوهم أتاهاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك
فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فبينت هذه الآيات كيفية نزول هذا الكتاب
وهو التوراة .

الإيضاح

(وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) أى
ضرب الله تعالى موعدا لموسى لسكاملته وإحطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة

ثلاثين ليلة، قيل هي شهر ذى القعدة وأتم الثلاثين ليلة بعشر ليال فتم الموعد بذلك أربعين ليلة، صعد جبل سيناء في أوله وهبط في آخره، وروى عن أبي العالية أنه قال في بيان زمان الموعد : يعنى ذا القعدة وعشرا من ذى الحجة فمكث على الطور أربعين ليلة وأنزل عليه التوراة في الألواح فقر به الرب نجيا، وكلمه وسمع صريف القلم . وجاء في التوراة من سفر الخروج (وقال الرب لموسى : اصعد إلى إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشرعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم ، فقام موسى ويشوع خادمه ، وصعد موسى إلى جبل الله تعالى . وأما الشيوخ فقال لهم اجلسوا هاهنا ، وهوذا هارون وحُورُ معكم ، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما، فضعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل ، وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام وفى اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب وكان ينظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بنى إسرائيل ، ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل ، وكان موسى في الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة) . وفى الفصل الرابع والثلاثين ما نصه (وقال الرب لموسى : اكتب لنفسك هذه الكلمات ، قطعت عهدا معك ومع بنى إسرائيل وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر) .

(وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) أى وقال موسى حين أراد الذهاب لميقات ربه لأخيه هرون وكان أكبر منه سنا ، كن خليفتى فى قومى وراقبهم فيما يأتون وما يذرون ، وكانت الرياسة فيهم لموسى وكان هرون وزيره ونصيره بسؤاله لربه « وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي . هَرُونُ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي » وأصلح ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم ، ولا تتبع سبيل من سلك الإفساد فى الأرض ، واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم فى أعمالهم ومساعدتهم عليها ومعاشرتهم والإقامة معهم حال إقتراف الإفساد .

(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك) أى لما جاء موسى للميقات الذى وقت له للكلام وإعطاء الشريعة وكلمه ربه من وراء حجاب بغير واسطة ملك استشرقت نفسه للجمع بين فضيلتى الكلام والرؤية فقال : رب أرني ذاتك المقدسة واجعل لى من القوة على حمل تجايبك ما أقدر به على النظر إليك وكال المعرفة بك .

(قال لن ترانى) أى إنك لا ترانى الآن ولا فيما يستقبل من الزمان إذ ليس لبشر أن يطبق النظر إلى في الدنيا ثم أتى بما هو كالعلة لذلك (ليخفف عن موسى شدة وطأة الرد بإعلامه ما لم يكن يعلم من سننه) وهو أن شيئاً فى الكون لا يقوى على رؤيته كما جاء فى حديث أبى موسى الذى رواه مسلم وهو قوله صلى الله عليه وسلم « حجاب النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه (أنواره) ما انتهى إليه بصره من خلقه » فقال :

(ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) أى فإن ثبت لدى التجلى وبقى مستقراً فى مكانه فسوف ترانى إذ هو مشارك لك فى مادة هذا العالم الفانى ، وإذا كان الجبل فى قوته وثباته لا يستطيع أن يثبت ويستقر لأن مادته غير مستعدة لقوة تجلى خالقه وخالق كل شئ - فاعلم أنك لن ترانى أيضاً وأنت مشارك له فى كونك مخلوقاً من هذه المادة وخاضعاً للسنن الربانية فى ضعف استعدادها وقبولها للفناء .

وروى عن ابن عباس أنه قال : حين قال موسى لربه تبارك وتعالى : « أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ » قال له يا موسى إنك لن ترانى ، قال يقول : ليس ترانى ، لا يكون ذلك أبداً ، يا موسى إنه لن يرانى أحد فيحيا ، قال موسى رب أن أراك ثم أموت أحب إلى من ألا أراك ثم أحيا ، فقال الله يا موسى انظر إلى الجبل الطويل العظيم الشديد « فإن استقر مكانه » يقول فإن ثبت مكانه لم يتضعع ولم ينهد لبعض ما يرى من عظمى : « فسوف ترانى » أنت لضعفك وذللك ، وإن الجبل يتضعع وانهد بقوته وشدته وعظمته فأنت أضعف وأذل .

(فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) أى فلما تجلى ربه للجبل

أقل التجلي وأدناه انهد وهبط وصار كالأرض المدكوكة أو الناقة الدكاء ، وسقط موسى على وجهه مغشيا عليه . كن أخذته الصاعقة ، والتجلى إنما كان للجبل دونه فلما بالك لو كان له .

روى أنه ساخ : أى غاص فى الأرض : أى أنه رج بالتجلى رجاً ، بست به حجارته بسا ، وساخ فى الأرض كله أو بعضه فى أثناء ذلك حتى صار ربوة دكاء وكان كالرمل المتلبد .

(فلما أفاق قال سبحانه تبت إليك وأنا أول المؤمنين) أى فلما أفاق من غشيه قال سبحانه : أى تنزيها لك وتقديسا عما لا ينبغي فى شأنك مما سألت .
وأكثر المفسرين يجعلون وجه التنزيه والتوبة أنه سأل الرؤية بغير إذن من الله تعالى فتاب ورجع عما طلب .

قال مجاهد : « تبت إليك » أن أسألك الرؤية : « وأنا أول المؤمنين » أى من بنى إسرائيل ، وفى رواية عن ابن عباس : وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد .
والخلاصة — إن موسى لما نال فضيلة التكليم بلا واسطة فسمع من عالم الغيب ما لم يسمع من قبل تأقت نفسه أن يمنحه الرب شرف رؤيته فطلب ذلك منه وهو يعلم أنه ليس كمثل شئ لا فى ذاته ولا فى صفاته التى منها كلامه ، ولكن الله تبارك وتعالى قال له : « لن ترانى » ولكى يخفف عليه ألم الرد أراه بعينه من تجليه للجبل ما فهم منه أن المانع من جهته لامن جانب الفيض الإلهى ، حينئذ نزه الله وسبحه وتاب إليه من هذا الطلب ، فبشره بأنه اصطفاه على الناس برسالاته وبكلامه وأمره أن يأخذ ما أعطاه ويكون من الشاكرين له كما قال :

(قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) أى اصطفيتك بتكليمي لك بلا توسط ملك وإن كان من وراء حجاب ، وقد طلب موسى رفع هذا الحجاب لتحصل له الرؤية مع الكلام .

(اخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) أى اخذ ما أعطيتك من الشريعة وهى التوراة وكن من جماعة الشاكرين لنعمتى عليك وعلى قومك ، بإقامتها بقوة وعزيمة والعمل بها ، وأداء حقوق نعمى جميعها عليك تمل المزيد من فضلى : « لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » .

وقد تقدم أن قلنا إن الوحي إلى الرسل أنواع ثلاثة بينها الله بقوله : « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ » .

والخلاصة — إن إثبات الكلام والتكليم لله تعالى صريح فى القرآن الكريم فى آيات عدة لا تعارض بينها ، وأما الرؤية فففى آيات متعارضة كقوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » وقوله : « لَنْ تَرَانِي » وهما أصرح فى النفى من دلالة قوله تعالى : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ » على الإثبات فإن استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير فى القرآن وكلام العرب كقوله : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ » وقوله : « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » وفى الأحاديث الصحيحة تصريح بإثبات الرؤية بحيث لا تحتل تأويلا ، والمرفوع منها مروي عن أكثر من عشرين صحابيا ، ولم يرد فى معارضتها شىء أصرح من حديث عائشة عن مسروق قال : قلت لعائشة رضى الله عنها يا أمه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ليلة المعراج؟ فقالت : لقد قف شعرى مما قلت ، أى أنت من : « ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب ، وفى رواية فقد أعظم الفرية ثم قرأت : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ الْغَاطِثُ الْخَبِيرُ » — وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ، ثم قرأت : « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا » ومن حدثك أنه كتم شيئا من الدين فقد كذب ثم قرأت : « يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » قال مسروق : وكنت متكئا فجلست وقلت : ألم يقل

الله : « وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى » فقالت أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فقال : « إنما هو جبريل » .

ومن هذا تعلم أن عائشة تنفى دلالة سورة النجم على رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه بالحديث المرفوع وتنفى جواز الرؤية مطلقا أوفى هذه الحياة الدنيا بالاستدلال بقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » وقوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب » وهذا الاستدلال ليس نصا فى النفى حتى يرجح على الأحاديث الصريحة فى الرؤية وقد قال بها بعض علماء الصحابة .

والمتبشون للرؤية يقولون : إن استنباط عائشة إنما هو لنى الرؤية فى الدنيا فقط كما قال بذلك الجمهور ، ولا تقاس شئون البشر فى الآخرة على شئونهم فى الدنيا ، لأن لذلك العالم سننا ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه حتى فى الأمور المادية كالأكل والشرب ، والمأكل والمشروب ، فناء الجنة غير آسن فلا يتغير كماء الدنيا بما يخالطه أو يجاوره فى مقره أو جوه ، قال ابن عباس ليس فى الدنيا شئ مما فى الجنة إلا الأسماء .

وجمهرة المسلمين أن رؤية العباد لربهم فى الآخرة حق وأنها أعلى وأكمل للنعيم الروحاني الذي يرتقى إليه البشر فى دار الكرامة ، وأنها أحق ما يصدق عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وهى المعبر عنها بقولهم : إنها رؤية بلا كيف . وبعد أن أخبر سبحانه فى الآيات السالفة أنه منع موسى رؤيته فى الدنيا وبشره بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالته وبكلامه أخبرنا فيما بعد بما آتاه يومئذ بالإجمال فقال :

(وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ) أى إننا أعطيناه ألواحا كتبنا له فيها أنواع الهداية والمواعظ التى تؤثر فى القلوب ترغيبا وترهيبا

وتفصيلا لأصول الشرائع وهى أصول العقائد والآداب وأحكام الحلال والحرام .
والراجع أن هذه الألواح كانت أول ما أوتيته من وحى التشريع الإجمالى . أما
سائر الأحكام التفصيلية من العبادات والمعاملات المدنية والحربية والعقوبات فكانت
تنزل عليه وقت الحاجة كالقرآن .

وقد اختلفوا فى عدد الألواح فمن مقل قال إنها اثنان ومن مكثر قال إنها عشرة أو سبعة .
وجاء فى التوراة فى شأن الألواح فى سفر الخروج : « قال الرب لموسى اصعد إلى
الجبلى وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشرعة والوصية التى كتبها لتعلمهم
الكلمات العشر » وجاء فيها أيضا : « ثم انثنى موسى ونزل من الجبلى ولوحا الشهادة
فى يده . لوحان مكتوبان على جانبيهما ، من هنا ومن هناك كانا مكتوبين ، واللوحان
هما صفة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين » وجاء فيها : « وقال الرب
لموسى أكتب لك هذا الكلام لأنى بحسبه عقدت عهدا معك ومع بنى إسرائيل
وأقام هناك عند الرب أربعين يوما وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء فكتب
على اللوحين كلام العهد الكلمات العشر » ومن هذا تعلم أن ما كتبه المفسرون عن
الإسرائيليات مخالفا لذلك فهو باطل ، أراد به واضعوه الكذب والافتراء ، فيجب
علينا أن نمحس تلك الروايات ونحققها من كتبهم .

(خذها بقوة) أى وكتبنا له فى الألواح ما ذكر وقلنا له : هذه وصاياانا وأصول
شريعتنا وكلياتها ، خذها بقوة وجدّ وعزم ، ذاك أنك ستكون بها شعبا جديدا
بعادات جديدة وأخلاق جديدة مخالفة فى جوهرها وصفاتها لما كان عليه من النذل
والعبودية لدى فرعون وقومه ، وما كان عليه من الشرك والوثنية التى ألفها وراضت
نفسه لقبولها ، فأنى للقائد والمرشد أن يصلح ذلك الفساد ويربأ ذلك الصدع إذا لم
يكن ذا عزيمة وقوة وبأس شديد وحزم فى أوامره ونواهيه ؟ .

(وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أى وأمر قومك بالاعتصام بهذه الموعظة
والأحكام المفصلة فى الألواح التى هى منتهى الكمال والحسن كالأخلاص لله فى العبادة .

إذ به يتحلى العقل وتتركى النفس ، مع ترك اتخاذ الصور والتماثيل لأنها ذرائع للشرك وسبب للوصول إليه .

(سأريكم دار الفاسقين) أى إن لم تأخذوا ما آتيناكم بقوة وتتبعوا أحسنه كنتم فاسقين عن أمر ربكم فيحل بكم ما حل بالفاسقين من قوم فرعون الذين أنجاكم الله منهم ، ونصركم عليهم وسيرىكم ما حل بهم بعدكم من الغرق .

قال ابن كثير : أى سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار .

قال ابن جرير : وإنما قال (سأريكم دار الفاسقين) كما يقول القائل لمن يخالفه : سأريك غدا ما يصير إليه حال من خالف أمرى - على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره .

وفى الآية عبرة لمن يقرؤها ويتدبر أمرها من وجوه :

(١) إن الشريعة يجب أن تتلقى بعزيمة وجدّ لتنفيذ ما بها من الإصلاح وتكوين الأمة تكويناً جديداً ، ومظهر ذلك الرسول المبلغ لها والداعى إليها والمنفذ لها بقوله وعمله فهو الأسوة والقدوة ، وهذه سنة الله فى كل انقلاب ، وتجديد اجتماعى وسياسى وإن لم يكن بهدى الله ، فما بالك بالدين وهو أحوج ما يكون إلى إصلاح الظاهر والباطن ، وقد أخذ سلفنا الصالح القرآن بقوة بالعمل بهداية دينهم لا بالتبرك بالمصاحف والتغنى بالقرآن فى المحافل ، فسادوا جميع الأمم التى كانت لها القوة الحربية والصناعية والمالية والعديدية ، وسعدوا به فى دنياهم وسيكونون كذلك فى آخرتهم ، وخلف من بعدهم خلف أعرضوا عنه وتركوا هدايته فشققوا فى دنياهم وآخرتهم كما قال « يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَقْضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

(٢) أن شعب إسرائيل عظم ملكه حين أقام شريعته بقوة حتى إذا غلبه الغرور وظن أن الله ينصره لنسبه وأنه شعب الله ففسق وظلم فأنزل الله به البلاء وسلط عليه البابليين فأزالوا ملكه ، ثم تاب إلى رشده فرحمه وأعاد إليه بعض ملكه ، ثم ظلم وأفسد فسلط عليه النصارى فمزقوه كل ممزق .

(٣) إن المسلمين الذين اتبعوا سننهم قد اغتروا بدينهم كما اغتروا واتكلوا على لقب (الإسلام) و لقب (أمة محمد) ولم يثوبوا إلى رشدهم ، فزالت دولتهم وذهب ريحهم وامتلك عدوهم ناصيتهم وجدّ في إفساد عقائدهم وأخلاقهم وإيقاع الشقاق فيما بينهم وتولى تربيتهم وتعليمهم كما يحب ويهوى ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ،
وإن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)

شرح المفردات

التكبر: التكبر من الكبر ، وهو غطط الحق بعدم الخضوع له ويصاحبه احتقار الناس ، فصاحبه يرى أنه أكبر من أن يخضع لحق أو يساوى نفسه بشخص ، والرشد والرشد والرشاد كالسقم والسقم والسقام: الصلاح والاستقامة ، وضده الغي والفساد ، والآيات الأولى : هي البيّنات والدلائل ، والثانية : هي الآيات المنزلة من حيث اشتغالها على الهداية وتركيزية النفوس .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى الآيات السالفة ما لحق فرعون وقومه من الهلاك بسبب استكباره وظلمه وفساده فى الأرض - ذكر هنا سنته تعالى فى ضلال البشر بعد مجيء البينات وتكذيبهم لدعاة الحق واخير من الرسل وأتباعهم ، وأبان أن السبب الأول لذلك هو التكبر ، فإن من شأن التكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق والهدى ، فهم يكونون دائماً من المكذبين بالآيات الدالة عليه ، ومن الغافلين عنه كما هى حال الملوك والرؤساء والزعماء الضالين كفرعون وملئه .

وفى هذا إيماء للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الطاغين المستكبرين من ضناديد قومه لن ينظروا فى دعوته ولا فى آيات القرآن الدالة على وحدانية الله بما أقامته عليها من البراهين الكثيرة من آيات كونية ، وآيات فى الآفاق وفى أنفسهم .

وجملة الموانع الصادة لهم عن اتباعه ترجع إلى التكبر فإنهم بزعمهم يعتقدون أنهم سادة قريش وكبرائها وأقويائها فلا ينبغى أن يتبعوا من دونهم سناً وقوة وثروة وعصبية .

الإيضاح

(سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) أى سأمنع قلوب المتكبرين عن طاعتي وعلى الناس بغير حق - فهم الأدلة والحجج الدالة على عظمى وعلى ما فى شرائعى من هدى وسعادة لهم كما قال « قَلَمًا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » كما منعت فرعون وقومه عن فهم آيات موسى التى أوحيتها إليه ، وقوله بغير الحق أى بتلبسهم بالباطل وانغماسهم فيه - إذ لا قيمة للحق لدى هؤلاء فهم لا يبحثون عنه ولا يطلبونه ، وقد تظهر لهم آياته ويحدثونها وهم بها موقنون كما قال تعالى فى قوم فرعون « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » .

ثم بين صفات المستكبرين وأحوالهم فقال : (١) (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أى إنهم إذا رأوا الآيات التى تدل على الحق وثبتته لا يستفيدون منها فائدة ما فلا يؤمنون بها ، لأن كثرة الآيات وتعدد أنواعها إنما تفيد من تكون نفسه تواقفة لمعرفة الحق لكنه يجعل الوصول إليه أو يشك فى الطريق الموصلة إليه لتعارض الأدلة لديه خلفاء دلالتها أو لسوء فهمه لها ، فإذا خفيت عليه دلالة بعضها فقد تظهر له دلالة غيره فتتكشف الحقيقة واضحة أمامه وتسفر له عن وجهها ، وفى هذا إيماء إلى النبى صلى الله عليه وسلم بأن الذين يقترحون عليه الآيات من قومهم لا يقصدون استبانة الحق وإيضاحه بل يريدون إحداث الشغب والتعجيز ، فإن هم أجيبوا إلى طلبهم لم يؤمنوا بما جئت به .

(٢) (وإن يروا سبيل الرشى لا يتخذوه سبيلا) أى وهم ينفرون من سبيل الهدى والرشاد وهى السبيل المعبودة الواضحة ، فإذا رأى أحدهم هذه السبيل لا يختارها لنفسه ولا يفضلها على ما هو عليه من سبيل الغى ، وهذا منتهى ما يكون من الطبع على القلب والخروج عن جادة العقل والقطرة ، ومن الناس من يسلك هذه السبيل عن جهل فإذا رأى لنفسه مخرجا منها ارعوى وتركها واختار لنفسه سبيل الرشاد .

(٣) (وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا) أى إنهم إذا رأوا سبيل الغى والضلال هرعوا إليها وخبثوا فيها وأوضعوا بما تزيهه لهم نفوسهم من سلوكها والسير فيها إلى آخر الخلبة ، وهذه حال لهم شر من سابقتيها ، وهؤلاء الذين اجتمعت لهم هذه الصفات هم الذين طبع الله على قلوبهم وختم على سمعهم وقلوبهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فسبل الحق بغیضة إليهم ، وطرقه مكروهة لديهم .

ثم علل ما سلف من صرفهم عن النظر فى الآيات وعدم اعتبارهم بها فقال : (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أى إننا عاقبناهم على تكذيبهم بالآيات والغفلة عن النظر إلى الأدلة الموصلة إلى الحق فيما أمرنا به ونهينا عنه - بانختم على قلوبهم ، والغشاوة على أعينهم حتى لا يجد الحق منفذاً فى الوصول إليها .

والخلاصة — إن الله لم يخلق هؤلاء مطبوعين على الفنى والضلال طبعاً ، ولم يحبرهم إجباراً ويكرههم عليه إكراها بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم ، إذ هم آثروا التكذيب بالآيات والصد عن السبل الموصلة إلى الرشاد وغفلوا عن النظر في أدلتها لشغلهم بأهوائهم واتباع شهواتهم وبذا لجوا في الطغيان وتمادوا في العصيان واحتقروا ما سوى ذلك مما يهدى عقولهم إلى صوب الحق وسلوك طريقه .

وأمثال هؤلاء هم الذين عناهم الله بقوله « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

ولاشك أن كثيرا من المسلمين الذين تعلموا التعاليم الغريبة ورأوا زخرف المدينة الأوروبية وغرهم بهرجها وخلبتهم زينتها تنطبق عليهم هذه الصفات ، فهم يحتقرن هداية الدين الروحية وأوامره ونواهيه وسائر تعاليمه وماله من تأثير عظيم في النفوس وتوجيه لها إلى الخير وصدّها عن الشر والبعد عن الفواحش والمنكرات .

ذاك أنهم رأوا أنفسهم بعيدين عن الفنون والصناعات وزخرف الحياة الذى وصل فيه الغربيون إلى الغاية القصوى وهم عبيد شهواتهم منصرفون عن هداية الأديان إلى أبعد غاية ، فحدثهم أنفسهم أن ينهجوا نهجهم ويسيروا على سنتهم علّهم يصلون في ذلك إلى بعض ما وصلوا إليه ، ولو ساء لبنى إسرائيل ألا يتبعوا موسى عليه السلام لأنه لم يكن عنده من زينة الدنيا ومن الفنون والصناعات ومن رائع المدينة مثل ما كان عند فرعون وقومه لساغ لهم أن ينحدروا في تلك الهوّة ويقعوا في تلك الحفرة . والله في خلقه شئون وهو يصرف الأمور بيده وله الأمر من قبل ومن بعد .

(والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى والذين كذبوا بآياتنا المنزلة بالحق والهدى على رسلنا ، فلم يؤمنوا بها ولم يهتدوا بهديها ، وكذبوا بما يكون في الآخرة من الجزاء على الأعمال من ثواب

على الخير وعقاب على الشر - تحبط أعمالهم وتذهب سدى لأنهم عملوا لغير الله وأتعبوا أنفسهم في غير ما يرضى الله فتصير أعمالهم وبالا عليهم ولا يجزون إلا جزاء ما استمروا على عمله من الكفر والمعاصي ، فأثر في نفوسهم وأرواحهم حتى دساها وأفسدها ، فقد مضت سننه تعالى بجعل الجزاء في الآخرة أثرا للعمل مرتبا عليه كترتيب المسبب على السبب ، ولا يظلم ربك أحدا في جزائه مثقال ذرة .

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ
أَلَمَ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا
ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا
لَنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)

شرح المفردات

الْحِلْيَ (بالضم والتشديد) واحدها حَلْيٌ (بالفتح والتخفيف) . والعجل : ولد البقرة من العراب أو الجواميس كالخوار لولد الناقة والمهر لولد الفرس ، والجسد : الجثة وبدن الإنسان والشيء الأحمر كالذهب والزعفران والدم الجاف ، والخوار : صوت البقر كالرغاء لصوت الإبل ، وسقط في يده وأسقط في يده (بضم أولهما على البناء للمفعول) أى ندم ، ويقولون فلان مسقوط في يده وساقط في يده أى نادم . قال في العُباب وتاج العروس : هذا نظم لم يُسمع قبل القرآن ولا عرفته العرب ، وذكرت اليد لأن الندم يحدث في القلب وأثره يظهر فيها بعضُها أو الضرب بها على أختها كما قال سبحانه في النادم « فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَفْقَقَ فِيهَا » ولأن اليد هي الجارحة العظمى وربما يسند إليها ما لم تباشره كقوله تعالى « ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر خبر مناجاة موسى لربه واصطفائه إياه برسالاته وبكلامه وأمره بأخذ الألواح بقوة - ذكر هنا ما حدث أثناء المناجاة من اتخاذ قومه بنى إسرائيل عجلا مصوغا من الذهب والفضة ، ثم عبادته من دون الله - لما رسخ في نفوسهم من نغمة المظاهر الوثنية الفرعونية في مصر - وقد ذكرت هذه القصة عقب تلك لما بينهما من العلاقات الظاهرة والاشترك في الزمن .

الإيضاح

(واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار) أى وصاغ بنو إسرائيل من بعد ما فارقهم موسى ماضيا إلى ربه لمناجاته ووفاء الموعد الذى وعده به - من حلى القبط التى كانوا استعاروها منهم عجلا جسدا له خوار أى تمثالا له صورة العجل وبدنه وصوته ثم عبدوه .

والذى فعل ذلك كما سيأتى فى سورة طه هو السامرى ، وكان رجلا مطاعا فيهم ذا منزلة واحترام ، وإنما نسبته إليهم لأنه عمل برأى جمهورهم الذين طلبوا أن يجعل لهم إلها يعبدونه .

قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون فى ذلك العجل هل صار لحما ودماله خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر على قولين والله أعلم اهـ .

ويرى الرأى الأول قتادة والحسن البصرى فى جماعة آخرين ، وتعليل ذلك عندهم أن السامرى رأى جبريل حين جاوز بنى إسرائيل البحر راكبا فرسا ماوطى بها أرضا إلا حلت فيها الحياة واخضر نباتها فأخذ من أثرها قبضة فنبذها فى جوف تمثال العجل فحلت فيه الحياة وصار يخور كما يخور العجل .

ويرى جماعة آخرون الرأى الثانى ويقولون : إن خواره كان بتأثير دخول الريح فى جوفه وخروجها من فيه ، ذاك أنه صنع تمثال عجلا بجوفا ووضع فى جوفه أنابيب على طريق فنية مستمدة من دراسة علم الصوت وجعل وضعه على مهبط الرياح فمتى دخلت الريح فى جوف التمثال انبعث منه صوت يشبه خوار العجل .

وقال آخرون بل ذلك الخوار كان تمويها وعملا منه يشبه عمل : (الحواة) ذاك أنه جعل التمثال أجوف وجعل تحت الموضع الذى نصب فيه من ينفخ فيه من حيث لا يشعر الناس فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار ، والناس يفعلون مثل هذا فى النافورات التى تجرى فيها المياه ، وبهذا الطريق ونحوه ظهر الصوت من التمثال ثم ألقى فى رُوع الناس أن هذا العجل إلههم وإله موسى فعبدوه كلهم إلا هارون كما قال الحسن .

ثم رد الله عليهم ضلالاتهم وأبان لهم فساد آرائهم وقرّعهم على جهالاتهم فقال : (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) أى ألم يروا أنه فاقد لما يعرف به الإله الحق من تكليمه لمن يختاره من البشر لرسالته لتعليم عباده ما يجب عليهم معرفته من صفاته وسبيل عبادته كما كلم رب العالمين موسى وألقى إليه الألواح التى فيها من الشرائع ما يتركى النفوس وتقوم بها مصالح العباد وعليها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم . وخلاصة ذلك — إنه فاقد لأهم صفة من صفات الإله الحق وهى صفة الهداية والإرشاد للعباد بانزال الرسل الذين يختارهم إلى الناس — ومرجعها صفة الكلام .

(اتخذوه وكانوا ظالمين) أى إنهم لم يتخذوه عن دليل وبرهان بل اتخذوه عن تقليد للمصريين إذ رأوهم يعبدون العجل : (أيس) من قبل وعن تقليد لما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعد فعبدوه مثلهم .

وبهذا كانوا ظالمين لأنفسهم إذ هم يعملون ما يضرهم ولا ينفعهم بشىء .

(ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويفقر لنا لنكونن من الخاسرين) أى ولما اشتد ندمهم وازدادت حسرتهم على إما فوط منهم

في جنب الله وعلّموا أنهم قد ضلّوا ضلالاً بعيداً بعبادة العجل قالوا إن ذنبنا لعظيم وإن جرمنا لكبير ، وإنه لن يسعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة الله التي وسعت كل شيء ، ولئن لم يرحمنا ربنا بقبول توبتنا والتجاوز عن جريمتنا لنكونن من الذين خسروا سعادة الدنيا وهي الحرية والاستقلال في أرض الموعد ، وخسروا سعادة الآخرة وهي دار الكرامة والنعيم المقيم وجنات النعيم .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ، أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنٌ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)

شرح المفردات

الأسف : الحزن والغضب ، ويقال أسف من باب تعب حزن وتلف ، وأسف كغضب وزنا ومعنى ، ويعدى بالهمزة فيقال : آسفته ، ومن استعمال الأسف بمعنى الحزن قوله تعالى حكاية عن يعقوب : « وَقَالَ يَا أَسْفَا عَلَى يَوْسُفَ » وبمعنى الغضب قوله : « فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ » وعجّله : سبقه ، وأعجله : استعجله ، وألّقي : طرح ، والشامة : الفرح بالمصيبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما أحدثه السامري من إتخاذ العجل لبني إسرائيل وعبادتهم له ثم تدمهم على ما فرط منهم في جنب الله وطلبهم الرحمة من ربهم - ذكر هنا

ما حدث من موسى من الأسى والحزن حين رأى قومه على هذه الحال من الضلال والنقى ، ومن التعنيف واللوم لهرون على السكوت على قومه حين رآهم فى ضلالهم يعمهون .

الإيضاح

(ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) أى ولما رجع موسى من الطور إلى قومه غضبان على أخيه هرون ، إذ رأى أنه لم يكن فيهم صليب الرأى قوى الشكيمة نافذ الكلمة ، حزينا على ما وقع منهم من كفر الشرك وإغصاب الله والتفريط فى جنبه .

(قال بلئسا خلفتمونى من بعدى) أى بلئس خلافة خلفتمونها من بعد ذهابى عنكم إلى مناجاة ربى وقد كنت لفتنكم التوحيد وكففتكم عن الشرك وبيئت لكم فسادة وسوء مغبته وحذرتكم صنيع القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم من تماثيل البقر .

وقد كان من الحق عليكم أن تقتفوا أثرى وتتبعوا سيرتى ، بيد أنكم سلكتم ضد ذلك فصنعتم صنما كأحد أصنامهم فعبدوه بعضكم ولم يردعكم عن ذلك باقاكم .
(أعجلتم أمر ربكم ؟) قال صاحب الكشف : المعنى أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حافظين لعهد وما وصاكم به فبينتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم فحدثكم أنفسكم بموتى فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم .
وروى أن السامرى قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال : « هذا إلهكم وإله موسى » إن موسى لن يرجع وإنه قد مات اه .

(وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه) أى وطرح الألواح من يديه وأخذ برأس أخيه يجره إليه بذؤابته ظنا منه أنه قد قصر فى ردهم وتأنيتهم وكفهم عن عبادة العجل كما فعل هو بتحريره وإلقائه فى اليم إن قدر ، أو أن يتبعه إلى جبل

الطور إن لم يستطع كما حكى الله تعالى عنه في سورة طه : « قَالَ يَا هَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَقَصَيْتَ أَمْرِي ؟ » .

ولاشك أن سياسة الأمم تختلف باختلاف أحوال رعاتها وسائسيتها ، فالقوى منهم الشديد الغضب للحق كموسى يشعر بما لا يشعر به من يغلب عليه الحلم ولين العريكة كهرون عليه السلام .

ثم ذكر سبحانه جواب هرون لموسى فقال :

(قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونى) أى يابن أى لا تعجل بلومى وتعنيفى وتفتن تقصيرى فى جنب الله فإنى لم آل جهدا فى الإنكار على القوم والنصح لهم لكنهم قد استضعفوني ولم يرعوا لنصحى ولم يمتثلوا لأمرى بل أوشكوا أن يقتلونى .

(فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلى مع القوم الظالمين) أى فلا تفعل بى من اللوم والتفريع ما يجعل الأعداء يشمتون بى ، ولا تجعلى فى زمرة القوم الظالمين لأنفسهم وهم الذين عبدوا العجل فتغضب منى كما غضبت منهم وتواخذنى كما أخذتهم فإنى است منهم فى شيء ، وفى هذا دليل على أن هرون كان دون موسى فى شدة العزيمة وقوة الإرادة وأخذ الأمور بالحزم ، وهذا ما أطبق عليه المسلمون وأهل الكتاب .

ثم أبان سبحانه أثر هذا الاستعطاف فى قلب موسى عليه السلام فقال :

(قال رب اغفرلى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) أى قال رب اغفرلى ما فرط منى من قول وفعل فيهما غلظة وجفاء ، واغفرله ما عساه يكون قد قصر فيه من مؤاخذة القوم على ما اجترموه من الآثام خوفا مما توقعه من الإيذاء الذى قد يصل إلى القتل ، وأدخلنا فى رحمتك التى وسعت كل شيء واغفرنا بجهودك وفضلك فأنت أرحم بعبادك من كل من رحم .

والآية صريحة فى براءة هرون من جريمة اتخاذ العجل وفى إنكاره على متخذه

وعابديه من قومه ، وبهذا قد صححت ما وقع في التوراة التي بين يدي أهل الكتاب من نسبة اتخاذ العجل إلى هرون وجعله هو الفاعل لذلك كما جاء في الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج قال :

(ولما رأى الشعب أن موسى قد أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون وقالوا : قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن موسى الرجل الذى كان قد أصددنا من أرض مصر لانعلم ما قد أصابه ، فقال لهم هرون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائك وبنيمكم وبناتكم واثثوني بها فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي كانت في آذانهم وأثا بها إلى هرون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصددتك من أرض مصر ، فلما نظر هرون بنى مذبحا أمامه ونادى هرون وقال : غدا عيد لارب فبكروا في الغد وأصدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة ، وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب ، فقال الرب لموسى : اذهب انزل ، لأنه قد فسد شعبك الذى أصددته من أرض مصر ، زاغوا سريعا عن الطريق الذى أوصيتهم به صنعوا عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل الذى أصددتك من أرض مصر - ثم قال : وكان عند ما اقترب إلى الحلة أنه أبصر العجل والرقص فغوى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرها في أسفل الجبل ، ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل وقال موسى لهرون : ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة فقال هرون : لا يحتم غضب سيدى على ، أنت تعرف الشعب إنه في شر ، فقالوا اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ... ثم ذكر طلب موسى من الرب أن يغفر لقومه ، وأمر الرب إياهم بأن يقتل كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه وإن بنى لاوى فعلوا ذلك فقتل منهم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل) - وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)

شرح المفردات

الغضب هنا : هو ما أمروا به من قتل أنفسهم ، والذلة : هي ما يشعرون به من هوانهم على الناس واحتقارهم لهم ، وقيل هي الذلة التي عرّتهم عند تحريق إلههم ونسفه في اليم نسفامع عدم قدرتهم على دفع ذلك عنه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عتاب موسى لأخيه هارون عليهما السلام ثم استغفاره لنفسه وله - قفى على ذلك بذكر ما استحققه القوم من الجزاء على اتخاذ العجل وهو مما أوحاه الله إلى موسى يؤمئذ .

الإيضاح

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى إن الذين بقوا على اتخاذ العجل واستمروا عليه كالسامري وأشياعه - سيصيبهم غضب من ربهم بالأقبال توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم ، وذلة عظيمة في الحياة الدنيا بالخروج من الديار والغربة عن الوطن .

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ) أى ومثل هذا الجزاء في الدنيا نجزي المفتريين على الله في كل زمان إذا فضحوا بظهور افتراءهم كما فضح هؤلاء .

قال الحسن البصرى : إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هلمجت بهم البغال وطققت بهم البراذين .

وروى عن أبي قلابة أنه قرأ هذه الآية وقال هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة .

(والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) أى والذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصى ثم تابوا ورجعوا من بعدها إلى الله بأن رجع الكافر عن كفره والمعاصى عن عصيانه وأخلص الإيمان وزكاه بالعمل الصالح - إن ربك من بعد ذلك لغفور لهم ستار لذنوبهم رحيم بهم منعم عليهم .

وينتظم فى هذا السلك متخذو العجل وسواهم من المجترحين للسيئات ، عظمت ذنوبهم أو حقرت ، لأن الذنوب وإن جلت وعظمت فغفوا الله وكرمه أعظم وأجل على شريطة التوبة والإنابة ، وبدونها الطمع فيه طمع فى غير مطعم ، ألا ترى أن طمع الفساق فى المغفرة بدون الإنابة إلى ربهم قد ذهب بكثير من حرمة الأوامر والنواهى من قلوبهم وجعلهم يستحلون كثيرا من المحرمات وكانوا شرا ممن قال الله فيهم : « وَقَالُوا إِنَّا تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً » ولم يكن طمعهم ثمرة إيمان وعمل صالح بل هى أمانى جر إليها الحق والغفلة عما يجب من تعظيم تلك الأوامر والنواهى : « إن الأمانى والأحلام تضليل » .

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى
وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

شرح المفردات

السكوت فى اللغة : ترك الكلام ، نسب إلى الغضب على تصويره بصورة شخص ذى قوة ورياسة يأمر وينهى فيطاع ، قال فى الكشف : هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وجرب رأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء اه . وفى نسختها أى ما نسخ وكتب منها فهى من النسخ كالخطبة من الخطاب ، وهدى : بيان للحق ، ورحمة بالإرشاد إلى ما فيه الخير والإصلاح ، والرهبة : أشد الخوف .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال القوم وقسمهم قسمين : مضر على الذنب وعبادة العجل .
وثائب منيب إلى ربه ، وبين مآل كل من القسمين - ذكر هنا بيان حال موسى
بعد أن سكنت سورة غضبه وهذا روعه .

الإيضاح

(ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين
هم لربهم يرهبون) أى ولما سكن غضب موسى باعتذار أخيه إليه ولجأ إلى رحمة
ربه وفضله وجأ بالنداء له أن يغفر له ولأخيه خطاياهما عاد إلى الألواح فأخذها ،
وفيهما الهدى والرشاد من بارئ النسم لمن يرهب الله ويخشى عقابه ويرجو ثوابه .

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِئَاسَةً فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ
مِثْلَنَا ، إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ، أَنْتَ وَابْنُكَ
فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَكَتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ
وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ
الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ
وَعَزَّزُوا وَنَصَرُوا وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)

شرح المفردات

يقال اختاره من الرجال وانتقاه : اصطفاه من بينهم ، والرجفة : الصاعقة ، والفتنة :
الاختبار والامتحان مطلقا أو بالأمور الشاقة ، والولى : المتولى أمور غيره القائم عليها ،
والحسنة فى الدنيا : هى العافية وبسطة الرزق وعز الاستقلال والملك ، وفى الآخرة
دخول الجنة ونيل الرضوان ، وهاد يهود وتهود : تاب ورجع إلى الحق فهو هائد وقوم
هود ، والنبي من النبأ : وهو الخبر المهم العظيم الشأن ؛ وفى لسان الشرع من أوحى الله
إليه وأنباه بما لم يكن يعلم بكسبه من خبر أو حكم به يعلم علما ضروريا أنه من الله عز
وجل ، والرسول : نبي أمره الله بتبليغ شرع ودعوة دين وإقامته والعمل به ولا يشترط
أن يكون كتابا يقرأ وينشر ولا شرعا جديدا يعمل به ويحكم بين الناس ، بل قد يكون
تابعا لشرع غيره كله كالرسل من بنى إسرائيل الذين كانوا يتبعون التوراة عملا وحكما ،
والأُمى : الذى لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأم ، وأهل الكتاب يلقبون العرب بالأميين
كما حكى الله عنهم : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » . والمعروف :
ما تعرف العقول السليمة حسنه لموافقته للفطرة والمصلحة بحيث لا تستطيع أن ترده
أو تعترض عليه إذا ورد به الشرع ، والمنكر ما تنكره القلوب وتأباه على الوجه المذكور ،
والطيب : ما تستطيه الأذواق من الأطعمة وتستفيد منه التغذية النافعة ، والخليث
من الأطعمة : ما تمججه الطباع السليمة كالميتة والدم المسفوح ، أو تصد عنه العقول
الراجحة لضرره فى البدن كالخنزير الذى تتولد من أكله الدودة الوحيدة ، أو لضرره
فى الدين كالذى يذبح للتقرب به إلى غير الله على سبيل العبادة ، والخليث من الأموال :

ما يؤخذ بغير حق : كالرياء والرشوة والغلول والسرقة والغصب ونحو ذلك ، والإصر : الثقل الذى يَأْصِرُ صاحبه : أى يحبسُه من الحراك ثقله ، والأغلال : واحدها غل (بالضم) وهو الحديد التى تجمع يد الأسير إلى عنقه ويقال لها جامعة أيضاً ، والتعزير : الإعاقة والنصرة حتى لا يقوى عليه عدو .

الإيضاح

(واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا) أى وانتخب موسى واصطفى سبعين رجلاً من خيار قومه للميقات الذى وقته الله تعالى له ودعاهم للذهاب معه إلى حيث ينجى ربه من جبل الطور .

(فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) أى فلما أخذتهم رجفة الجبل وصعقوا قال موسى رب إني أتمنى أن لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معى إلى هذا المكان فأهلكتهم وأهلكتنى معهم حتى لا أقع فى شديد الحرج مع قومى فيقولوا قد ذهبنا بخيارنا لإهلاكهم وإن لم تفعل فإني أسألك برحمتك ألا تفعل الآن .

وقد اختلف المفسرون فى أن هذا هل كان بعد أن أفاق موسى من صعقة تجلى ربه للجبل عقب سؤاله الرؤىة إذ كان معه شيوخ بنى إسرائيل ينتظرونه فى مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة - أو كان بعد عبادة العجل حين ذهبوا للاعتذار وتأكيد التوبة وطلب الرحمة .

قال محمد بن إسحق : اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلاً الخيِّرَ فاختيِّرَ وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وظهروا ثيابكم ، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم ، فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه : يا موسى اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعَل ، فلما دنا

موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الليل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرَبَ دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقموا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى : يأمره وينهاه افعل ولا تفعل ، فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً » فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فأتلفت أرواحهم فأتوا جميعاً ، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : « رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى قد سفهوا ، أهلك من ورأى من بنى إسرائيل اه . ولا شك أن هذه الرواية ونحوها مأخوذة عن الإسرائيليات وليس فيها شئ مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

(أهلكنا بما فعل السفهاء منا) أى قال موسى لربه مستعظفاً : لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا من العناد وسوء الأدب أو من عبادة العجل ، وفى هذا إيماء إلى أن عقلاء بنى إسرائيل وأصحاب الرواية منهم لم يعبدوه وإنما عبده السفهاء وهم الأكثرون . (إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) أى ما تلك الفعلة التى كانت سبباً فى أخذهم بالرجفة إلا محنة منك وابتلاء جعلته سبباً لظهور استعداد الناس وما طويت عليه سرائرهم من ضلال وهداية وما يستحقون عليه العقوبة أو المثوبة على حسب سنتك فى خلقك بالعدل والحق ، تضل بمقتضاها من تشاء من عبادك ولست بالظالم لهم فى تقديرك ، وتهدى من تشاء ولست بالحابى لهم فى توفيقك ، فأمرهم دائرين العدل والفضل .

(أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) أى أنت المتولى أمورنا والقائم علينا بما تكتسب نفوسنا ، فاغفر لنا ما تترتب عليه المؤاخذه والعقاب من مخالفة سنتك والتقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك وعبادتك ، وارحمنا وأنت خير الغافرين حلماً وكرماً وجوداً ، فكل غافر سواك إنما يغفر لغرض كحب الشئ ودفع

الضرر وأنت تغفر لا اطلب عوض بل لمحض الفضل والكرم ، وأنت خير الراحمين
رحمة وأوسعهم فيها فضلا وإحسانا ، فرحمة من سواك نعمة مفاضة على قلوبهم
من رحمتك .

(واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة) أى وأثبت لنا برحمتك وفضلك
حياة طيبة في هذه الدنيا من عافية وبسطة في الرزق وتوفيق للطاعة ، ومثوبة حسنة
في الآخرة بدخول جنتك ونيل رضوانك فهو بمعنى قوله فيما علمنا من دعائه :
« رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً » .

(إنا هدنا إليك) أى إنا تبنا إليك مما فرط من سفهائنا من طلب الآلهة وعبادة
العجل ومن تقصير عقلائنا في الإنكار عليهم - مستغفرين مسترحين كما فعل من
قبل آدم إذ تاب إليك من معصيته فتبت عليه واجتبيته فسكانت تلك سنتك
في ولده .

(قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء) أى قد كان من
سبق رحمتي غضبي أن جعلت عذابي خاصا أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة ؛
أما رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين فهي من صفاتي التي قام بها أمر العالم منذ
خلقته ، والعذاب من أفعال المترتبة على صفة العدل ، ولولا الرحمة العامة المبذولة لكل
أحد هلك كل كافر وعاص عقب كفره وفجوره : « وَلَوْ يُوَ أَخَذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا
مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرٍهَا مِنْ دَابَّةٍ » .

ثم ذكر من ستكتب لهم الرحمة فقال :

(فسأ كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى فأثبت
رحمتي بمشيقتي للذين يتقون الكفر والمعاصي ويؤتون الصدقة التي تنزكي بها أنفسهم،
وخص الزكاة بالذكر دون ما عداها من الطاعات ، لأن النفوس شحيحة ففتنته تقتضي
أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين غيرها من الطاعات ، كما أن في ذلك

إيمانهم إلى أن اليهود أشربوا في قلوبهم حب المال وفتنوا بجمعه ومنع بذله في سبيل الله، كما أنى سأ كتبها كُتْبة خاصة للذين يصدقون بجميع آياتنا التي تدل على توحيدنا وصدق رسلنا تصديق إيقان مبنى على العلم الصحيح دون تقليد للأباء والأجداد .

(الذين يتبعون الرسول النبي الأمى) أى إن كتابة الرحمة كتابة خاصة لمن يتصفون بالصفات الثلاث المتقدمة : وهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمى وهو وصف خاص بمحمد صلى الله عليه وسلم لا يشاركه فيه غيره من النبيين . فالأمية آية من آيات نبوته فهو مع أميته قد جاء بأعلى العلوم النافعة التي بها يصلح ما فسد من عقائد البشر وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم ، فغير نظم البشر في تلك الحِقْبة الطويلة وأثر في حياة الأمم التي حوله أكبر الأثر بما شهد له المنصفون في كل الأديان .

وقد وصف الله ذلك الرسول الذي أوجب اتباعه على كل من أدركه من بنى إسرائيل بصفات :

(١) إنه نبي أمى .

(٢) إنه هو (الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) أى يجد الذين يتبعونه من بنى إسرائيل وصفه مكتوبا فى التوراة والإنجيل بحيث لا يشكون أنه هو . فقد جاء فى الباب الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير واستعلى من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار ، فى يمينه قبس من نار » فجيئته من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام ، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام ، واستعلاؤه من جبال فاران إنزاله القرآن لأن فاران من جبال مكة .

وجاء فى الباب الخامس عشر من إنجيل يوحنا : « فأما إذا جاء الفارقليط الذى أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذى من الأب ينبثق فهو يشهد لى وأتم تشهدون لأنكم معى من الابتداء - والفارقليط بالعبرية معناه أحمد - كما قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا

رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » وجاء في سفر التكوين : « فلا يزول التضييب من يهوذا والراسم من تحت أمره إلى أن يجيء الذى هو له وإليه تجتمع الشعوب » وفى هذا دلالة على مجيء محمد عليه السلام بعد تمام حكم موسى وعيسى ، لأن المراد من الحاكم موسى لأنه ما جاء بعد يعقوب صاحب شريعة إلهو ، والمراد من الراسم عيسى وبعدهما ما جاء صاحب شريعة إلا محمد عليه السلام .

وعلى الجملة ، فأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يتناقلون خبر بعثته صلى الله عليه وسلم فيما بينهم ويذكرون البشارات من كتبهم ، حتى إذا ما بعثه الله بالهدى ودين الحق آمن به كثيرون وكان علماءهم يصرحون بذلك كعبد الله بن سلام وأصحابه من علماء اليهود وتميم الدارى من علماء النصارى وغيرهم من الذين أسلموا فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما الذين استكبروا فكانوا يكتُمون البشارات به فى كتبهم ويؤولون كثيرا منها ويكتُمونه عن لم يطلع عليه ، وقد قيض الله عالما من علماء الهند يسمى الشيخ رحمة الله فى القرن الماضى فحقق هذه البشارات فى كتاب سماه : (إظهار الحق) وتناول به مسائل غاية فى الأهمية ويجدر بمن يريد التوسع فى هذه المسائل أن يطلع عليه وهو مطبوع متداول بين أيدي الناس .

(٣ ، ٤) إنه (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) أى لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشر كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا » فأرعاها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنتهى عنه اه .

ومن أهم ما أمر به عبادة الله وحده لا شريك له ، ومن أهم ما نهى عنه عبادة ما سواه كما هو شأن جميع الرسل فى ذلك كما قال . « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » .

(٥ ، ٦) إنه (يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) أى إنه يحل لهم ما تستطيبه الأذواق من الأطعمة وفيه فائدة فى التغذية ، ويحرم عليهم ما تستقذره

النفوس : كالميتة والدم المسفوح وما يؤخذ من الأموال بغير حق كالربا والرشوة والغصب والخيانة .

(٧) إنه (يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) أى إنه يضع عنهم التكاليف الشاقة كاشتراط قتل الأنفس في صحة التوبة والقصاص في القتل العمد أو الخطأ من غير شرع الدية وقطع الأعضاء الخاطئة وقطع موضع النجاسة من الثوب وتحریم السبت .

وقال ابن كثير : أى إنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد في الحديث : « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال صلى الله عليه وسلم لأمریه معاذ بن جبل وأبى موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن : « بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا ، وتطاوعا ولا تختلعا » .

والخلاصة — إن بنى إسرائيل كانوا أخذوا بالشدة في أحكام العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات فكان مثلمهم مثل من يحمل أثقالا يئط منها وهو موثق بالسلاسل والأغلال في عنقه ويديه ورجليه ، وقد خفف المسيح عليه السلام عنهم بعض التخفيف في الأمور المادية وشد في الأحكام الروحية إلى أن جاءت الشريعة الوسطى السمحة التي بعث بها خاتم الرسل محمد صلوات الله عليه . ثم بين سبحانه وتعالى كيفية اتباعه عليه السلام وعلو مرتبة متبعيه واغتنامهم مغنم الرحمة في الدارين إثر بيان نعوته الجليلة فقال :

(فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) أى إن الذين آمنوا بالرسول الأسمى حين بعث — من قوم موسى ومن كل أمة ، وعزروه بأن منعوه وحموه من كل من يعاديه مع التعظيم والإجلال ، لا كما يحمون بعض ملوكهم مع السكر والاشمئزاز ، ونصروه باللسان والسنان ، واتبعوا النور الأعظم الذى أنزل مع رسالته وهو القرآن ، أولئك هم المفلحون الفائزون بالرحمة والرضوان دون سواهم من حزب الشيطان الذين خذلهم الله في الدنيا والآخرة .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَأَمَتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)

الإيضاح

بعد أن حكى عز اسمه مافى التوراة والإنجيل من نعوته صلى الله عليه وسلم وذكر
شرف من يتبعه من أهلها ونيلهما سعادة الدنيا والآخرة - قفى على ذلك ببيان عموم
بعثته صلى الله عليه وسلم ودعوة الناس كافة إلى الإيمان به ؛ فقال :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) أى قل لجميع البشر من عرب وعجم
إنى رسول الله إليكم كافة لا إلى قومية خاصة فهو بمعنى قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » وقوله : « وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنِ لِأَنَّذَرَكُمْ بِهِ
وَمَنْ بَلَغَ » أى وأنذر به كل من بلغه من الثقلين وقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِّلْعَالَمِينَ » .

وجاءت أحاديث صحيحة ناطقة باختصاصه صلى الله عليه وسلم بالرسالة العامة
كحديث جاء فى الصحيحين وغيرهما من قوله صلى الله عليه وسلم « أُعْطِيتْ خَمْسًا لَمْ
يُعْطِ أَحَدٌ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نَصَرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا
وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِّنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ ، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ
قَبْلِي ، وَأُعْطِيتْ لِي الشَّفَاعَةُ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ
النَّاسِ عَامَةً » .

ثم وصف الله تعالى نفسه بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية وبالإحياء
والإماتة فقال :

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ) أى إن الله

الذى أنا رسوله هو من له التصرف فى السموات والأرض وتدير العالم كله ، إذ وحدة النظام فى جملة المخلوقات وعدم التفاوت فيها دليل على وحدة مضدورها وتديرها ، فهو المعبود وحده لا إله إلا هو .

وتوحيد الربوبية بالإيمان ، وتوحيد الألوهية بالإيمان والعمل : أى بعبادة الله وحده - هما أصل الدين والركن الأول فى العقيدة . والركن الثانى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، والركن الثالث عقيدة البعث بعد الموت وهى تتضمن الإحياء والإماتة وتصرف الرب فى خلقه .

وقد بنى على تقرر هذه الأمور الثلاثة الدعوة إلى الإيمان فقال :

(فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي) أى فآمنوا أيها الناس جميعا بالله الواحد فى ربوبيته وألوهيته الذى يحى كل ما تحله الحياة ويميت كل ما يعرض له الموت بعد الحياة ، وهذا أمر مشاهد كل يوم .

وآمنوا برسوله النبي الأمي الذى بعثه فى الأميين رسولا إلى الخلق أجمعين يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويظهرهم من خرافات الشرك والجهل والتفرق والتعاضد ليكونوا بهدايته أمة واحدة يتحقق بها الإخاء البشرى العام ، وقد بشر بهذا النبي الأنبياء صلوات الله عليهم لأنه المتمم لما بعثوا به من هداية الناس .

(الذى يؤمن بالله وكلماته) أى يؤمن بتوحيد الله وكلماته التشريعية التى أنزلها لهداية خلقه على السنة رسله وهى مظهر عامه ورحمته ، وكلماته التكوينية التى هى مظهر إرادته وقوته وحكمته .

وبعد أن أمرهم سبحانه بالإيمان أمرهم بالإسلام فقال :

(واتبعوه لعلمكم تهتدون) أى واسلكوا طريقه واقفوا أثره فى كل ما يأتى وما يذر من أمور الدين رجاء اهتدائكم بالإيمان واتباعه إلى ما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة ، وتلك هى الثمرة التى تجنى منها ، فما آمن قوم بنى إلا كانوا بعد الإيمان

به خيرا مما كانوا قبله من العزة والكرامة في دنياهم وسعادتهم في الآخرة بنيل رضوان ربهم والحظوة بالقرب منه .

وليس من التشريع الذى يجب فيه امتثال الأمر واجتناب النهى - مالا تعاق له بحق الله ولا حق خلقه من جلب مصلحة أو دفع مفسدة كمسائل العادات والزراعات والصناعات والعلوم والفنون المبنية على التجارب ، وما جاء فيها من أمر ونهى فهو إرشاد لا تشريع - وقد ظن بعض الصحابة أن إنكار النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الأمور الدنيوية المبنية على التجارب من قبيل التشريع كامتناعهم عن تلقيح النخل حين نهام عنه فأشاص : (أى خرج ثمره شيصا رديثا) فراجعوه فأخبرهم أن ما قاله كان عن ظن ورأى لاعن تشريع ووحى وقال لهم : (أتم أعلم بأمور دنياكم) والحكمة فى ذلك تنبيه الناس إلى أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية متروكة لمعارف الناس وتجاربهم .

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه كتابته للرحمة لمن يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم من قوم موسى ووصفهم بأنهم هم المفلحون - ذكر هنا حال خواص أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا متبعين له حق الاتباع وعظفهم على المهتدين باتباع خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) الأمة : الجماعة الكثيرة ، ويهدون : يرشدون ويدلون ، والعدل الحكم بين الناس بالحق - يقال هو يقضى بالحق ويعدل وهو حكم عادل ؛ أى ومن قوم موسى جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق

الذى جاءهم به من عند الله ويعدلون به دون غيره إذا حكموا بين الناس ، فلا يتبعون هوى ولا يأكلون سحتا ولا رشى ، وهؤلاء من كانوا فى عصر موسى ومن بعد عصره حتى بعد ما ضاع أصل التوراة ووجدت النسخ المحرفة بعد السبي ، فإن الأمم الكبيرة لا تخلو من أهل الحق والعدل .

ونحو الآية قوله : « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا » .
وقد ورد فى خيار أهل الكتاب ثلاثة أنواع من الآيات :

(١) ما كان منها صريحا فى الذين أدركوا النبى صلى الله عليه وسلم وآمنوا به كقوله فى سورة البقرة : « الَّذِينَ آمَنَّا هُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » .

(٢) ما كان صريحا فى الذين كانوا فى عهد موسى عليه السلام واتبعوه أو اتبعوا من بعده من أنبيائهم إلى عهد البعثة العامة قبل بلوغ دعوتها كالآية التى نحن نفسرها .
(٣) ما كان محتملا للقسمين كقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) .

وَقَطَعْنَا مِنْهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)

شرح المفردات

قطعناهم أى صيرناهم قطعاً وفرقاً كل فرقة منها سبط ، والسبط : ولد الولد مطلقاً ، وقد يخص بولد البنت ، وأسباط بنى إسرائيل سلائل أولاده العشرة : أى ماعدا لاوى

وسلائل ولدى ابنه يوسف وهما إفرام ومنسى ، إذ سلائل لاوى نيظت بها خدمة الدين فى جميع الأسباط ولم تجعل سبطا مستقلا ، والأمة : الجماعة التى تؤلف بين أفرادها رابطة خاصة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد ، والاستسقاء : طلب الماء للسقى ، والانجاس والانفجار واحد ، يقال : بجسه فانبجس وبجسه فنبجس كما يقال فجره : أى شقه فانفجر ، وقال الراغب الانجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شىء ضيق ، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شىء واسع ، والغمام : السحاب مطلقا أو الأبيض منه أو الرقيق ، والمن مادة يبيض تنزل من السماء كالظل حلوة الطعم شبيهة بالعلل وإذا جفت كانت كالصمغ ، والسوى : طير يشبه الشمانى (السمان) لكنه أكبر منه .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى هذه الآية حالين من أحوال بنى إسرائيل ، أولاهما : أنه قسمهم ثلثى عشرة فرقة بعدد أسباطهم الاثنى عشر ، ثانيتهما : أنهم لما استسقوا موسى ضرب الحجر فانبجس منه اثنتا عشرة عينا بقدر عدد الأسباط وقد تقدم ذكر هاتين الواقعتين فى سورة البقرة .

الإيضاح

(وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما) أى وفرقنا قوم موسى الذين كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ومنهم الظالمون والفاسقون فجعلناهم اثنتى عشرة فرقة تسمى أسباطا : أى أمما وجماعات يمتاز كل منهم بنظام خاص فى معيشتة وبعض شؤنه . (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاؤه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا) أى وأوحينا إلى موسى حين استسقاؤه قومه فاستسقى ربه لهم - أن اضرب بعصاك الحجر فضر به فنبعت منه عقب ضر به إياه اثنتا عشرة عينا من الماء بقدر عدد أسباطهم ، وخص كل واحد بعين منها للزحام وحفظا للنظام ، وفى سفر

العدد من التوراة أن عدد الرجال الصالحين للحرب من بني إسرائيل كان يزيد على ستمائة ألف من ابن عشرين فما فوق وعلى هذا فيكون عددهم جميعا يزيد على ألفي ألف (مليونين) وابن خلدون قال في مقدمته : إن هذا العدد لا يتصور بقاءه في صحراء مجربة قليلة المياه بحال فلا ينبغي للمؤرخين اعتماد هذا ، كذلك ما ورد من حجم الحجر وشكله ككون رأسه كراس الشاة أو أكبر وكونه يوضع في الجوالق أو يحمل على ثور أو حمار فكل ذلك من الخرافات الإسرائيلية التي تلقاها المفسرون بالقبول على غرابتها .

(وظلنا عليهم الغمام) أى وسخرنا لهم الغمام يلقى عليهم ظله فيقيهم لفتح الشمس من حيث لا يحرمون فأندة نورها وحرها المعتدل ، ولولا السحاب فى التيه لأحرقهم حرارة الشمس إذ لم يكن هناك من الشجر ما يستظلون به .

(وأزلنا عليهم المن والسلوى) فسلطنا عليهم الطعام والشراب على أحسن الوجوه وكان المن يقوم مقام الخبز عندهم ويكفى الألوف من الناس ، وتقوم السماوى مقام اللحوم والطيور الأخرى .

(كلوا من طيبات ما رزقناكم) أى وأزلنا عليهم ما ذكر قائلين لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وفى ذلك تنبيه وتذكير بما كان يجب عليهم من شكر هذه النعم . (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ، بل ظلموا أنفسهم وأضروها بهذا الجحود والإنكار ، وقد كان ذلك من دأبهم وعادتهم آنا بعد آن ، وقد جاء فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم عن أبى ذر مرفوعا « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى إنكم لن تبغوا ضرى فتضرونى ولن تبغوا نفعى فتتفغنونى » .

ولا شك أن من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ، وإن كان ظلمه لنفسه مما يحجل أنه ظلم لها ، إذ يتجلى له فى صورة المنفعة وإنما تكون عاقبته مضرة ، وهكذا الحال فى جميع

الظالمين والمجرمين فهم يظنون أنهم بظلمهم وإجرامهم ينفعون أنفسهم جهلا منهم للعواقب وقلة تدبر ما ينبغي أن يتفطن له .

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) .

الإيضاح

تقدم مثل هاتين الآيتين في سورة البقرة غير أن بين الموضعين فروقا :

(١) إنه قال هنا : اسكنوا القرية ، وفي سورة البقرة : « ادخلوا » والفائدة هنا أتم ، لأن السكنى تستلزم الدخول دون العكس .

(٢) إنه قال هنا : (وكلوا منها حيث شئتم) وفي سورة البقرة « فكلوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا » ، فجاء المطف هناك بالفاء لأن بدء الأكل يكون عقب الدخول كأكل الثمرات والقواكه التي تكون في كل ناحية من القرية - أما السكنى فأمر ممتد يكون الأكل في أثناءه لآعقبه ، كما وصف هناك الأكل بالرغد وهو : الواسع الهنيء لأن الأكل في أول الدخول يكون ألد وبعد السكنى والإقامة لا يكون كذلك .

(٣) إنه قال هنا : (وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا) وقدم هنا ما أخر هناك وأخر ما قدمه ، والواو لا تدل على طلب ترتيب بين الأمرين ، فالاختلاف في التعبير دال على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذاك وبين عكسه إذ لا فارق بين أن يدعوا بقولهم : (حطة) أى حط عنا أوزارنا وخطايانا الذى هو بمعنى قولنا اللهم غفرا -

في حال التلبس بالتواضع والخضوع وتنكيس الرؤوس شكرا لله على نعمه عند دخول القرية، وبين أن يبدؤوا بتنكيس الرؤوس والخضوع والتواضع ثم يدعوا بقولهم (حطة).
 (٤) إنه قال هنا : (سنزيد المحسنين) بدون واو، وهناك : «وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» بالعطف والمعنى واحد وترك الواو أدل على أن الزيادة تفضل من الله ليست مشاركة للمغفرة فيما جعل سببا لها من الخضوع والسجود والاستغفار والدعاء بحط الأوزار .
 (٥) إنه قال ها هنا : (فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم) فزيد منهم على مثله في سورة البقرة .

ومعنى تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم : أنهم عصوا بالقول والفعل وخالفوا الأمر مخالفة تامة لا تحتل احتمال اجتهدا ولا تأويلا فلم يراعوا ظاهر مدلول اللفظ ولا الفحوى والمقصد منه ، حتى كأن المطلوب منه غير الذي قيل لهم .

وما روى في الإسرائيليات من هذا التبديل من الألفاظ العبرانية أو العربية - فلا ثقة به ، وإن خرج بعضه في الصحيح والسنن موقوفا ومرفوعا كحديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما - قيل لبنى إسرائيل : (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة فدخلوا يرحفون على أستاذهم وقالوا : (حطة) حبة في شعيرة إذ هو مروي من طريق همام بن منبه أخى وهب وهما صاحبا الغرائب في الإسرائيليات ، وأبو هريرة لم يصرح بسماعه من النبي صلى الله عليه وسلم فيحتمل أنه سمعه من كعب الأخبار إذ ثبت أنه روى عنه .

(٦) إنه قال هنا : (فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون) وقال هناك « وَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » فلاختلاف بين الإنزال والإرسال وهو خلاف لفظي ، وبين عليهم وعلى الذين ظلموا ، وبين يظلمون ويفسقون ، وفائدته بيان أنهم كانوا يجمعون بين الظلم الذي هو نقص للحق أو إيذاء للنفس أو للغير ، والفسق الذي هو الخروج عن الطاعة ، والرجز كما تقدم العذاب الذي تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس في شئونهم ومعايشهم .

والعبرة في هذا القصص أن نعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها في الدنيا قبل أن يعذبها في الآخرة ، وأن نبتعد بقدر الطاقة عن الظلم والفسق ، فقد عاقب الله بنى إسرائيل بظلمهم ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من فضائل ومزايا ككثرة الأنبياء فيهم وتفضيلهم على العالمين كما تقدم .

وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّحًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ؟ قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّعْرِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) .

شرح المفردات

القرية : هي أيلة ، وقيل مدين ، وقيل طبرية ، والعرب تسمى المدينة قرية ، حاضرة البحر : أى قريبة منه على شاطئه ، ويعدون في السبت : أى يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه ، وحيتانهم : سمكهم ، ويوم سبتهم : أى تعظيمهم للسبت يقال سبتت اليهود تسبت إذا عظمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة ، وشُرَّحًا : واحدها شارع كركع وراكع : أى ظاهرة على وجه الماء ، ونبلوهم : نختبرهم ، وأمة منهم : أى جماعة منهم ، والمعذرة : بمعنى العذر وهو التنصل من الذنب ، فمعنى معذرة إلى ربكم : قيام منا بعذر أنفسنا إلى الله تعالى ، ونسوا ما ذكروا به :

أى تركوه ترك الناسى وأعرضوا عنه إعراضا تاما ، والسوء : العمل الذى تسوء عاقبته ،
والبئس : الشديد من البأس وهو الشدة ، أو من البؤس وهو المكروه أو الفقر ،
والعتو : الإباء والعصيان ، وخاسئين : أى أذلاء صاغرين .

المعنى الجملى

قد ذكرت هذه القصة فى سورة البقرة إجمالا وها هنا ذكرت تفصيلا إذ كانت
سورة الأعراف نزلت بمكة فى أوائل الإسلام ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم لقى
أحدًا من اليهود وقد كان أميا لا يقرأ كتابا كما قال تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ
قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » فكان ذلك أدل
على الإعجاز .

الإيضاح

(واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
والسؤال للتقرير المتضمن للتقريع والتوبيخ وبيان أن كفر أهل الكتاب بمحمد
صلى الله عليه وسلم وبمعجزاته ليس بدعا جديدا منهم ، فإن أسلافهم أقدموا على هذا
الذنب القبيح والمعصية الفاحشة واعتدوا هذا الاعتداء الشائن الذى قص الله خبره .
والمعنى — واسأل بنى إسرائيل عن أهل المدينة التى كانت قريبة من البحر
راكبة على شاطئه .

(إذ يعدون فى السبت) أى اسألهم عن حالهم حين كانوا يعتدون فى السبت
ويجاوزون حكم الله بالصيد فيه وقد نهوا عنه .

(إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا) أى يأتيتهم السمك ظاهرا على وجه الماء
يوم تعظيمهم للسبت بترك العمل والتفرغ للعبادة فيه ابتلاء من الله واختبارا لهم .
(ويوم لا يسبئون لاتأتيتهم) أى لاتأتيتهم يوم لا يسبئون كما كانت تأتيتهم يوم

السبت حذرا من صيدهم لاعتيادها أحوالهم : قيل إنها اعتادت ألا يتعرض أحد لصيدها يوم السبت فأمنت وصارت تظهر فيه وتخفى في الأيام التي لا يستبثون فيها لما اعتادت من اصطليادها فيها ، فلما رأوا ظهورها وكثرتها في يوم السبت أغرام ذلك بالاحتياط على صيدها فيه .

(كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) أى مثل هذا البلاء بظهور السمك يوم السبت نبتليهم ونعاملهم معاملة المختبر لحال من يراد إظهار حاله ليترتب الجزاء على عمله بسبب فسقهم المستمر على أمر ربهم واعتدائهم حدود شرعه ، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعه سهل له أمور الدنيا وأجزل له الثواب في الآخرة ، ومن عصاه : ابتلاء بأنواع المحن والبلاء .

(وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ؟) أى واسألهم عن حال أهل تلك القرية حين قالت جماعة منهم هذه المقالة ، وفي ذلك دلالة على أن الذين كانوا يعدون في السبت بعض أهل القرية لاجمعهم وأن أهلها كانوا فرقا ثلاثا :

- (١) فرقة العادين في السبت التي أشير إليها في الآية الأولى .
- (٢) فرقة الواعظين لهؤلاء العادين لينتهوا عن عدوانهم ويكفوا عنه .
- (٣) فرقة اللائمين للواعظين التي قالت لهم : لم تعظون قوما قد قضى الله عليهم بالهلاك بالاستئصال أو بعذاب شديد دون الاستئصال ، أو المراد مهلكهم في الدنيا ومعذبهم في الآخرة .

(قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم ينتقون) أى قال الواعظون للائمين لهم : نعظمكم عظة اعتذار نعتذر بها إلى ربكم عن السكوت على المنكر ، فإذا طولبنا بإقامة فريضة النهي عن المنكر قلنا قد فعلنا فكنون بذلك معذورين - إلى أنا نرجو أن ينتفعوا بالموعظة فيحملهم ذلك على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه ، إذ نحن لم نياس من رجوعهم إلى الحق كما أنتم منهم يائسون .

(فلما نسوا ما ذكروا به) أى إنهم لما تركوا ما ذكروا به الصالحون وأعرضوا عنه حتى صار كالمسئى فى كونه لا تأثير له .

(أنجينا الذين ينهون عن سوء) أى أنجينا الذين ينهون عن العمل السيئ وهما الفريقان الآخرا .

(وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفعلون) أى وأخذنا الذين ظلموا أنفسهم بشديد العذاب بسبب تماديهم فى الفسق حتى صار دينهم وهيارهم .
والخلاصة — إنه لما ذكر المذكرون ولم يتذكر المعتدون أنجينا الأولين وأخذنا الآخرين .

وقد جرت سنة الله ألا يؤاخذ كل ظالم فى الدنيا بكل ما يقع منه من ظلم ولو كان قليلا فى الصفة أو العدد كما يدل على ذلك قوله : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرٍهَا مِنْ ذَابَّةٍ » وقوله : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » ولكنه يؤاخذ الأمم والشعوب فى الدنيا قبل الآخرة بما يقع منها من ظلم يظهر أثره بالاستمرار عليه كما قال : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » كما عاقب الله بنى إسرائيل كافة بتشكيل البابليين ثم النصارى بهم وسلبهم ملكهم حين عم فسقهم ولم يدفع ذلك وجود بعض الصالحين فيهم .

وعلى الجملة فالآية صريحة فى هلاك الظالمين الفاسقين ونجاة الصالحين الذين نهوهم عن عمل سوء وارتكاب المنكر ، وسكت عن الفرقة التى أنكرت على الواعظين وعظهم وإنكارهم ، وهى ناجية أيضا لأنها كانت منكورة للمنكر مستقبحة له بدليل أنها لم تفعله ، وإنما لم تنه عنه لئلا يسأها من فائدة النهى واعتقادها أن القوم قد استحقوا عقاب الله بإصرارهم على الفسق فلا يفيدهم الوعظ وهذا رأى ابن عباس .
(فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى فلما تمردوا وتكبروا وأبوا أن يتركوا ما نهواهم عنه الواعظون قلنا لهم كونوا قردة صاغرين أذلاء بعداء عن الناس : أى تعلقت إرادتنا بأن يكونوا كذلك ..

وفي الآية إيماء إلى أن هذا المسخ لم يكن لخصوص الخوت بل لمخالفتهم الأوامر وتماديهم في العصيان وهذا الجزاء تفصيل للعذاب البئيس الذي في الآية السالفة ، وقيل إنه عذاب آخر فقد عاقبهم الله أولا بالبؤس والشقاء في المعيشة ، إذ من الناس من لا يريه ولا يهذه إلا الشدة والبؤس ، ولما لم يزدحم البؤس إلا عتوا وإصرارا على الفسق والظلم مسخهم الله مسخ خلق وجسم فكانوا قردة على الحقيقة وهذا ما يراه جمهرة العلماء أو مسخ خلق ونفس فكانوا كالقردة في الطيش والشر والإفساد لما تصل إليه أيديهم وهذا رأى مجاهد قال : مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفهم الحق .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا، مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ، وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا، وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ، وَالِدَارُ الْأَخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُعَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

شرح المفردات

قال سيبويه: أذَّن: أعلم، وأذَّن: نادى وصاح للإعلام ومنه «فَإِذْ مُؤَذَّنٌ بَيْنَهُمْ» ومثله تأذَّن، ليبعثن: أى ليسطن، ويسومهم: يذيقهم ويوليهم، وقطعناهم: فرقناهم

أما : أى جماعات ، دون ذلك : أى منحطون عنهم ، وبلوناهم : امتحناهم ،
والحسنات : النعم ، والسيئات : النقم ، والخلف : (بسكون اللام) يستعمل فى الأشرار
(وبالتحريك) فى الأخيار ، والكتاب : التوراة ، والعرض (بالتحريك) متاع
الدنيا وحطامها ، والأدنى : أى الشيء الأدنى والمراد به الدنيا ، ودرسوا ما فيه : أى
قرءوه فهم ذاكرون له ، ويمسكون : أى يتمسكون به ويعملون ، وتتقنا الجبل : أى
رفعناه كما روى عن ابن عباس ، أو زلزلناه وهو مرفوع ، يقال نتق السقاء : إذا هزه
ونفضه ليخرج منه الزبد ، أو اقتلعناه كما هو رأى كثير من العلماء ، والظلة : كل
ما أظلك من سقف بيت أو سماء أو جناح طائر والجمع ظلال وظلال .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى قبائح طائفة من اليهود وذكر عقابهم على ذلك بالمسح
قردة - ذكر هنا أنه كتب على اليهود جميعا الذلة والصغار إلى يوم القيامة عقابا لهم
على أفعالهم ، وهذه سنة الله فى عقاب الأمم التى تفسق عن أمره وتخالف أوامر دينه ،
وهى كما تنطبق على اليهود تنطبق على غيرهم من الأمم التى لا ترعوى عن غيها ، بل
تتمادى فى فجورها وطغيانها وتسير قدما فى غوايتها وضلالها .

الإيضاح

(وإذ تأذن ربك لبيعن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب)
أى واذكر أيها الرسول إذ أعلم ربك هؤلاء القوم مرة إثر أخرى أنه قضى عليهم
فى علمه وفقا لما قام عليه نظام الاجتماع ، ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يوقع بهم
العقاب الشديد على ظلمهم وفسقهم وفسادهم فى الأرض ، والآية بمعنى قوله فى سورة
الإسراء : « وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ
وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا » إلى أن قال : « وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا » أى وإن عدتم بعد عقاب

المرّة الآخرة إلى الإفساد عدنا إلى التعذيب والإذلال ، وقد عادوا فسلط الله عليهم
النصارى فسلبوا ملكهم الذى أقاموه بعد أن نجوا من سبى البابليين وقهرهم
واستذلّاهم - إلى أن جاء الإسلام ، فعاداه منهم الذين هربوا من الذل والنكال ولجئوا
إلى بلاد العرب فعاشوا فيها آمنين أعزاء لكونهم نكثوا العهد الذى أعطوه للنبي صلى
الله عليه وسلم وبه آمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم فنصروا المشركين عليه
فسلطه الله عليهم فقاتلهم ونصره عليهم فأجلى بعضهم وقتل بعضا وأجلى عمر البقية
الباقية منهم إلى سورية ، ولما فتحها انتقل اليهود من حكم الروم الجائر إلى سلطة
الإسلام العادلة ولكنهم فقدوا الملك والاستقلال فى جميع الحالات .

(إن ربك لسريع العقاب) أى إن الله سريع العقاب للأمم التى تفسق عن
أمره وتفسد فى الأرض فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد ، يؤيد
هذا قوله : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا
الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا » أى وإذا أردنا هلاك قرية من القرى أمرنا سادتها
وكبرائها بالحق والعدل والرحمة فعمصوا أمر ربهم وأفسدوا وظلموا فى الأرض فحق
عليهم القول بمقتضى سنته فى خلقه فحل بهم الهلاك وحق بهم النكال جزاء بما
كانوا يعملون .

(وإنه لغفور رحيم) لمن أقبل عن ذنبه وأناب إلى ربه وأصلح ما كان قد أفسد
فى الأرض قبل أن يحل به عذاب الله ، والآية بمعنى قوله : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ
وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » .

وقلما ذكر عذاب الفاسقين إلا قرنه بذكر الرحمة والمغفرة للمحسنين حتى لا يئس
صالح مصلح من رحمة ربه بذنب عمله بجهالة ، ولا يأمن مفسد من عقابه اغترارا بعفوه
وكرمه وهو مصرّ على ذنبه .

وقد فصل سبحانه عقابهم فذكر بدء إذلّاهم بإزالة وحدتهم وتمزيق
جامعتهم فقال :

(وقطعناهم فى الأرض أمتا) أى وفرقنا بنى إسرائيل فى الأرض وجعلنا كل فرقة منهم فى قطر من أقطارها فلا يخلو منهم قطر وليس لهم شوكة ولا دولة ، وهذا من معجزات الكتاب الكريم .

(منهم الصالحون ومنهم دون ذلك) أى منهم الصالحون كالذين نهوا من اعتدوا فى السبت عن ظلمهم ، والذين كانوا يؤمنون بالأنبياء من بعد موسى ، والذين آمنوا بمحمد عليه السلام ، ومنهم من دونهم فى الصلاح لم يبلغوا مبلغهم ، ومن أولئك الغلاة فى الكفر والفسق كالذين كانوا يقتلون النبيين بغير حق ، ومنهم السامعون للكذب الأكالون للسحت والرشا لتبديل الأحكام والقضاء بغير ما أنزل الله كما هو شأن الأمم فإنها تفسد تدريجا لا دفعة واحدة كما نشاهد ذلك فى المسلمين .

(وولوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) أى وامتحانهم واختبرنا استعدادهم بالنعم التى تحسن فى عيونهم وتقربها أفئدتهم ، وبالنقم التى تسوءهم وإن كانت قد تحسن بالصبر عاقبتها لديهم رجاء أن يرجعوا عن ذنبهم وينيبوا إلى ربهم فيعود إليهم فضله ورحمته .

(خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) أى نبئت من أولئك الذين منهم الصالح والطالح نابتة ورثوا التوراة : أى وقفوا على ما فيها وكانوا عالمين بأحكامها بعد أسلافهم والحال أنهم يؤثرون حطام الدنيا ومتاعها بما يأكلونه من السحت والرشا والاتجار بالدين والحجابة فى الحكم ، ويقولون سيغفر لنا ولا يؤاخذنا بما فعلنا فإننا أبناء الله وأحباءه وسلائل أنبيائه وشعبه الذى اصطفاه من سائر البشر إلى نحو ذلك من الأمانى والأضاليل وهم والغفون فى خطاياهم مصرون على ذنوبهم ، فإن يأتهم عرض آخر مثل الذى أخذوه أولا بالباطل يأخذوه ولا يتعففوا عنه - وهم يعلمون أن الله إنما وعد بالمغفرة التائبين الذين يقلعون عن ذنبهم ندما وخوفا من ربهم ويصلحون ما كانوا قد أفسدوا .

ثم رد الله عليهم ما زعموه بقولهم : سيغفر لنا ، وهم مقيمون على ظلمهم وفسادهم وحبهم للدنيا فقال :

(أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ)
أى قد أخذ الله العهد والميثاق عليهم فى كتابه ألا يقولوا عليه غير الحق الذى بينه
فيه ، فمنعهم من تحريفه وتغيير الشرائع لأجل أخذ الرشاهم قد درسوا الكتاب
وفهموا ما فيه فهم ذاكرون لما أخذ عليهم من تحريم أكل أموال الناس بالباطل
والكذب على الله إلى نحو أولئك .

(والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) أى والدار الآخرة وما أعد الله
فيها من نعم للذين يتقون المعاصى ما ظهر منها وما بطن - خير من حطام الدنيا القانى
الذى يؤخذ بالرشا والسحت وغير ذلك ، أفلا تعقلون ذلك وهو واضح لا يخفى على
كل ذى عقل لم تطمسه الشهوات ولم يعم بصيرته حطام الدنيا العاجل ، وبذا يرجع
الخير على الشر والنعم المقيم على المتاع الزائل .

وفى هذا إيماء إلى أن الطمع فى متاع الدنيا هو الذى أفسد على بنى إسرائيل
أمرهم واستحوذ عليهم حب العاجلة فأذهب عنهم رشدهم .

وفى هذا عبرة للمسلمين الذين سرى إليهم كثير من هذا الفساد وغلب عليهم
الطمع وحب الدنيا وعرضها الزائل وهم قد درسوا كتابهم الكريم ، لكن التحلى
بلقب الإسلام والتعلل بأمانى المغفرة مع الإصرار على الذنوب اتكالا على الشفاعات
والمكفرات - هو الذى غرهم وجعلهم يتأدون فى غيرهم ، وكتابهم ينهاهم عن الأمانى
والأوهام وكون الشفاعاة لا تنفع إلا بإذن الله لمن رضى عنه كما قال : « وَلَا يَشْفَعُونَ
إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْفَعَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ » .

(والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضيق أجر المصالحين) أى
والذين يستمسكون بأوامر الكتاب ويعتصمون بحبله فى جميع شئونهم ، ويطعمون

الصلاة التي هي عماد الدين وركن منه متين كعبد الله بن سلام وأصحابه لا نضيع أجرهم لأنهم قد أصلحوا أعمالهم والله لا يضيع أجر المصلحين ، وهي بمعنى قوله : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » .

ثم ختم سبحانه هذه القصة مذكرا ببداية حالهم في إنزال الكتاب عليهم عقب بيان بخالفاتهم لأمر دينهم والخروج عنه فقال :

(وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم) أى واذكر أيها الرسول إذ رفعنا جبل الطور فوقهم كما روى عن ابن عباس أو اقتلعناه وجعلناه فوقهم كأنه غمامة وأيقنوا أنهم إن خالفوا أوامر دينهم وقع لاحتماله عليهم .

ذاك أنه أخذ عليهم الميثاق ليأخذن الشريعة بقوة وعزم فخالفوا الميثاق فرفع فوقهم الطور وأوقع في قلوبهم الرعب وخوف وقوعه بهم ، فخر كل واحد منهم ساجدا لربه وقبل العمل بالميثاق ، روى أن بنى إسرائيل أبوا أن يقبلوا التوراة ، فرفع الجبل فوقهم وقيل لهم إن قبلتم العمل بها وإلا ليقعن عليكم فوقع كل منهم ساجدا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من سقوطه ، فلذلك لا ترى يهوديا يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة حين امتثلنا ما أمرنا به اهـ .

وفي الآية تعريض بأنهم إذا كانت حالهم في مبدأ أمرهم بمخالفتهم لكتابها ما عرفت - فلا عجب إذا آل أمرهم إلى ترك العمل به بعد طول الأمد وقساوة القلوب والأنس بالمعاصي والذنوب .

(خذوا ما آتيناكم بقوة) أى وقلنا لهم في هذه الحال : خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بعزم واحتمال المشاق والتكاليف .

(واذكروا ما فيه لعلمكم تتقون) أى واذكروا ما فيه من الأوامر والنواهي فإن ذلك يبعدكم للتقوى ويجعلها مرجوة لكم ، فإن قوة العزيمة في إقامة الدين تركي

النفوس وتهذب الأخلاق ، كما أن التهاون فيها يفسد طبيعتها ويغريها على اتباع الشهوات
« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا
كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا
ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ
الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) .

شرح المفردات

الظهور : واحداها ظهر ، وهو ما فيه العمود الفقري لهيكل الإنسان الذي هو قوام
بنيته فيصح أن يعبر به عن جملة الجسد ، والذرية : سلالة الإنسان من الذكور
والإناث ، والشهادة تارة تكون قولية كما قال : « قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا » الآية
وتارة تكون حالية كما قال : « مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ
عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ » أى حالهم شاهد عليهم بذلك ، لا أنهم قائلون بذلك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه هدايته للبشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب فى قصة بنى
إسرائيل - قفى على ذلك بذكر هدايته لهم بما أودع فى فطرتهم وركب فى عقولهم من
الاستعداد للإيمان به وتوحيده وشكره منذ النشأة الأولى - فهو سبحانه بعد أن
أظهر تهادى هؤلاء اليهود فى النفى بعد أخذ الميثاق الخاص الذى دل عليه قوله :
(وَإِذْ نَقَّضْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ) وقوله : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا

فَوْقَكُمْ الطُّورَ » ذكر هنا أنهم تقضوا أيضا الميثاق العام الذى أخذه على بنى آدم جميعا وهم فى صلب آدم وأشركوا بالله وقالوا : عزير ابن الله .

الإيضاح

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا) أى واذا ذكر أيها الرسول للناس كافة ما أخذه الله من ميثاق الفطرة على البشر عامة إذا استخرج من بنى آدم ذريتهم بطنا إثر بطن ، وخلقههم على فطرة الإسلام بما أودع فى قلوبهم من غريزة الإيمان اليقينية بأن كل فعل لا بد له من فاعل وأن فوق كل العوالم القائمة على سنة الأسباب والمسببات سلطانا أعلى على جميع الكائنات هو المستحق للعبادة وحده ، وأشهد كل واحد من هؤلاء الذرية الحادثة جيلا بعد جيل على نفسه بما أودعه فى غريزته واستعداده قائلا لهم قول إرادة وتكوين لا قول وحى وتبليغ : ألست بربكم ؟ فقالوا بلسان الحال لا بلسان المقال : بلى أنت ربنا المستحق وحدك للعبادة ، فالكلام من قبيل التمثيل وله نظائر فى القرآن الكريم وأساليب العرب كقوله تعالى بعد ذكر خلق السماء : « فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » وقوله : « إِنَّمَا أَمْرُنَا لِيَشَاءَ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقول بعض العرب : قال الجدار لو تدد لم تشقى ؟ قال سل من يدقنى ، فإن الذى ورأى ، ما خلا لى ورأى : أى رأى .

وقال ابن كثير فى تفسير الآية : يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم وأنه لا إله الا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه ، قال تعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ » وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة »

وفي رواية : « على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ؟ وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » اه .

وقال ابن القيم في كتاب الروح في سياق البحث في خلق الأرواح قبل الأجساد ما خلاصته : إن الله سبحانه استخرج صور البشر وأمثالهم ، فميز شقيهم وسعيدهم ومعافاهم من مبتلاهم والآثار متظاهرة به مرفوعة ، وإن الله أقام عليهم الحجة حينئذ وأشهدهم بربوبيته واستشهد عليهم ملائكته كما تدل على ذلك الآية .

قال أبو إسحق : جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال النذر التي أخرجها فهماً تعقل به كما قال : « قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير . وقال ابن الأنباري : مذهب أهل الحديث وكبراء العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاّب أولاده وهم في صورة النذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون له ، فاعترفوا بذلك وفعلوا ، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبل عقلا حين خوطب ، وكما فعل بالبعير لما سجد ، وبالنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت اه .

وقال الحسن بن يحيى الجرجاني : إنه سبحانه قد أثبت الحجة على كل منفوس ممن يبلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذي أخذه عليهم ، وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التي نصبها في نفسه وفي العالم وبالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين ، وبالمواعظ بالمثلثات المنقولة إليهم أخبارها ، غير أنه عز وجل لا يطالب أحدا منهم بالطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحجة وركب فيهم من القدرة وآتاهم من الأدلة ، وبين سبحانه ما هو عامل في البالغين الذين أدرکوا الأمر والنهي ، وحجب عنا علم ما قدره في غير البالغين ، إلا أنا نعم أنه عدل لا يمحور في حكمه ، وحكيم

لا تفاوت في صنعه ، وقادر لا يسأل عما يفعل ، له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين اه .

ثم بين سبحانه سبب هذا الإشهاد وعلته فقال :

(أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) أى إنا فعلنا هذا منعا لاعتذاركم يوم القيامة ، بأن تقولوا إذا أشركتم إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين ، إذ لم ينبهنا إليه منبه ، ومآل هذا أنه لا يقبل منهم الاعتذار بالجهل لأنهم نبهوا بنصب الأدلة وجعلوا مستعدين لتحقيق الحق وإبعاد الشرك عن قلوبهم .

(أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أى أو تقولوا في ذلك اليوم : إن آبائنا اخترعوا الإشراك وسنوه من قبل زماننا وكنا جاهلين ببطلان شركهم ، فلم يسعنا إلا الاقتداء بهم ولم نهتد إلى التوحيد ، أفنتواخذنا قتهلكنا اليوم بالعذاب بما فعله المبطلون من آبائنا المضلين ، فتجعل عذابنا كعذابهم ، مع عذرنا بتحسين الظن بهم ؟ .

والخلاصة — إن الله لا يقبل منهم الاعتذار بتقليد الآباء والأجداد إذ التقليد عند قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها مما لا يركن إليه ولا ينبغي لعاقل أن يلجأ إليه ، كما أن الاعتذار بالجهل بعد ما أقام عليهم من البينات القطرية والعقلية مما لا يقبل .

(وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون) أى ومثل ذلك التفصيل المستتبع للمنافع الجليلة — نفصل لبنى آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم في التبصر فيها والتدبر في أمرها ، لعلمهم يرجعون بها عن جهلهم وتقليد آبائهم وأجدادهم .

وفي الآية إيماء إلى أن من لم تبلغه بعثة رسول لا يعذر يوم القيامة في الشرك بالله تعالى ولا بفعل الفواحش والموبقات التي تنفر منها الفطر السليمة وتدرك ضررها العقول الحصيفة ، بل يعذرون بمخالفة هداية الرسل فيما شأنه ألا يعرف إلا منهم وهو

تفاصيل العبادات وعالم الغيب وما سيكون في اليوم الآخر من أحوال العاصين وشئون النبيين والصادقين من عقاب وثواب وكنه ذلك على الحقيقة .

وَأَنزَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَلَاهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ (١٧٧) .

شرح المفردات

التلاوة : القراءة ، والنبا : الخبر الذي له شأن ، وانسلخه منها : كفره بها . ونبذه لها من وراء ظهره ، ويقال لكل من فارق شيئا بحيث لا يتحدث عنه نفسه بالرجوع إليه : انسلخ منه ، وأتبعه : أدركه ولحقه ، قال الجوهرى يقال أتبعته القوم إذا سبقوك فلاحقهم ، ومن الغاوين : أى الراسخين فى الغواية بعد أن كان مهتديا ، أخلد إلى الأرض : أى ركن إلى الدنيا ومال إليها واللهث (بالفتح) واللهث (بالضم) التنفس الشديد مع إخراج اللسان ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو من العطش والكلب فى كل حال سواء أصابه ذلك أم لا ، وتحمل عليه : أى تشد عليه . وتطرده ، وساء الشيء : يسوء فهو سىء إذا قبح ، وساء يسوء مساءة ، والمثل : الصفة :

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تقدست أسمائهم أخذ العهد والميثاق على بنى آدم جميعا وأشهدهم على أنفسهم بأن الله ربهم لا يكون لهم العذر يوم القيامة فى الإشراك بالله جهلا

أو تقليداً - قفى على ذلك بضرب المثل للمكذبين بآياته المنزلة على رسوله بعد أن أيدھا بالأدلة العتلية والكونية ، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالما بها قادرا على بيانها والجدل بها لكنه لم يؤت العمل مع العلم بل كان عمله مخالفا لعلمه ، فسلبها لأن العلم الذى لا يعمل به لا يلبث أن يزول فأشبه الحية تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض .

الإيضاح

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) أى واتل على اليهود ذلك النبأ العجيب ، نبأ ذلك الذى آتيناه حجج التوحيد وأفهمناه أدلته حتى صار عالما بها فانسلخ منها وتركها وراءه ظهريا ولم يلتفت إليها ليهتدى بها ، وفى التعبير بالإسلاخ إيحاء إلى أنه كان متمكنا منها ظاهرا لا باطنا .

(فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) أى وبعد أن انسلاخ منها باختياره لحقه الشيطان فأدركه وتمكن من الوسوسة له إذ لم يبق لديه من نور البصيرة ولا أمارات الهداية ما يحول بينه وبين قبول وسوسته وسلوك فهمه ، فصار من الضالين المفسدين .
والخلاصة - إنه أوتى الهدى فانسلخ منه إلى الضلال ومال إلى الدنيا فتلاعب به الشيطان وكانت عاقبته البوار والخذلان وخاب فى الآخرة والأولى .

وفى الآية عبرة وموعظة للمؤمنين وتحذير لهم من اتباع أهوائهم حتى لا ينزلقوا فى مثل تلك الهوة التى انزلق إليها صاحب المثل بحبه للدنيا وركونه إلى شهواتها ولذاتها .
(ولو شئنا لرفعناه بها) أى ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات والعمل بها إلى درجات الكمال والعرفان لفعلنا بأن نخلق له الهداية خلقا ونزعمه العمل بها طوعا أو كرها إذ لا يعجزنا ذلك ولكنه مخالف لسننتنا .

(ولكنه أخذ إلى الأرض وتابع هواه) أى ولكنه ركن إلى الدنيا ومال إليها وجعل كل خطة من حياته التمتع من لذائذها الجسدية ، ولم يوجه إلى الحياة الروحية عزما ، وركب رأسه فلم يراع الاهتداء بشيء مما آتينا من آياتنا .

وقد قضت سنة الله في الإنسان أن يجعله مختارا في عمله المستعد له على حسب فطرته ليكون جزاؤه كفاء ما قدمت يده من خير أو شر ، وأن يتحنن بما خلق في هذه الأرض من زينة ومنتعة كما قال : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » ثم يولى كل امرئ منهم وجهة هو موليا فيختار منها ناحية على حسب استعدادده وميله الفطرى كما قال : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » كما مضت سنته أيضا بأن جعل ميل الإنسان مع شهواته في جميع أعماله دون رعاية للفائدة يضلّه عن السبيل الموصلة إلى السعادة الأخروية وينحرف به إلى سبل الغواية المردية في التهلكة كما قال تعالى مخاطبا داود عليه السلام : « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » وقال مخاطبا خاتم أنبيائه : « أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا » .

وخلاصة ذلك — إن من شأن من يؤتى الآيات أن تسمو نفسه وتصد في سلم الكمال لما فيها من الهداية إلى سبيل الخير الحاضرة على عمل النافع وما فيه فائدة روحية له ، على شريطة أن يتلقاها بعزيمة ونية صادقة كما جاء في الحديث : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » .

أما من تلقاها بغير قصد أو بنية كسب المال والجاه وفي نفسه ما يصرفه عنها فلن يستفيد منها شيئا وسرعان ما ينسلخ منها .

(فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) أى إن هذا الرجل كالكلب فى صفته هذه وهى أقبح حالاته وأخسبها ، فهو لإخلاقه وميله إلى الدنيا واتباعه هواه يكون كذلك فى أسوأ حال ، فهو فى هم دائب وشغل شاغل فى عرض الدنيا وزخرفها ، يُعنى بنحسب أمورها وجلبها كشأن عبّاد الأهواء وطلاب الأموال ترى المرء منهم كاللاهث من الإعياء والتعب وإن كان ما يعنى به حقيرا لا يتعب ولا يعي ، وتراه كلما أصاب سعة وبسطة فى الدنيا زاد طمعا فيها كما قال الأول :

فما قضى أحد منها لبائته ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

(ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى ذلك المثل البالغ الحد فى الغرابة مثل هؤلاء القوم الذين جحدوا بآياتنا واستكبروا عنها جهلا بها وتقليدا للآباء والأجداد ، فهم قد ظنوا أن إيمانهم بها يسلبهم العزة ويحط من أقدارهم ويحول بينهم وبين ما يتمتعون به من اللذات ، فكان ذلك حجابا حائلا بينهم وبين النظر فيها نظر تبصر واستدلال ، وإن كانوا نظروا إليها من تلك الناحية التى تروق لهم وهى : حرمانهم من التمتع بالخطوط والشهوات ، إلى ما فيها من الاعتراف بضلال السلف من الآباء والأجداد فما أشبه حالهم بحال من أوتى الآيات فانسأخ منها وذاك ليس بعيب فيها بل العيب عليه باتباعه هواه الذى حرمة من الانتفاع بها .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر القمّ طعم الماء من سقمّ

(فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) أى فاقصص أيها الرسول الكريم قصص ذلك الرجل الذى تشبه حاله حال أولئك المكذبين بما جئت به من الآيات البينات رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم وقبح مثلهم على إطالة التأمل والتفكر فى المخلص مما هم فيه ، والنظر فى الآيات بعين البصيرة لابعين الهوى والعداوة .

وفى الآية إيماء إلى تعظيم ضرب شأن تلك الأمثال فى الإقناع وكونها أقوى أثرا

من سوق الحجيج والأدلة ذون أن تكون هي من بينها - كما أن فيها رمزا إلى تعظيم شأن التفكير وأنه مبدأ العلم والسبيل للوصول إلى الحق ، ومن ثم حث الله عليه في مواضع كثيرة من كتابه كقوله : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» وقوله : «كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» .

(ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظالمون) أى قبحت صفة أولئك القوم في الصفات ، وساء مثلهم في الأمثال بإعراضهم عن التفكير في الآيات والنظر إليها نظر عداوة و بغضاء ، وهم بعملهم هذا إنما يظالمون أنفسهم وحدها بحرمانها من الاهتداء بها وجعلها السبيل الموصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

ولم يعين الكتاب الكريم اسم من ضرب به المثل ولا جنسه ولا وطنه ولا جاء في السنة الصحيحة شىء من ذلك ، فلا حاجة لنا في العظة إلى بيانه .
ولرواة التفسير بالمأثور روايات كثيرة في شأنه .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو رجل يدعى بلعم من أهل اليمن آتاه الله آياته فتركها ، وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو أنه هو أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وفي لفظ تزلت في صاحبكم أمية بن أبي الصلت ، وأخرج ابن عساكر عن ابن شهاب قال : قال أمية بن أبي الصلت :

ألا رسول لنا منا يخبرنا ما بعد غايتنا من رأس نجرانا

قال : ثم خرج إلى البحرين وتنبا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام أمية بالبحرين ثمانين سنين ، ثم قدم فلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من أصحابه فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه (بسم الله الرحمن الرحيم . يس . والقرآن الحكيم) حتى فرغ منها فوثب أمية يجر رجله فتبعته قريش تقول : ما تقول يا أمية ؟ قال : أشهد إنه على الحق ، قالوا فهل تتبعه ؟ قال : حتى أنظر في أمره ، فخرج أمية إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بقتلى بدر ترك الإسلام ورجع

إلى الطائف فمات بها ، قال فقيه أنزل الله : (وائل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الشعبي فى هذه الآية : (وائل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال : قال ابن عباس هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء ، وكانت الأنصار تقول هو ابن الراهب الذى بنى له مسجد الشقاق ، وكانت ثقيف تقول هو أمية بن أبى الصلت .

وذكر البستانى فى دائرة المعارف العربية ملخص قصة بلعام ثم قال : وبعض مفسرى الكتاب المقدس المدققين ذهب إلى أن قصة بلعام المدرجة فى سفر العدد من الإصحاح ٢٢ — ٢٤ دخيلة ، وعلى الجملة فهذه الروايات الإسرائيلية لا يعتد بها كما لم يعتد بها ابن جرير .

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)
وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ،
وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ
بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) .

شرح المفردات

الذرة : لغة الخلق ، يقال ذرأ الله الخلق أى أوجد أشخاصهم ، والخلق : التقدير أى إيجاد الأشياء بتقدير ونظام لاجزافا ، والجن : الأحياء العاقلة المكلفة الخفية غير المدركة بالحواس ، والقلب : يطلق أحيانا على المضغة الصنوبرية الشكل فى الجانب الأيسر من جسد الإنسان - وأحيانا على العقل والوجدان الروحى الذى يسمونه أحيانا : (بالضمير) وهو محل الحكم فى أنواع المدركات والشعور الوجدانى لما يلائم

أَوْ يُولَمْ وَهُوَ كَثِيرٌ بِهَذَا الْمَعْنَى فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ: «سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ». «قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ». «أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ».

وسر استعمال القلب في هذا المعنى ما يراه الإنسان من انقباض أو انشراح حين الخوف والاشمئزاز أو حين السرور والابتهاج ، والفقه: العلم بالشئ والفهم له ، وفسره الراغب بالتوصل بعلم شاهد إلى علم غائب ، وقد استعمله القرآن في مواضع كثيرة بمعنى دقة الفهم والتعمق في العلم ليترتب عليه أثره وهو الانتفاع به ومن ثم نفاه عن الكفار والمنافقين لأنهم لم يدركوا كنهه المراد مما نفى فقهه عنهم ففاتهم المنفعة مع العلم المتمكن من النفس .

المعنى الجملي

بعد أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقص قصص المنسلخ عن آيات الله على أولئك الضالين الذين حالهم كحاله ليتفكروا فيه ويتركوا ما هم عليه من الإخلاد إلى الضلالة ويعودوا إلى حظيرة الحق - تقي على ذلك ببيان أن أسباب الهدى والضلال ينتهيان للمستعد لأحدهما إلى إحدى الغائتين بتقدير الله والسير على سنته في استعمال مواهبه وهداياته القطرية من العقل والحواس في أحد السبيلين كما قال: «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ». «فَإِمَّا شَاكَرًا وَإِمَّا كَفُورًا».

الإيضاح

(من يهد الله فهو المهتدى) أى من يوفقه الله لسلوك سبل الهداية باستعماله عقله وحواسه فيما خلق له بمقتضى الفطرة وإرشاد الدين فهو المهتدى الذى شكر نعم الله عليه وأدى حقه عليه ففاز بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

(ومن يضل فاولئك هم الخاسرون) أى ومن يخذله ويحرمه التوفيق فيتبع شيطانه وهواه ويترك استعمال عقله وحواسه فى فقه آيات الله وشكر ما أنعم به عليه ، فهو الكفور الضال الذى خسر سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، إذ هو قد خسر تلك المواهب التى كان بها إنسانا مستعدا للسعادتين الدنيوية والأخروية .

ولا شك أن الهداية الإلهية نوع واحد وهو الإيمان الذى ثمرته العمل الصالح ، أما أنواع الضلال فلا حصر لها ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

ثم فصل سبحانه ما أجمله فى الآية السابقة مع بيان سببه فقال :
(ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس) أى نقسم إنا قد خلقنا فى العالم كثيرا من الجن والإنس لسكنى جهنم والمقام فيها ، وخلقنا للجنة مثل ذلك بمقتضى استعداد الفريقين كما قال : « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » وقال : « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » .

ثم بين سبب كونهم معدّين لجهنم وصفاتهم المؤهلة لذلك فقال :
(لهم قلوب لا يفقهون بها) أى إنهم لا يفقهون بقلوبهم ما تركى به أنفسهم من توحيد الله المبعدها عن الخرافات والأوهام وعن الذلة والصغار ، فإن من يعبد الله وحده تسمو نفسه بمعرفته فلا تذلل بدعاء غيره ولا الخوف منه ولا الرجاء فيه والاتكال عليه ، بل يطلب من الله ما يحتاج إليه ، فإن كان مما أقدر الله عليه خلقه بإعلامهم بأسبابه وتمكينهم منها طلبه بسببه مع مراعاة سننه فى خلقه ، وإن لم يكن كذلك توجه إلى الله هدايته إلى العلم بما لم يعلم من سببه وإقداره على ما يقدر عليه من وسائله أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه كالأطباء لمداداة الأمراض وأقوياء الأبدان لرفع الأثقال والعلماء الراسخين للفتوى فى المسائل العلمية وحل إشكال ما غمض من حقيقتها ولا يتوجه فى طلبه إلى غير ما يعرف البشر من الأسباب المطردة

كالرقى والعزائم والتبخيرات وكرامات الصالحين من الأحياء والأموات والدعاء إليهم بما يعد من العبادات فالله يقول : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » ويقول : « بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَتَسَوَّنَ مَا تُشْرِكُونَ » .

كما لا يفقهون بقلوبهم الحياة الروحية واللذات المعنوية الموصلة إلى السعادة الأبدية : « يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » .
ولا يفقهون أن ترك الشرور والمنكرات والحرص على فعل الخيرات هو مناط السعادة في الدنيا والآخرة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتربية البدنية الصحيحة .

ولا يفقهون سنن الله في الاجتماع وتأثير العقائد الدينية في جمع الكلمة وقوة الجماعة ولا سيما في عهد النبوات وزمن المعجزات ، ولا يفقهون معنى الآيات الإلهية في الأنفس والآفاق ولا آياته التي يؤيد بها رسله من علمية وكونية وما أودعه منها كتابه .
(ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) أى وكذلك لهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكير فيما يرون من آيات الله في خلقه ، وفيما يسمعون من آياته المنزلة على رسله ومن أخبار التاريخ الدالة على سنته تعالى في خلقه ، فيهتدوا بكل منها إلى مافيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم .

فالآذان إنما خلقت للإنسان ليستفيد من كل ما يسمع ، والأبصار خلقت لينتفع بكل ما يبصر ، وإنما يكون ذلك بتوجيه الإرادة إلى استعمال كل منهما فيما خلق له كما قال تعالى : « أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ » .

ولكن المسلمين وأسفا أصبحوا أشد الناس إهمالا لاستعمال أسماعهم وأبصارهم

وأفندتهم فى النظر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ، وصاروا أجهل الشعوب بالعلوم التى تعرف بها آياته فى مشاعر الإنسان وانفعالاته النفسية وقواه العقلية ، وآياته فى الحيوانات والنبات والجناد والهواء والماء والبخار وسنن النور والكهرباء والعلوم الفلكية .

ومن أصاب منهم حظا من معرفتها فإنما يعرفها للارتفاع بها فى الحياة الدنيا من غير مراعاة أنها آيات دالة على أن لها رباً خالقاً مدبراً علماً قديراً رحماً يجب أن يعبد وحده وأن يُخشى ويُحب فوق كل أحد ، وأن تكون معرفته منتهى كل غاية من هذه الحياة .

(أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون) أى أولئك الذين اتصفوا بما ذكر من الصفات : كالأنعام من إبل وبقر وغنم ، فهم لاحظ لهم من عقولهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمعيشتهم فى هذه الحياة ، بل هم أضل سبيلاً منها ، إذ هذه لا تجبى على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية فى أكلها وشربها وجميع حاجاتها ، لكن عبيد الشهوات يسرفون فى كل ذلك إسرافاً عظيماً قد تتولد منه الأمراض الكثيرة كما قد يجاهدون هذه الشهوات جهاداً يفرطون فيه بحقوق البدن فلا يعطونه ما يكفيه من الغذاء أو يقصرون فى الحقوق الزوجية فيجنون على أشخاصهم أو على النوع بالتفريط كما يجنى عليهما عبيد الشهوات بالإفراط ، وهداية الإسلام تحظر هذا وذلك وتوجب الأكل من الطيبات بشرط عدم الإسراف ، ولو سلك الناس مسلك الاهتداء بالقرآن فى فهم أسرار الخلق ومعرفة منافعه لاستفادوا السعادة فى معاشهم والاستعداد لمعادهم ، وأولئك هم الغافلون عما فيه صلاحهم فى الحياتين . وهم فى الغفلة على درجات ، فمنهم الغافلون عن آيات الله فى الأنفس والآفاق التى تهدى العبد إلى معرفة ربه ، والغافلون عن استعمال مشاعرهم وعقولهم فى أفضل ما خلقت لأجله ، والغافلون عن ضروريات حياتهم الشخصية والقومية والدينية .

والخلاصة — إن أهل النار هم الأغبياء الجاهلون الغافلون الذين لا يستعملون عقولهم في فقه حقائق الأمور وأبصارهم وأسماعهم في استنباط المعارف واستفادة العلوم ، ولا في معرفة آيات الله الكونية وآياته التنزيلية ، وهما سبب كمال الإيمان والبعث النفسى على كمال الإسلام .

وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) .

شرح المفردات

الأسماء : واحدها اسم ، وهو اللفظ الدال على الذات أو عليها مع صفة من صفاتها ، والحسنى : مؤنث الأحسن ، فادعوه بها : أى سمّوه ونادوه بها للثناء عليه أو للسؤال وطلب الحاجات ، وذروا : اتركوا ، والإلحاد : الميل عن الوسط حساً أو معنى ، والأول هو الأصل فيه ، ومنه لحد القبر : وهو ما يحفر في جانب القبر مائلاً عن وسطه ، وألحد السهم الهدف : أى مال في أحد جانبيه ولم يصب وسطه ، ومن الثانى ألحد فلان : مال عن الحق ، سيجزون : أى سيلقون جزاء عملهم .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله في الآية السالفة أن المخلوقين لهم لم يستعملوا عقولهم ومشاعرهم في الاعتبار بالآيات والتفقه في تركيبة أنفسهم بالعلم النافع ، فأورثهم ذلك الإهمال الغفلة التامة عن صلاح أنفسهم بذكر الله وشكره والثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال — قفى على ذلك بذكر البواء لتلك الغفلة والوسائل التى تخرج إلى ضدها وهى ذكر الله ودعاؤه فى السر والعلن بكرة وعشيا .

الإيضاح

(ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) أى والله دون غيره جميع الأسماء الدالة على أحسن المعانى وأكمل الصفات فاذكروه ونادوه إما لجرد الثناء نحو : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » ونحو : هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم » وإما لدى السؤال وطلب الحاجات .

وللذكر فوائد : منها تغذية الإيمان ومراقبة الله تعالى والخشوع له والرغبة فيما عنده واحتتار آلام الدنيا وقلة المبالاة بما يفوت المؤمن من نعيمها ، ومن ثم جاء فى الحديث « من نزل به غمّ أو كرب أو أمر مهمّ فليقل : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم » رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

وروى الحاكم فى المستدرک عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة : « ما يمنعك أن تسمى ما أوصيك به ؟ أن تقولى إذا أصبحت وإذا أمسيت : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » .

وأسماء الله كثيرة ، وكلها حسنى لدلالة كل منها على منتهى كمال معناه وتفضيلها على ما يطلق منها على المخلوقين : كالرحيم والحكيم والحفيظ والعليم .

وروى الشيخان من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة » وفى رواية له : « إن لله تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة ، وإن الله وتر يحب الوتر » وقد سرد الأسماء التسعة والتسعين الترمذى والحاكم من طريق الوليد بن مسلم قال :

هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط

الحافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم
 الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب
 الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولى الحميد
 المحصى المبدئ المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر
 المقدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعال البر التواب المنتقم العفو
 الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع
 النور الهادى البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور .

وقد اختلف المحدثون فى سرد هذه الأسماء هل هو مرفوع أو مُدرج فى الحديث
 من بعض الرواة ؟ والثانى هو الراجح ، ولم يخرجْه الشيخان لتفرد الوليد به واحتمال
 الإدراج كما قاله الحافظ ابن حجر فى الفتح .

(وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) أى ادعوه أيها المؤمنون واتركوا جميع الذين
 يلحدون فى أسمائه بالميل بألفاظها أو معانيها عن نهج الحق الوسط إلى متفرق السبل
 من تحريف أو تأويل أو شرك أو تكذيب أو زيادة أو نقصان أو ما ينافى وصفها
 بالحسنى كأن يوصف بما لا يصح وصفه به أو تتأول أو صافه على ما لا يليق به .

ثم بين العلة فى تركهم فى خوضهم يلعبون فقال :

(سيجزون ما كانوا يعملون) أى لأنهم سيقنون جزاء عملهم وتحل بهم العقوبة
 فى الدنيا قبل الآخرة ، فاجتنبوا إلحادهم كيلا يصيبكم مثل ما يصيبهم .

والإلحاد ضربان : إلحاد إلى الشرك بالله وهو ينافى الإيمان ويبطله ، وإلحاد إلى
 الشرك بالأسباب كأن ينظر إليها مع الغفلة عن كونها من خلق الله وتسخيره أو يعتقد
 أنها مؤثرة بذاتها لا بفعله تعالى ، وهذا يوهن عرا الإيمان ولا يبطله .

والخلاصة — إن الإلحاد فى أسمائه الحسنى أقسام :

(١) تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه فى كتابه أو ما صح من حديث رسوله

صلى الله عليه وسلم ، فقد اتفق أهل الحق على أن أسمائه وصفاته تعالى توقيفية : أى تحتاج إلى إذن من الشارع لصحة إطلاقها عليه تعالى ، وكل ما ورد فى الكتاب والأحاديث الصحيحة دعاء ووصفا له وإخبارا عنه يصح إثباته له ويمنع كل ما دلت على منعه ، قال فى الكشف كقول أهل البدو : يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه ، ياسخى .

(٢) ترك تسميته بما سمى به نفسه أو وصفه بما وصفها به أو ترك إسناد ما أسنده تعالى إلى نفسه من الأفعال بناء على أن ذلك لا يليق به تعالى أو أنه يوم نقصا فى حقه ، كأن هؤلاء الملحدون أعلم منه ومن رسوله صلى الله عليه وسلم بما يليق به وما لا يليق .

(٣) تغيير أسمائه لوضعها لغيره مما عبد من دونه كاللوات والعزى .

(٤) تحريف أسمائه وصفاته تعالى عما وضعت له بضرب من التأويل ، فقد ذهب جماعة من المسلمين إلى جعل الرب القدوس الذى ليس كمثل شئ - كرجل من خلقه لأنه تعالى وصف نفسه بصفات يدل مجموعها على ذلك : كالسمع والبصر والكلام والوجه واليد والرجل والضحك والرضا والغضب ، وذهب آخرون إلى تأويل جميع صفاته تعالى حتى جعلوها كالعدم .

(٥) إشراك غيره فيما هو خاص به من أسمائه باللفظ كاسم الجلالة (الله) والرحمن ورب العالمين ، وما فى معناه كرب السماء والأرض أو رب الكعبة أو رب البيت (الكعبة) كما قال : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » .

(٦) إشراك غيره فى كمال أسمائه كمن يزعم أو يعتقد أن لغيره رحمة كرحمته ورأفة كرافته وغير ذلك من معانى أسمائه كالحيب مثلا كما قال تعالى : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » .

و بعض الذين يدعون غير الله تعالى من الموتى يعتقدون أنهم أسرع وأقرب فى إجابتهم من الله تعالى فيجتمعون بذلك بين شركين : شرك دعاء غير الله مع اعتقاد

إجابته للدعاء ، وشرك الكفر به بتفضيل غيره عليه سبحانه في سرعة الإجابة مع
 أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : « أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ الشُّوْءَ وَيَجْعَلُكُمْ
 خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ » أى لا يجيب المضطر إلا هو فهو المستحق وحده للعبادة .

وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَبُوا
 بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ
 كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ
 إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ
 حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي
 طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) .

شرح المفردات

الاستدراج مأخوذ : إما من درج الكتاب والثوب وأدرجه : إذا طواه ،
 وإما من الدرجة وهى المرقاة ، فعلى الأول سنستدرجهم : أى سنطويهم طي الكتاب
 ونغفل أمرهم كما قال : « وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » وعلى الثانى
 سنأخذهم درجة بعد درجة بإدنائهم من العذاب شيئاً فشيئاً كالمراق والمنازل فى ارتقاها
 ونزولها ، والإملاء : الإمداد فى الزمن والإمهال والتأخير من الملوء والملاوة ، وهى الطائفة
 الطويلة من الزمن ، والمألان : الليل والنهار ، والكيد كالمكر : هو التدبير الذى
 يقصد به غير ظاهره بحيث ينخدع المكيد بمظهره فلا يفتن له حتى ينتهى إلى
 ما يسوءه ، وأكثره احتمال مذموم ، ومنه ما هو محمود يقصد به المصلحة : ككيد

يوسف لأخذ أخيه الشقيق من إخوته لأبيه برضاهم ومقتضى شريعتهم ، والمتين :
القوى الشديد ، والجنة (بالكسر) نوع من الجنون ، والإنذار : التعليم والإرشاد
المقترن بالتخويف من مخالفته ، والملكوت : الملك العظيم ، وملكوت السموات
والأرض : مجموع العالم ، والحديث : كلام الله وهو القرآن ، والطفيان : تجاوز الحد
في الباطل والشر من الكفر والفجور والظلم ، والعمء : التردد في الحيرة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه ذرأً للجهنم كثيراً من الثقلين : الجن والإنس وأبان أهم
أسباب ذلك ، وهى أن هؤلاء أفسدوا فطرتهم بإهمال مواهبهم من العقل والحواس ،
ثم أرشدنا إلى ما يصلح الفطرة من دعائه بأسمائه الحسنى ، قفى على ذلك ببيان وصف
أمة الإجابة ، وثنى بذكر المكذبين من أمة الدعوة ، وثلت بتفنيد ما عرض لهم من
الشبهة ، ثم أرشد إلى التفكير الموصول إلى الفقه فى الأمور ومعرفة الحقائق ، وإلى
النظر الهادى إلى الحجة ، والبرهان الموصول إلى معرفة صدق الرسول ، ثم ختمها ببيان
عدم الطمع فى هداية من قضت سنة الله بضالاه وتركه يعمه فى طغيانه .

الإيضاح

(ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) أى وبعض ممن خلقنا جماعة كبيرة
مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة ، يهدون بالحق ويدلون الناس على الاستقامة ،
وبالحق يحكمون فى الحكومات التى تجرى بينهم ولا ينجسونها ، فسيذلهم واحدة لأن
الحق واحد لا يتعدد ، وهؤلاء هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله تعالى : « ومن
خلقنا أمة يهدون بالحق » قال : ذكر لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : هذه
أمتى ، بالحق يحكمون ويقضون ، ويأخذون ويعطون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فيها قال : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأها : وهذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) .

وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال : لتتفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة ، يقول الله (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فهذه هي التي تنجو من هذه الأمة اهـ .

(والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) أي والذين كذبوا بآيات الله سندعهم يسترسلون في غيهم وضلالهم ولا يدرون شيئا من عاقبة أمرهم ، لجهلهم سنن الله في المنازعة بين الحق والباطل وأن الحق يدفع الباطل ، وما ينفع الناس يتغلب على ما يضرهم كما قال تعالى : « بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » وقال : « فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

وقد صدق الله وعده فقد كان كفار قریش وصناديدها يبائعون في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ، اغترارا بكثرتهم وثروتهم لا يعتدون به ولا يغيرون من آمن به أولا وأكثرهم من الضعفاء الفقراء ، فما زالوا يتدرجون في عداوتهم له وقتلهم إياه حتى أظهره الله تعالى عليهم في غزوة بدر فلم يعتبروا ، ثم زادهم غرورا تغلبهم عليه آخر معركة أخذ حتى قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر - إلى أن كان الفتح الأعظم : فتح مكة فأظهر رسوله صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه عليهم من حيث لا يعلمون سنته تعالى .

وأثر عن عمر رضی الله عنه أنه قال لما حملت إليه كنوز كسرى : اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجا فإني سمعتك تقول (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) .

(وأملئ لهم إن كيدى متين) أي وأملئ هؤلاء المكذبين المستدرجين في العمر وأمد لهم في أسباب المعيشة والتدرب على الحرب بمقتضى سنني في نظام الاجتماع البشري

كيدا لهم ومكرا بهم لا حبا فيهم ونصرا لهم كما قال تعالى : « فَذَرَهُمْ فِي نَعْمَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ، أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » وروى الشيخان من حديث أبي موسى : « إن الله ليليل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

وخلاصة ذلك — إن سنة الله قد مضت في الأمم والأفراد بأن يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلق ، فالظالم إذا لم ينزل به العقاب عقب ظلمه إزداد بغيا وظلما ولا يحسب للعواقب حسابا فيسترسل في ظلمه إلى أن تحقيق به عاقبة ظلمه في الدنيا بأخذ الحكام له أو بوقوعه في المصائب والمهلك ، وله في الآخرة عذاب النار وبئس القرار .

(أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ؟) أى أ كذبوا الرسول ولم يتفكروا في حاله من بدء نشأته وفي حقيقة دعوته ، ودلائل رسالته ، وآيات وحدانية الله وقدرته على إعادة خلقه كما بدأهم .

إنهم إن تفكروا في ذلك مليا أوشكوا أن يعرفوا الحق ، وما الحق إلا أن صاحبهم ليس به جنة ، وقد حكى الكتاب الكريم عنهم أنهم رموه بالجنون كقوله في كفار مكة : « أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ، أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » وقوله : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ، لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » وقوله : « وَيَقُولُونَ أَنَّمَا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ » وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتاده قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قام على الصفا فدعا قريشا فخذوا فخذاء : يا بنى فلان يا بنى فلان يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائلهم : إن صاحبكم هذا لجنون : بات يهوت (يصيح) حتى أصبح . فأنزل الله : « أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ

مِنْ جِنَّةٍ » وقد جرت عادة الكفار أن يرموا رسلهم بالجنون ، لأنهم ادعوا أن الله خصهم برسالته ووحيه على كونهم بشرا كغيرهم لا يمتازون من سائر الناس بزعمهم ، ولأنهم ادعوا ما لم يعهد له نظير عندهم ، فقد حكى الله عن قوم نوح أنهم اتهموه بالجنون فقالوا : « إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَبَرِّبْصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ » وقال في شأنهم : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ » وقال حكاية عن فرعون في موسى عليه السلام : « قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » وقد بين سبحانه ذلك على وجه عام فقال : « كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ » .

(إن هو إلا نذير مبين) أى إنه ليس بمجنون بل هو منذر ناصح ومبلغ عن الله ، فهو ينذركم ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة إذا لم تستجيبوا له ، وقد دعاكم إلى مافيه صلاحكم في الدنيا بجمع الكلمة وصلاح حال الفرد والمجتمع والسيادة على من سواكم ، وصلاحكم في الآخرة بقاء ربكم وأتم في جنات النعيم .

والتعبير عنه صلى الله عليه وسلم (بصاحبهم) لتذكيرهم بأنهم يعرفونه من أول نشأته إلى أن تجاوز الأربعين من عمره ، فما عليهم إلا أن يتفكروا في سيرته ليعلموا أنه ليس من دأبه الكذب ولا هو مما عهد عنه كما شهد بذلك بعض زعمائهم فقال : إن محمدا لم يكذب قط على أحد من الناس ، أفيكذب على الله ؟ ومن ثم قال تعالى في أولئك الزعماء : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتَاتِ اللَّهِ يَبْجَدُونَ » . ولو تأمل مشركو مكة في نشأته صلى الله عليه وسلم وما جربوا من أمانته وصدقه إلى أن اكتمل ثم تفكروا فيما قام يدعوهم إليه من توحيد الله وعبادته وحده ، وما دعاهم إليه من إصلاح في حالهم الدينية والمدنية والاجتماعية لعلموا أن هذا كله لا يصدر من مجنون ، بل الذى يقتضيه العقل ويسرع إليه الفكر أن هذا ليس من رأى ذلك النبي الأمي الناشئ بين الأميين ، وأن ما أقامه من الحجج والبراهين العقلية والكونية

على ما يدعى لا يصدر من لم ينظر ولم يفاخر ولم يجادل أحدا فيما مضى ، إن هو إلا وحى من الله ألقاه في رُوعه ونزل من لدنه على روح القدس ، والله يختص بفضله ورحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم .

(أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) أى أكذبوا الرسول الذى علموا صدقه وأمانته وقالوا إنه مجنون ، وهو الذى شهر لديهم بالروية والعقل ، ولم ينظروا نظرة تأمل واستدلال فى هذا الملكوت العظيم من السموات والأرضين ، فيروا ذلك النظام البديع فيهما وفى كل ما خلق الله ، وإن دق وصغر ، إنهم لو تأملوا فى كل ذلك لرأوا آثار قدرته وعلمه وفضله ورحمته وأنه لم يخلق شيئا من ذلك عبثا ، ولا ترك الناس سدى .
 إن كل ذرة فيهما للدليل لأئح على الصانع الحميد ، وسبيل واضح إلى التوحيد .
 وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

إنهم لو نظروا فى شيء من ملكوت السموات والأرض لاهتدوا بدلائله إلى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم ، كذلك لو نظروا فى توقع قرب أجلهم وقدمهم على ربهم بسوء عملهم لاحتاطوا لأنفسهم ورأوا أن من الحكمة أن يقولوا إنذاره صلى الله عليه وسلم لهم ، فما جاءهم به لا ينكرون أنه خير لهم فى الدنيا ، وهو خير لهم فى الآخرة إذا صدق ما يقرره من أمر البعث والجزاء ، وهو صدق وحق لا شك فيه .
 (فبأى حديث بعده يؤمنون ؟) أى فبأى حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به ، وهو أكمل كتب الله بيانا وأقواها برهانا ، فمن لم يؤمن به فلا مطمع فى إيمانه بغيره .

(من يضل الله فلا هادى له) أى إن الله قد جعل هذا الكتاب أعظم أسباب الهداية للمتقين لالجاحدين المعاندين ، وجعل الرسول المبلغ له أقوى الرسل برهانا وأكملهم عقلا وأجلهم أخلاقا ، فمن فقد الاستعداد للإيمان بهذا الكتاب وهذا الرسول فهو الذى أضله الله : أى هو الذى قضت سنته فى خلق الإنسان وارتباط

أعماله بأسباب تقترب عليها مسبباتها ، بأن يكون ضالاً راسخاً في الضلال ، وإذا كان ضالاه بمقتضى تلك السنن فمن يهديه من بعد الله ؟ ولا قدرة لأحد من خلقه على تغيير تلك السنن وتبديلها .

(ويذرم في طغيانهم يعمهون) أى وهو جلت قدرته يترك هؤلاء الضالين . في طغيانهم يترددون حيرة ولا يهتدون سبيلاً للخروج مما هم فيه ، بما كسبت أيديهم من الطغيان وتجاوز الحد في الظلم والفجور .

والخلاصة — إنه ليس معنى إضلال الله لهم أنه أجبرهم على الضلال وأعجزهم بقدرته عن الهدى فكان ضلالهم جبراً لا اختياراً ، بل المراد أنهم لما مرنت قلوبهم على الكفر والضلال وأسرفوا فيهما حتى وصلوا إلى حد العمى في الطغيان ، فقدوا بهذه الأعمال الاختيارية ما يضاهاها من الهدى والإيمان فأصبحت نفوسهم لا تستنير بالهدى وقلوبهم لا ترعوى لدى الذكرى : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) .

شرح المفردات

الساعة لغة : جزء قليل غير معين من الزمن ، وعند الفلكيين : جزء من أربع وعشرين جزءاً متساوية يضبط بألة تسمى (الساعة) وقد كان ذلك معروفاً عند العرب وجاء في الحديث « يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة » وقد تطلق بمعنى الوقت الحاضر

وبمعنى الوقت الذى تقوم فيه القيامة ، وأكثر استعمال (ساعة) بدون أل فى الكتاب الكريم بمعنى الساعة الزمانية ، وبأل بمعنى الساعة الشرعية ، وهى ساعة خراب العالم وموت أهل الأرض جميعا ، وجاء المعنيان فى قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » والغالب التعبير بيوم القيامة عن يوم البعث والحشر الذى يكون فيه الحساب والجزاء ، والتعبير بالساعة عن الوقت الذى يموت فيه الأحياء فى هذا العالم ويضطرب نظامه ، فالساعة مبدأ ، والقيامة غاية ، وأيان : بمعنى متى ، فهى للسؤال عن الزمان ، ومرساها : أى إرساؤها وحصولها واستقرارها ، ويقال رسا الشيء يرسو : إذا ثبت وأرساه غيره ، ومنه إرساء السفينة وإيقافها بالمرساة التى تلتقى فى البحر فتمنعها من الجريان كما قال تعالى : « بِاسْمِ اللَّهِ تَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » وجلى فلان الأمر تجلية : أظهره أتم الإظهار ، ولوقتها : أى فى وقتها كما يقال كتبت هذا لفرقة رمضان : أى فى غرته ، وبغته : فجأة من غير توقع ولا انتظار ، وحفى من قولهم : أحفى فى السؤال ألحف ، وهو حفى عن الأمر : بليغ فى السؤال عنه ، واستحفيته عن كذا : استخبرته على وجه المبالغة ، وتحفى بك فلان : إذا تلطف بك وبالغ فى إكرامك .

المعنى الجملى

بعد أن أرشد تعالت أسماؤه من كانوا فى عصر التنزيل وعصر نزول السورة إلى النظر والتفكر فى اقتراب أجلهم بقوله : « وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ » قفى على ذلك بالإرشاد إلى النظر والتفكر فى أمر الساعة التى ينتهى بها أجل جميع الناس .

والخلاصة — إن هذا كلام فى الساعة العامة بعد الكلام فى الساعة الخاصة بكل فرد وهى انتهاء أجله .

الإيضاح

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها) أى يسألونك أيها الرسول عن الساعة - يقولون متى إرساؤها واستقرارها ، والسائلون هم قريش لأن السورة مكية ولم يكن في مكة أحد من اليهود ، وسؤالهم عن هذا الوقت استبعاد منهم لوقوعه وتكذيب بوجوده كما جاء حكاية عنهم : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وقال تعالى : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ، أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » .

وفى التعبير عن زمن وقوعها بالإرساء الدال على استقرار ما شأنه الحركة والاضطراب - إيماء إلى أن قيام الساعة هو انتهاء أمر هذا العالم وانقضاء عمر هذه الأرض التي تدور بما فيها من العوالم المتحركة المضطربة .

(قل إنما علمها عند ربى) أى قل لهم إن علم الساعة عند ربى وحده لا عندى ولا عند غيرى من المخلوق ، وقد جاء بمعنى الآية قوله : « إِلَيْهِ يُرْجَعُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا » وقوله : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا » .

وفى قوله عند ربى إشارة إلى أن ما هو من شأن الرب لا يكون للعبد ، فالله قد أعد نبيه ليكون منذرا ومبشرا ، والإنذار إنما يكون بالساعة وأهوالها ، لا للإخبار عن الغيوب بأعيانها وأوقاتها ، إذ تحديد ذلك يتناقض هذه الفائدة بل فيه مفسد ، إذ لو وقت الرسول ميعاد الساعة بتاريخ معين لاستهزأ به المكذبون ولألحوا فى تكذيبه وازدادوا ارتيابا ، حتى إذا ما وقع الأجل وقع المؤمنون فى رعب عظيم ينغص عليهم حياتهم ويشنج أعصابهم فلا يستطيعون عملا ولا يسبقون طعاما ولا شرابا وسخر الكافرون من المؤمنين ، وقد حدث أن أخبر بعض رجال الكنيسة فى أوربة

أن القيامة ستكون في سنة كذا فهلعت القلوب واختلت الأعمال وأهل أمر العيال ولم تهدأ النفوس إلا بعد أن ظهر كذب النبأ .

والخلاصة — إن هناك حكمة بالغة في إيهام أمر الساعة العامة للعالم ، والساعة الخاصة بالأفراد والأمم والأجيال ، بجعلها من الغيب الذى استأثر الله تعالى به .

(لا يجعلها لوقتها إلهو) أى لا يكشف حجاب الخفاء عنها ولا يظهرها في وقتها المحدود عند الله تعالى إلهو ، إذ لا وساطة بينه وبين عبادته في إظهارها ولا الإعلام بميقاتها ، وإنما وساطة الرسل في الإنذار بها .

(ثقلت في السموات والأرض) أى ثقل وقتها وعظم أمرها في السموات والأرض على أهلها من الملائكة والإنس والجن ، لأن الله أنبأهم بأحوالها ولم يشعرهم بميقاتها ، فهم دائماً يتوقعون أمراً عظيماً لا يدرون متى يفجؤهم وقوعه .

وقال السدى : خفيت في السموات والأرض فلا يعلم قيامها ملك مقرب ولا نبي مرسل ، وقال ابن عباس ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة . وروى عن ابن جريج أن ثقلها يكون يوم مجيئها (إذا الشمس كورت، وإذا الكواكب انتثرت) إلى نحو ذلك مما وصفه الله تعالى من أمر قيامها .

(لا تأتكم إلا بغتة) أى لا تأتكم إلا فجأة وعلى حين غفلة بلا إشعار ولا إنذار وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة « ولتقومن الساعة وقد نشر الرجлан ثوبهما بينهما يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وهو يلبط (يطلق حمارته بحصّ ونحوه ليسك الماء) حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها » والمراد من كل هذا أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معاشهم ، فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم ، وأن يحملهم ذلك على مراقبة الله تعالى في أعمالهم بأن يلتزموا فيها الحق ويتحروا الخير ويتقوا الشر والمعاصى ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة ، الجدل فيها وكثرة القيل والقال في شأنها وفي تعيين ميقاتها .

(يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا) أى يسألونك كأنك خفي مبالغ في سؤال ربك عنها . وقد يكون المعنى : يسألونك عنها كأنك خفي بهم ، وبينك وبينهم مودة وكأنك صديق لهم ، ويؤيد هذا ما روى عن ابن عباس قال : لما سأل الناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة - سألوه سؤال قوم كأن محمدا خفي بهم ، فأوحى الله إليه - إنما علمها عنده استأثر به فلا يُطلع عليه ملكا مقربا ولا رسولا . وما روى عن قتادة قال : قالت قریش لمحمد صلى الله عليه وسلم : إن بيننا وبينك قرابة ، فأشّر إلينا متى الساعة ؟ فقال الله عز وجل : « يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا » .

(قل إنما علمها عند الله) هذا تكرار للجواب إثر تكرير السؤال مبالغة في التأكيد ، وإيثاس لهم من العلم بوقت مجيئها وتخطئته لمن يسألون عنه . وعبر هنا بلفظ الجلالة (الله) إشارة إلى أنه استأثر بعلم هذا لذاته ، كما أشعر ما قبله بأنه من شئون ربوبيته ، وكلاهما مستحيل على خلقه .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لا يعلمون اختصاص علمها به تعالى ولا حكمة ذلك ولا أدب السؤال ولا نحو ذلك مما ينبغي أن يعلم في هذا الباب ، وإنما يعلم ذلك القليلون وهم المؤمنون بما جاء في كتاب الله من أخبارها وبما سمع من رسوله صلى الله عليه وسلم كن حضروا تمثل جبريل عليه السلام بصورة رجل وسؤاله النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان ، ثم عن الساعة ، وإجابة النبي صلى الله عليه وسلم له عن سؤاله الأخير بقوله : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » أى إنا سواء في جهل هذا الأمر فلا يعلم أحد منا متى تقوم الساعة .

قال الألوسي : وإنما أخفي سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك فإنه أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية ، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك ، وظاهر الآيات أنه عليه السلام لم يعلم وقتها ، نعم علم عليه الصلاة والسلام قربها على الإجمال وأخبر صلى الله عليه وسلم به فقد أخرج الترمذى وصححه أنس

مرفوعا « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى » وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا أيضا « إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى غروب الشمس » اهـ .

عمر الدنيا

ألف السيوطي رسالة سماها : (الكشف، عن مجاوزة هذه الأمة الألف) أخرج فيها عدة أحاديث في أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، وأن مدة هذه الأمة تزيد على ألف ولا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة ، وسمى بعضهم الألف الثانية بالألف المحضمة لأن نصفها دنيا ونصفها الآخر أخرى .

ولا شك أن ما جاء في هذا الباب كله مأخوذ من الإسرائيليات التي كان يثبت زنادقة اليهود والفرس في المسلمين حتى روه مرفوعا ، وقد اغتر بها من لا ينظر في نقد الروايات إلا من جهة أسانيدها ، وقد هدمها الزمان وهدم كثيرا مثلها من الأوهام والخرافات التي أريد بها الكيد للإسلام .

وإخلاصة — إن القول بتعيين مدة الدنيا من أولها إلى آخرها بسبعة آلاف لم يثبت في نص يعتمد عليه ، وإن كانت قد رويت عنه آثار عن السلف أكثرها مأخوذ عن أهل الكتاب وفي أسانيدها مقال :

وعلماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) في هذا العصر يجزمون بأن عمر الدنيا الماضي يعدّ بألوف ألوف السنين بناء على ما عرف بالخفر في طبقات الأرض ، وبناء على ما وجد من آثار للبشر منذ مئات الألوف من السنين ، وذلك ينقض ما جاء في سفر التكوين من التوراة ، ولا ينقض من القرآن شيئا : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » ولا من الأحاديث القطعية التي لاشبهة فيها للدسائس الإسرائيلية ولا المكاييد الفارسية الجوسية .

قال ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ : أما نحن فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا ،

ومن ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل فقد قال مالم يأت قط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه لفظة تصح بل صح عنه خلافة ، بل تقطع على أن للدينا أمدًا لا يعلمه إلا الله تعالى . قال الله سبحانه : « مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أتم في الأمم قبلكم إلا كالشجرة البيضاء في الثور الأسود ، أو كالشجرة السوداء في الثور الأبيض » وهذه نسبة من تدبرها وعرف مقدار عدد أهل الإسلام ونسبة ما بأيديهم من معمر الأرض وأنه الأكبر ، علم أن للدينا أمدًا لا يعلمه إلا الله اه .

وعلى الجملة فبطلا الإسرائيليات وينبوع الخرافات في تحديد عمر الدنيا: هما كعب الأبحار ووهب بن منبه ، وقد جعلاه ستة آلاف وهو في التوراة سبعة آلاف غشا للمسلمين .

أشراط الساعة وأماراتها

الأشراط : واحدها شَرَطٌ كأسباب وسبب وهي العلامات والأمارات الدالة على قربها ، وقد ثبت في الكتاب والسنة أن الساعة أشراطها كما قال تعالى : « فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ » ومن أعظم أشراطها بعثة خاتم النبيين بآخر هداية الوحي الإلهي للناس أجمعين ، فبعثته قد كمل بها الدين ، وبكمله تكمّل الحياة البشرية الروحية ، ويتلوها كمال الحياة المادية ، وما بعد الكمال إلا الزوال .

وقد وردت أحاديث في أشراط الساعة يدل بعضها على أن الشهوات المادية تتنازع مع الهداية الروحية فيكون لها الغلب زمنا ثم تنتصر الهداية الروحية ثم يغلب الضلال والشر والفجور والكفر حتى تقوم الساعة على شرار الخلق . وقد قسموا أشراطها ثلاثة أقسام :

- (١) ما وقع بالفعل منذ قرون خلت كقتال اليهود وفتح بيت المقدس والقسطنطينية .
- (٢) ما وقع بعضه وهو لا يزال في ازدياد كالقتل والفسوق وكثرة الزنا وكثرة الدجالين وكثرة النساء وتشبهن بالرجال والكفر والشرك حتى في بلاد العرب .
- (٣) ما سيقع بين يدي الساعة من العلامات الصغرى والكبرى :

المهدى المنتظر

أشهر الروايات أن اسمه محمد بن عبد الله ، والشيعية يقولون إنه محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه بالحجة والقائم والمنتظر ، ويقولون إنه دخل السرداب في دار أبيه في مدينة (سرّ من رأى) التي تسمى الآن (سامرا) سنة ٢٦٥ وله من العمر تسع سنين وأنه لا يزال في السرداب حيا ، وزعمت الكيسانية أنه محمد بن الحنفية وأنه حتىّ مقيم بجبل رَضوى (جبل بالمدينة) بين أسدين يحفظانه وعنده عيتان نضاختان تفيضان عسلا ولبنا ومعه أربعون من أصحابه .

والمشهور في نسبه أنه علوى فاطمى من ولد الحسن ، وهناك رواية مصرحة بأنه من ولد العباس فقد روى الرافعى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للعباس : ألا أبشرك يا عم ؟ إن من ذريتك الأصفياء ، ومن عترتك الخلفاء ، ومنك المهدى في آخر الزمان ، به ينشر الله الهدى ويطفىء نيران الضلالة إن الله فتح بنا هذا الأمر وبذريتك يحتم ، ومن حديث ابن عساكر عنه مرفوعا « اللهم انصر العباس وولد العباس (ثلاثا) يا عم أما علمت أن المهدى من ولدك موققا مرضيا » وفي معناها أحاديث أخرى لأبي هريرة وأم سلمة وعليّ .

وأكثر العلماء ينكرون هذه الأحاديث ويقولون إنها موضوعة لانصيب لها من الصحة ، ومن ثم لم يعتد بها الشيخان ، ومن هؤلاء ابن خلدون فقد ذكر الأحاديث التي وردت في المهدى وضعفها وضعف أسانيدھا وانتهت به خاتمة المطاف إلى أنه

لم يضح فيه شيء يوثق به - إلى أن قال : إن الله سنفنا في الأمم والدول والعمران ، مطردة في كل زمان ومكان ، كما ثبت في مصحف القرآن ومصحف الأكواف ، ومنها أن الدول لا تقوم إلا بعصبية ، وأن الأعاجم قد سلبوا العصبية من قریش والعترۃ النبوية ، فإن صحت أخبار هذا المهدي فلا يظهر إلا بعد تجديد عصبية هاشمية علوية ولو سمعوا وعقلوا لسعوا وعملوا ولكن استعدهم ظهور المهدي بالاهتداء بسنن الله رحمة لهم تجاه ما كانوا في أخباره من الفتن والنقم فيهم ، وربما أغناهم عن بعض ما يروجون من زعامته إن لم يغنهم عنه كله .

هذا والمسلمون لا يزالون يتكلمون على ظهور المهدي ويزعم دهاؤهم أنه سينتقض لهم سنن الله أو يبدها تبديلاً وهم يتلون قوله تعالى : « قَهْلَ يَنْظُرُونَ إِلَاسَنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَإِنْ تَجِدَ لِسَنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا » فإذا كان من أشراف الساعة آيات وكان في زمانها خوارق عادات فهل يضرهم أن تأتيهم وهم على هدى من ربهم وإقامة لشرعهم في عزة وسلطان في أرضهم ... وكان لكعب الأخبار جولة وسعة في تليف تلك الأخبار اه .

وقد كانت هذه المسألة أكبر مشارف الفساد والفتن في الشعوب الإسلامية إذ تصدى كثير من محبي الملك والسلطان ومن أدياء الولاية لدعوى المهدي في الشرق والغرب وتأييد دعواهم بالقتال والحرب وبالبدع والإفساد في الأرض حتى خرج ألوف الألوف من هداة الدين ومرفوقا من الإسلام .

وقد كان من حصافة الرأي أن يكون خروج المهدي باعثاً لهم على الاستعداد لظهوره بتأليف عصبية قوية بزعامته تجدد الإسلام وتشر العدل في الأنام لكنهم لم يفعلوا بل تركوا ما يجب من حفظ سلطان الملة بجمع كلمة الأمة وبإعداد ما استطاعوا من حول وقوة واتكلوا على قرب ظهور المهدي وأنه هو الذي سيرد إليهم ملكهم بالكرامات وخوارق العادات لا بالمدافع والديابات والطيارات والقاذفات والأساطيل

والغواصات ، وقد فاتهم أن الحرب كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين سجلاً وكان المؤمنون ينفرون منه خفافاً وثقلاً ، فهل يكون المهدي أهدي منه أعمالاً وأحسن منه خالاً ومآلاً .

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ
الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) .

شرح المفردات

الغيب قسمان : حقيقى لا يعلمه إلا الله تعالى ، وإضافى يعلمه بعض الخلق دون بعض ، والخير ما يرغب الناس فيه من المنافع المادية والمعنوية : كالمال والعلم ، والسوء ما يرغبون عنه مما يسوءهم ويضرهم ، والإنذار : تبليغ مقترن بتخويف من العقاب على الكفر والمعاصى ، والتبشير : تبليغ مقترن بترغيب فى الثواب مع الإيمان والطاعة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله تعالى خاتم رسله أن يجيب السائلين عن الساعة بأن علمها عند الله تعالى وحده، فقى على ذلك بأمره أن يبين للناس أن كل الأمور بيده وحده وأن علم الغيب كله عنده .

وهذه الآية أس من أسس الدين وقواعد عقائده إذ بينت حقيقة الرسالة وفصلت بينها وبين الربوبية وهدمت قواعد الشرك واجتثت جذور الوثنية .

الإيضاح

(قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله) أى قل يأيتها الرسول للناس فيما تبلغه لهم من أمر دينهم : إنى لا أملك لنفسى ولا لغيرى جلب نفع ولا دفع ضرر

مستقلاً بقدرتي على ذلك ، وإنما أملكهما بقدره الله ، فإذا أقدرني على جلب النفع جلبته بفعل أسبابه ، وإذا أقدرني على منع الضرر منعه بتسخير الأسباب كذلك .

وقد كان المسلمون ولاسيما حديثو العهد بالإسلام يظنون أن منصب الرسالة يقتضى علم الساعة وغيرها من علم الغيب ، وأن الرسول يقدر على ما لا يصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضرر عن نفسه وعن من يحب أو عن إ شاء أو منع النفع وإحداث الضرر بمن يكره أو بمن يشاء ، فأمره الله أن يبين للناس أن منصب الرسالة لا يقتضى ذلك ، وأن وظيفة الرسول إنما هى التعليم والإرشاد لخلق والإيجاد ، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما يتعلق بذلك مما علمه الله بوحيه ، وأنه فيما عدا ذلك بشر كسائر الناس : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ » .

(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) أى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ولا أعلم الغيب ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير كالمال ونحوه ، ولما مسنى السوء الذى يمكن الاحتياط لدفعه بعلم الغيب .

قال ابن كثير : أمره الله تعالى أن يفوض الأمر إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب فى المستقبل ولا اطلاع له على شىء من ذلك إلا ما أطلع الله عليه كما قال : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا » وقوله : « وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ » وروى الضحاك عن ابن عباس (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) أى من المال ، وفى رواية « لعلمت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه ، فلا أبيع شيئا إلا لربحت فيه ولا يصيبنى الفقر » . وقال ابن جرير : أى لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدة من الخصبه ولوقت الغلاء من الرخص . وقال عبد الله بن زيد بن أسلم (وما مسنى السوء) قال لإجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واقتيته اه .

ثم علل نفي امتيازهم من البشر بملك النفع والضرر من غير طرق الأسباب وسنن الله فى الخلق ونفى امتيازهم عنهم بعلم الغيب فقال :

(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أى إنه لا امتياز له عن جميع البشر إلا بالتبليغ عن الله عز وجل بالإنذار والتبشير ، وكل منهما يوجه إلى جميع أمة الدعوة والآيات فى ذلك كثيرة نحو : « لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنَذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا » وقوله : « إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ » .

والخلاصة — إن الرسل عليهم الصلاة والسلام عباد مكرمون لا يشاركون الله فى صفاته ولا فى أفعاله ولا سلطان لهم على التأثير فى علمه ولا فى تدييره ، وإنما يمتازون باختصاص الله تعالى إياهم بوحىه واصطفائهم لتبليغ رسالته لعباده وجعلهم قدوة صالحة للناس فى العمل بما جاءوا به عن الله من الصلاح والتقوى والأخلاق الفاضلة .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ خَمَلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ، فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيْشِرُ كُونَ مَا لَا يُخْلَقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَعْطِیْعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَكُمْ أَدْعَوْنَهُمْ أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) .

شرح المفردات

من نفس واحدة : أى من جنس واحد ، ليسكن إليها : أى لياأس بها ويطنن إليها ، وتغشاهما : أتاها كغشيها ويراد بالتغشى أداء وظيفة الزوجية ، ومقتضى الفطرة

وآداب الدين أن يكون ذلك في السر ، حملت : أى عقلت منه والحمل (بالفتح) ما كان في بطن أو على شجرة (وبالكسر) ما كان على ظهر ونحوه ، فمرت به : أى استمرت به إلى وقت ميلاده من غير إخراج ولا إزلاق ، واستمرت في أعمالها وقضاء حاجتها من غير مشقة ولا استئصال ، وأثقلت : أى حان وقت ثقل حملها وقرب وضعها ، صالحا : أى نسلا سليما من فساد الخلقة كنقص بعض الأعضاء ، فتعالى الله : أى ارتفع مجده وتعالى جده وتنزه عن شرك هؤلاء الجهلاء .

المعنى الجملى

بعد أن افتتح الله السورة بالدعوة إلى التوحيد واتباع ما أنزل الله وتلاوه بالتذكير بنشأة الإنسان الأولى في الخلق والتكوين والعداوة بينه وبين الشيطان . اختتم السورة بهذه المعاني ، فذكر بالنشأة الأولى ونهى عن الشرك واتباع وسوسة الشيطان وأمر بالتوحيد واتباع ما جاء به القرآن .

الإيضاح

(هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) أى هو الذى خلقكم من جنس واحد وجعل زوجها من جنسه فكانا زوجين ذكرا وأنثى كما قال في آية أخرى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى » . وهكذا خلق من كل الأنواع ومن كل أجناس الأحياء زوجين اثنين كما قال عز من قائل : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » . والمشاهد أن كل خلية من الخلايا التى ينمو بها الجسم الحى تنطوى على نواتين ذكر وأنثى إذا اقترنا ولدنا خلية أخرى وهلم جرا .

وفى التوراة : إن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم ، وعليه حمل بعض العلماء الحديث : « استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء فى الضلع

أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا »
رواه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعا .

ولكن المحققين ذهبوا في تفسيره إلى أن المراد أنها ذات اعوجاج وشذوذ
تخالف به الرجل ، ويؤيده ما رواه ابن حبان عن أبي هريرة « إن المرأة خلقت من
ضلع أعوج » فهو على حد قوله تعالى : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » .

وفي التعبير عن ميل الزوج الجنسي إلى زوجه هنا وفي الروم بالسكون إشارة
إلى أن المرء متى بلغ سن الحياة الزوجية يجد في نفسه اضطرابا لا يسكن إلا إذا اقترن
بزوج من جنسه واتحدا ذلك الاتحاد الذي لا تكمل حياتهما الجنسية المنتجة إلا به .

(فلما تعشاهما حلت حملا خفيفا فرت به) أى فلما تغشى الذكر الأنثى علقت
منه وكان الحمل أول عهده خفيفا لا تكاد تشعر به ، وقد تستدل على وجوده بارتفاع
الحيض كحسب ، ومن ثم استمرت في أعمالها وقضاء حاجتها من غير مشقة ولا استئقال .

(فلما أثقلت دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين) أى
فلما حان قرب وضعها وكبر الولد في بطنها ، توجهتا : أى آدم وحواء إلى الله ربهما
بدعواته أن يعطيها ولدا صالحا : أى تام الخلق يصلح للقيام بالأعمال النافعة التي
يعملها البشر ، وأقسما على ما وطنا عليه أنفسهما من الشكر له إزاء هذه النعمة قولا
وعملا واعتقادا .

(فلما آتاها صالحا سمعلا له شركاء فيما آتاها) أى فلما أعطاهما ما طلبا وجاء
الولد بشرا سويا لا نقص فيه ولا فساد في تركيب جسمه جملا له شركاء فيما أعطاه :
أى أظهرهما ما كان راسخا في أنفسهما منه .

وقد نسب هذا الجمل إلى آدم وحواء والمراد أولادهما ، قال الحسن البصري :
هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهو دوا ونصروا .

وقال الحافظ ابن كثير : أما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا وأنه

ليس المراد من السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ، ولهذا قال : « فتعالى الله عما يشركون » ثم قال فذكره آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدها من الوالدين ، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس اه .

وقال صاحب الانتصاف : إن المراد جنس الذكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معين وكأن المعنى والله أعلم : خلقكم جنساً واحداً وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الذي هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت ، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون ، لأن المشركين منهم كقوله : « وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِثٌ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » وقوله : « قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ » وقوله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ » اه .

وقال صاحب الكشف : إن المراد بالزوجين الجنس لا فردان معينان ، والغرض بيان حال البشر فيما طرأ عليهم من نزعات الشرك الخفي والجلي في هذا الشأن وأمثاله والجنس يصدق ببعض أفراده اه .

وبهذا تعلم أن ما روى عن بعض الصحابة والتابعين من أن الآية في آدم وحواء وما روى في حديث سمرة بن جندب مرفوعاً قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحى الشيطان » ونحوه آثار كثيرة في هذا المعنى مفصلة ومطولة - فهو خرافة من دس الإسرائيليين نقلت عن مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه فلا يوثق بها ، لأن فيها طعننا صريحاً في آدم وحواء عليهما السلام ورمياً لهما بالشرك ، ومن ثم رفضها كثير من المفسرين ، وقال الحافظ ابن كثير : وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » .

وأخبار أهل الكتاب ثلاثة أقسام :

(١) فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله .

(٢) ومنها ما علمنا كذبه بما دل الدليل على خلافه من الكتاب والسنة أيضا .
 (٣) ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون فى روايته بقوله عليه السلام «حدثوا
 عن بنى إسرائيل ولا حرج» وهو لا يصدق ولا يكذب لقوله : « فلا تصدقوهم
 ولا تكذبوهم » .

ثم بين سبحانه فساد رأيهم وسخافة عقولهم لهذا الشرك فقال :
 (أشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون) أى أشركون به سبحانه وهو الخالق
 لهم ولأولادهم ولكل مخلوق ما لا يخلق شيئا وإن كان حقيرا كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ » بل هم مخلوقون أيضا
 ولا يليق بذى العقل السليم أن يجعل المخلوق العاجز شريكا للخالق القادر .
 والآية وما بعدها حكاية لشرك عباد الأصنام عامة ، وينتظم فيهم مشركو مكة
 وأمثالهم ممن نزل القرآن فى عهدهم ، وتوبيخ لهم بتفصيل أحوال أولئك الشركاء التى
 تنافى ما اعتقدوه .

(ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون) أى ولا يستطيعون لعابديهم
 معونة إذا حاربهم أمرهم وخطب ملم كما لا يستطيعون لأنفسهم نصرا على من
 يعتدى عليهم بإهانة لهم أو أخذ شيء مما عندهم من طيب أو حلى كما قال تعالى :
 « وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » .
 والخلاصة — إنهم يحتاجون إليكم فى تكريمهم وفى النضال عنهم وأتم
 لا يحتاجون إليهم .

(وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم) أى وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى
 ما تحصلون به رغباتكم أو تنجون به من المكارة التى تحيق بكم ، لا يتبعوكم فلا يستجيبوا
 لكم ولا ينفعوكم .

ثم أكد عدم نفعهم فقال :

(سواء عليكم أَدْعَوْتَهُمْ أَمْ أُتِمَّ صَامِتُونَ) أى مستولديكم دَعَاؤُكُمْ إِيَّاهُمْ وَبِقَاؤُكُمْ عَلَى صَمْتِكُمْ ، فإنه لا يتغير حالكم فى كلتا الحالين ، إذ هم لا يفهمون دَعَاؤَكُمْ وَلَا يَسْمَعُونَ أَصْوَاتَكُمْ وَلَا يَعْقِلُونَ مَا يَقَالُ لَهُمْ .

والخلاصة — إنه لا ينبغي أن يعبد من كانت هذه صفته ، وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبده ، الضار من يعصيه ، الناصر وليه ، الخاذل عدوه ، الهادى إلى الرشاد من أطاعه ، السامع دَعَاءَ مَنْ دَعَاهُ .

ولا شك أن هذه الحجة قائمة على مَنْ يقصدون قبور الأولياء والصلحاء ويعظمونها ويطلبون منها قضاء الحاجات ، لأن هذه الأوصاف التى سيمت فى معرض التوبيخ والانكار تنطبق على حالم أشد الانطباع ، فهم لا ينفعون ولا يضررون (وسواء عليكم أَدْعَوْتَهُمْ أَمْ أُتِمَّ صَامِتُونَ) وقد روى البخارى عن ابن عباس فى أصنام قوم نوح التى انتقلت إلى العرب ، أنها لم تنصب إلا للتذكير بأناس من الأولياء والصلحين وقد كانت اللات صخرة لرجل يلت عليها السويق ويطعم الناس .

والخلاصة — إن الأصنام والتماثيل والقبور التى تعظم تعظيما دينيا ، عمل لم يأذن به الله ، وكلها سواء فى كونها وضعت للتذكير بأناس عرفوا بالصالح وكانوا هم المقصودين بالدعاء تخيلا من عابديها بأن لها تأثيرا فى إرادة الله أو التصرف الغيبي فى ملك الله ، وذلك من أخفش الشرك وأقبحه ، ولا فرق بين إشراك الصنم والوثن وإشراك الولي أو النبي أو الملك .

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ (١٩٥) إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ

الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَضَرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) .

المعنى الجملى

هذه الآيات الكريمة من تمة ما قبلها مؤكدة له ومقررة لما تضمنته وهو إثبات التوحيد ونفى الشرك ، وهو رأس الإسلام وركنه المتين ، فلا غرو أن يتكرر الكلام فيه فى القرآن ، نفياً وإثباتاً ليتأكد فى النفوس ويثبت فى القلوب وبه تخلع جذور الوثنية ويحل محلها نور الوحداية .

الإيضاح

(إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) الدعاء هو النداء لدفع الضر وجلب النفع الذى يوجه إلى من يعتقد الداعى أن له سلطاناً يمكنه أن يجيبه إلى ما طلبه إما بذاته وإما بحمله الرب الخالق على ذلك : أى إن الذين تدعونهم من دون الله هم عباد أمثالكم فى كونهم مخلوقين لله خاضعين لإرادته وقدرته ، وإذا كانوا أمثالكم كان من المستحيل عقلاً أن تطلبوا منهم ما لا يستطيعون نياله بأنفسكم ولا بمساعدة أمثالكم ، وإنما يدعى الرب الخالق لما وراء الأسباب المشتركة بين الخلق ، والذى تخضع لإرادته الأسباب وهو لا يخضع لها ، ولا لإرادة أحد يحمله على ما لا يشاؤه منها . (فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) أى إن كنتم صادقين فى زعمكم أنهم قادرون على ما تعجزون عنه بقواكم البشرية من نفع أو ضرر فادعوهم فليستجيبوا لكم إما بأنفسهم وإما بحملهم الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ما تطلبون . ثم ارتقى سبحانه فى الرد عليهم وأثبت أنهم ليسوا أمثالهم بل أحط منهم منزلة ودونهم رتبة ، ووبخهم على عبادة هذه الأحجار والأصنام فقال :

(ألم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها؟) أى إن هؤلاء فقدوا وسائل الكسب التى يناط بها النفع والضرر فى هذه الحياة ، فليس لهم أرجل يسعون بها إلى دفع ضرر أو جلب نفع ، وليس لهم أيد يبطشون بها فيما ترجون منهم من خير أو تخافون من شر ، وليس لهم أعين يبصرون بها حالكم ولا آذان يسمعون بها أقوالكم ويعرفون بها مطالبكم ، فهم ليسوا مثلكم بل دونكم فى الصفات والقوى التى أودعها الله فى الخلق ، فكيف ترفعونهم عن مائتكم وهم دونكم بالاختبار والمشاهدة .

وإنكم تستكبرون عن قبول الهدى والرشاد من الرسول ويقول بعضكم لبعض : « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا نَخَسِرُون » .

فما بالكم تأبون قبول الحق والخير من مثلكم وقد فضله الله عليكم بالعلم والهدى ثم ترفعون ما دونه ودونكم إلى مقام الألوهية مع انحطاطه عن درجة المثلية .

(قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) أى قل أيها الرسول هؤلاء الذين يحتقرون نعم الله عليهم : نادوا شركاءكم الذين اتخذتموهم أولياء ، ثم تعاونوا على كيدى جميعا وأوقعوا الضرر بى سريعا ، فلا تنظرون أى لا تؤخرونى ساعة من نهار . والحكمة فى مطالبتهم بهذا ، أن العقائد الموروثة يتضاعل دونها كل برهان ولا يجدى معها دليل ، ومن ثم طالبهم بأمر على ينزع هذا الوهم من أعماق القلوب ، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء ويستنجدوا بهم لصد دعوة الداعين إلى الكفر بها وإثبات العجز لها وإنكار مالها من سلطان غيبى وتدمير كامن ، فإن كان لها حقا سلطان فى أنفسها أو من عند الله فهذا إبان ظهوره ، وإلا فتى يظهر ليساعد أبطال عبادتها وينصر عابديها ومعظمى شأنها ، ومن الجلى أن القوم كانوا ينكرون البعث فكل ما يرجونه منها من خير أو يخافونه منها من شر فهو فى هذه الحياة .

ثم بين حقارة هذه المعبودات وعابديها على ما كان به من ضعف وقلة ناصر وهو بمكة حين نزول هذه السورة فقال :

(إن وليّ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) أى إن متولى أمرى وناصرى هو الله الذى نزل على الكتاب المؤيد لوحدايته ووجوب عبادته ودعائه عند الشدائد والملمات ، والناعى على المشركين عبادة غيره من وثن أو صنم ، وهو يتولى نصر الصالحين من عباده ، وهم من صاحت أنفسهم بصحيح العقائد وسلمت من الأوهام والخرافات ، والأعمال التى تصلح بها شئون الأفراد والجماعات ، فينصرهم على ذوى الخرافات والأوهام وفاسدى العقائد والأحكام والأحلام تصديقا لقوله : « قَامًا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُوتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) أى وإن من تدعونهم لنصركم وجلب النفع لكم ودفع الضر عنكم عاجزون فلا هم بالمستطيعين نصركم ولا نصر أنفسهم على من يحقر شأنهم أو يسلبهم شيئا مما وضع عليهم من طيب أو حلى ، فقد كسر إبراهيم صلوات الله عليه الأصنام فجعلهم جذازا فما استطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم ولا أن ينتقموا منه لها .

وقد روى عن معاذ بن عمرو بن الجوح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما - وكانا شابين من الأنصار قد أسلما لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة - أنهما كانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويلفانها ويتخذانها حطبيا للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتثوا لأنفسهم رأيا آخر .

وكان لعمر بن الجوح (وكان سيد قومه) صنم يعبداه فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه ويلطخاناه بالعدرة فيجىء عمرو فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفا ويقول له انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعة

أيضا ، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في جبل في بئر هناك ، فلما جاء ورأى ذلك علم أن ما كان عليه من الدين باطل وأنشد :

تالله لو كنت إلها مستدنا لم تك والكلب جميعا في قرآن
ثم أسلم وحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيدا رضى الله عنه .

وبعد أن نفى عنهم القدرة على النصره ففى على ذلك بنفى قدرتهم على الإرشاد إلى الهدى والرشاد فقال :

(وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون) أى وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى ماتحصلون به مقاصدكم وتنصرون به : من أسباب خفية أو ظاهرة - لا يسمعون دعاءكم فضلا عن مد يد المعونة والمساعدة .

والآية كقوله : « إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ » .

(وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) أى وتراهم أيها الخطاب ينظرون إليك بما وضع لهم من أعين صناعية وحلق زجاجية أو جوهرية موجهة إلى من يدخل عليها كأنها تنظر إليه وهم لا يبصرون بها ؛ لأن حاسة الإبصار لا تحصل بالصناعة ، وإنما هى من خواص الحياة التى استأثر الله بها .

وهم إذ فقدوا السمع لا يسمعون نداء ولا دعاء ممن يعبدونهم ولا من غيرهم وإذ فقدوا البصر لا يبصرون حاله وحال خصمه ، فكيف يرجى منهم نصر وشد أزر أو أى معونة أخرى ، أو كيف يخشى منهم إيصال ضر وأذى لمن يحتقرهم ؟ .

خُذِ الْعَقْلَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الله هو الذى يتولى أمره وينصره ، وأن الأصنام وعابديها لا يقدرون على إيذائه وإيصال الضر إليه بين فى هذه الآية النهج القويم والصرط المستقيم فى معاملة الناس .

وهذه الآية تشمل أصول الفضائل فهى من أسس التشريع التى تلى فى المرتبة أصول العقيدة المبينة على التوحيد الذى تقرر فيما سلف بأبلغ وجه وأتم برهان وحجة .

الإيضاح

(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) أمر الله نبيه فى هذه الآية بثلاثة أشياء هى أسس عامة للشريعة فى الآداب النفسية والأحكام العملية .
(١) العفو : وهو السهل الذى لا كلفة فيه : أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ، ولا تطلب منهم ما يشق عليهم حتى ينفروا ، وهذا كما جاء فى الحديث « يسروا ولا تعسروا » وقال الشاعر :
خذى العفو منى تستدبى مودتى ولا تنطقى فى سؤرتى حين أغضب
وقيل إن المعنى خذ العفو وما تسهل من صدقاتهم .

والخلاصة — إن من آداب الدين وقواعده اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الناس ، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما .
(٢) الأمر بالمعروف : وهو ما تعرفه النفس من الخير وتأنس به وتطمئن إليه ، ولا شك أن هذا مبنى على اعتبار عادات الأمة الحسنة وما تتواطأ عليه من الأمور النافعة فى مصالحها .

وإجمال القول فيه — إنه اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس .

وقد ذكر المعروف فى السور المدنية فى الأحكام الشرعية العملية كوصف الأمة الإسلامية وحكومتها كقوله : « الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ » وقوله : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

وعند ذكر الحقوق الزوجية كقوله : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَىٰ هُنَّ دَرَجَةٌ » وفي أحكام الطلاق كقوله : « فَإِذَا سَأَلَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ » وقوله : « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » ومن ذلك ترى أن هذا اللفظ (المعروف) لم يذكر إلا في الأحكام الهامة ، وأن المراد به ما هو معروف بين الناس في المعاملات والعادات ، ولا شك أنه يختلف باختلاف الشعوب والبلاد والأوقات ، ومن ثم قال بعض الأئمة : المعروف ما يستحسن في العقل فعله ولا تنكره العقول الصحيحة ، ويكفي المسلمين المحافظة على النصوص الثابتة ، إذ لا يمكن المؤمن أن يستنكر ما جاء عن الله ورسوله ، وليكن للجماعة الإسلامية بعده رأى فيما يعرفون وينكرون ويستحسنون ويستنبضون ، ويكون عملهم في ذلك جمهور العقلاء وأهل الفضل والأدب في كل عصر .

(٣) الإعراض عن الجاهلين ، وهم السفهاء بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم ، ولا علاج للوقاية من أذاهم إلا الإعراض عنهم ، وقد روى عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال : ليس في القرآن آية أجمع لمساكرم الأخلاق منها ، وروى الطبري وغيره عن جابر أنه لما نزلت هذه الآية سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عنها فقال : لا أعلم حتى أسأل ثم رجع فقال : إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وأخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِعَرَفِ كَمَا أُمِرْتُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ
وَلِيْنِ فِي الْكَلَامِ لِسُكْلِ الْأَنَامِ فَسْتَحْسِنُ مِنْ ذَوِي الْجَاهِ لِيْنِ

وقال بعض العلماء : هذه الآية قد تضمنت قواعد الشريعة ، فلم يبق فيها حسنة إلا وعثها ، ولا فضيلة إلا شرحتها فقوله : « خُذْ الْعَفْوَ » إيماء إلى جانب اللين ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء وأمور التكليف ، وقوله : « وَأْمُرْ بِالْعَرَفِ » تناول جميع المأمورات والمنهيات ، وأنها ما عرف في الشريعة حكمه ، واتفقت القلوب على علمه

وقوله : « وأعرض عن الجاهلين » تناول جانب الصفح بالصبر الذى يتأتى للعبد به كل مراد فى نفسه وغيره اه :

وَلِمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
(٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٣) .

شرح المفردات

النزغ كالنخس والنفز والوكر : إصابة الجسد برأس شيء محدد كالإبرة والمهماز والرمح ، والمراد به هنا نزغ الشيطان بإثارته داعية الشر والفساد فى النفس بداعية غضب أو شهوة بحيث تلجىء صاحبها إلى العمل بتأثيرها كما تنخس الدابة بالمهماز لتسرع ، والاستعاذة بالله الالتجاء إليه ليقيك من شر هذا النزغ ، والطوف والطواف بالشيء : الاستدارة به أو حوله ، وطيف الخيال : ما يرى فى النوم من مثال الشخص ، والمس : يراد به هنا ما ينال الإنسان من شر وأذى ، فقد ذكر فى التنزيل مس الضر والضراء والبأساء والسوء والعذاب . والمد والإمداد : الزيادة فى الشيء من جنسه ، واستعمل فى القرآن فى الخلق والتكوين كقوله : « وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ » وقوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ » وفى مد الناس فيما يذم ويضر كقوله : « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا » . والإقصار : التقصير ، ويقال أقصر عن الأمر : تركه وكف عنه وهو قادر عليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السابقة أمثل الطرق فى معاملة الناس بعضهم بعضاً مما لو عملوا بهديه لم يجد الفساد إلى نفوسهم سبيلاً - قفى على ذلك بالوصية التى

تتضمنها هذه الآيات الثلاث، وهى اتقاء إفساد الشياطين : أى شياطين الجن المستترة -
فالآية السالفة أمرت بالإعراض عن الجاهلين وهم السفهاء اتقاء لشرمهم - وهذه الآيات
أمرت بالاستعاذة بالله من الشياطين اتقاء لشرمهم .

الإيضاح

(وإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أى وإن
يثير فيك الشيطان داعية الشر والفساد بسبب غضب أو شهوة ، فيجعلك تتأثر وتتحرك
للعمل بها كما تتأثر الدابة إذا نخست بالمهماز فتسرع - فالجأ إلى الله وتوجه إليه
بقلبك ليعيدك من شر هذا النزغ ، حتى لا يهلكك على ما يزعمك من الشر ، وعبر
عن ذلك بلسانك فقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فإنه سميع لما تقول ، عليم بما
يحدثك به نفسك ويحيش به صدرك ، فهو يصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر ،
وقد دلت التجربة على أن الالتجاء إلى الله تعالى وذكرك بالقلب واللسان يصرف عن
النفس وسوسة الشيطان كما قال تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »
والخطاب فى الآية وما مثلها من الآيات موجه إلى كل مكلف يبلغه ، وأولهم الرسول
صلى الله عليه وسلم ، وقيل إنه موجه إلى الرسول والمراد أمته ، وقد روى مسلم عن عائشة
بوابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه
من الجن - قالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم منه » .
ثم بين سبحانه وجه سلامة من يستعيز من الشيطان من الوقوع فيها فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) أى إن
خيار المؤمنين وهم الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون - إذا ألم
بهم طائف من الشيطان ليحملهم بسوسسته على المعصية أو إيقاع البغضاء بينهم تذكروا
أن هذا من إغواء الشيطان عدوهم الذى أمر الله بالاستعاذة منه والالتجاء إليه فى الحفظ

من غوايته فإذا هم أولو بصيرة يرثون بأنفسهم أن تطيعه ، فهو إثم تأخذ وسوسته الغافلين عن ربهم الذين لا يراقبونه في شئونهم وأعمالهم ، ولا شيء أقوى على طرد وساوس الشيطان من ذكر الله ومراقبته في السر والعلن من قبل أنه يقوى في النفس حب الحق وداعى الخير ، ويضعف فيها الميل إلى الشرور والآثام ، فما مثل المؤمن المتقى الذى لا يتمكن الشيطان من إغوائه وإن تمكن من مسه ، إلا مثل الصحيح الجسم القوى المزاج النظيف البدن والثوب والمكان لا تجد النسم (الميكروبات) طريقا لإفساد مزاجه وإصابته بالأمراض ، فإن مسه شيء منها بدخوله في جسمه فتكت بها نسم الصحة فحالت دون فتكها به ، وهذا ما يسميه الأطباء (المناعة) .

فقوى الروح بالإيمان والتقوى غير قابل لتأثير الشيطان في نفسه ، لكن الشيطان دائما يتحين الفرص وعروض بعض الأهواء النفسية من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام ، حتى إذا وجد الفرصة سانحة افترسها ولا بس النفس وقوى فيها داعى الشر كالخشرات القذرة التى تعرض للنظيف إذا أهملها بالغفلة عنها فعلت فعلها ، وإذا تداركها نجا من شرها وضرها ، وماسر هذا إلا المناعة النفسية أو الروحية .

وإن الإنسان يشعر بتنازع دواعى الخير والشر في نفسه ، وأن لداعية الخير والحق ملكا يقويها ، ولداعية الشر والباطل شيطانا يقويها ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله « إن للشيطان لمة بآدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ » .

(وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) أى إن إخوان الشياطين وهم الجاهلون الذين لا يتقون الله - يتمكن الشياطين من إغوائهم فيمدونهم في غيهم وإفسادهم ، لأنهم لا يذكرون الله إذا شعروا بالنزوع إلى الشر ولا يستعيذون به من

نزغ الشيطان ومسه ، إما لأنهم لا يؤمنون بالله وإما لأنهم لا يؤمنون بأن للإنسان شيطانا من الجن يوسوس إليه ويغريه بالشر - ثم لا يقصرون ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم ، فذلك يصرون على الشر والفساد لفقد الوازع النفسى والواعظ القلبى .

والخلاصة - إن المؤمنين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على المعاصى تذكروا فأبصروا وحذروا وسلموا وإن ذلوا تابوا وأنبأوا ، وإن إخوان الشياطين تتمكن الشياطين من إغوائهم فيمدونهم فى غيهم ، ولا يكفون عن ذلك ، ومن ثم تراهم يستمرون فى شرورهم وآثامهم لفقد الوازع النفسى .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ
إِلَىٰ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَاطُ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أن شياطين الجن والإنس لا يقصرون فى الإغواء والإضلال - قفى على ذلك بذكر نوع خاص من هذا الإغواء وهو طلبهم آيات معينة ومعجزات مخصوصة تعتنا كما قال تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » أى إذا لم تأتهم بما طلبوا قالوا هلا افتعلتها وأتيت بها من عند نفسك ، لأنهم كانوا يقولون : « إِنْ هَذَا إِلَّا افْكٌ مُّفْتَرًى » .

الإيضاح

(وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبتيتها) قال الفراء تقول العرب : اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلته إذا افتعلته من قبل نفسك : أى وإذا لم يأتهم الرسول بآية قرآنية بأن تراخى نزول الوحى زمنا ما - قالوا لولا افتعلت نظمها وتأليفها واخترعتها

من تلقاء نفسك ، وقد يكون المعنى : وإذا لم تأتهم بآية مما اقترحوا عليك قالوا : هلا حباك الله بها بأن مكنك منها فاجتبتها وأبرزتها لنا ، إن كنت صادقاً في أن الله يقبل دعائك ويحبب التماسك .

(قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربّي) أى إنه ليس لى أن أقترح على ربى أمراً من الأمور وإنما أنتظر الوحي فكل شيء أكرمنى به قلته وإلا وجب على السكوت وترك الاقتراح ، وفي معنى الآية قوله تعالى : « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّا بُرْءُؤُا مِنْكُمْ وَإِنْ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ » .

وقد يكون المعنى ما أنا بقادر على إيجاد الآيات الكونية ولا بمفتاح على الله في طلبها وإنما أنا متبع لما يوحى إلى فضلاً من ربى علىّ إذ جعلنى مبلغاً عنه .

وقد وصف الله تعالى القرآن بثلاثة أوصاف :

(١) (هذا بصائر من ربكم) بصائر أى حجج بينة وبراهين نيرة للعقول في الدلالة على التوحيد والنبوة والمعاد : أى إن هذا القرآن الذى أوحاه الله إلىّ بصائر وحجج من ربكم ، من يتأملها حق التأمل يكن بصير العقل بما تدل عليه من الحق ، فعلى أدل عليه مما تطلبون من الآيات الكونية .

ونحو الآية قوله : « قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ قُمْ أَنْبُصِرْ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا » .

(٢) (وهو هدى) أى وهو هدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

(٣) (ورحمة لقوم يؤمنون) أى ورحمة في الدنيا والآخرة للذين يؤمنون به كما قال تعالى : « وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

وهذه الأوصاف له بالنسبة إلى معتنقيه ، ذاك أن منهم من بلغ في معارف التوحيد والنبوة والمعاد مرتبة أصبح بها كالمشاهد لها وهم السابقون الأولون من المهاجرين

والأنصار والقرآن هؤلاء بصائر، ومنهم من دون ذلك والقرآن لهم هدى ، وهو فى حق المؤمنين عامة رحمة لاجرم قال لقوم يؤمنون .

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)
وَإِذْ كُنْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) .

شرح المفردات

الاستماع : أخص من السمع ، لأنه إنما يكون بقصد ونية أو توجيه الحاسة إلى الكلام لإدراكه ، أما السمع : فيحصل ولو بغير قصد ، والإنصات : السكوت لأجل الاستماع حتى لا يكون شاغل عن الإحاطة بكل ما يقرأ ، والتضرع : إظهار الضراعة ، وهى الذلة والضعف والخضوع ، والخيفة : حالة الخوف والخشية ، ودون الجهر أى ذكرًا دون الجهر برفع الصوت وفوق التخافت والسر : بأن يذكر ذكرًا وسطًا ، والغدو : جمع غدوة ، وهى ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، والآصال : جمع أصيل ، وهو العشى من وقت العصر إلى غروب الشمس ، ويسبحونه : يزهونه عما لا يليق به ؛ ويسجدون : أى يصلون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مزايا القرآن الكريم وأنه آيات بينات للمؤمنين وهدى ورحمة لهم - قفى على ذلك بذكر الدلائل على الطريق الموصلة لنيل الرحمة به والفوز بالمنافع الجليلة التى ينطوى عليها وهى الإنصات له إذا قرئ .

الإيضاح

(وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) أى وإذا قرئ القرآن عليكم أيها المؤمنون فأصغوا له أسماكم لتفهموا آياته وتعتبروا بمواعظه ، وأنصتوا له لتعقلوه وتندبروه ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه ، ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه واعتباركم بعبده واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه فى آيه ؛ فمن استمع وأنصت كان جديراً أن يفهم ويتدبر ، ومن كان كذلك كان حرياً أن يُرحم .

والآية تدل على وجوب الاستماع والإنصات للقرآن إذا قرئ سواء أكان ذلك فى الصلاة أو فى خارجها وهو المروى عن الحسن البصرى ، لكن الجمهور خصوه بقراءة الرسول صلى الله عليه وسلم فى عهده وبقراءة الصلاة والخطبة من بعده ، ذلك أن إيجاب الاستماع والإنصات فى غير الصلاة والخطبة فيه حرج عظيم ، إذ يقتضى أن يترك له المشتغل بالعلم علمه والمشتغل بالحكم حكمه وكل ذى عمل عمله .

أما قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فكان بعضها تبليفاً للتزليل وبعضها وعظاً وإرشاداً ، فلا يسمع أحداً من المسلمين يسمعه يقرأ أن يعرض عن الاستماع أو يتكلم بما يشغله أو يشغل غيره عنه ، وهكذا شأن المصلى مع إمامه وخطيبه ، إذ هذا هو المقصود من الصلاة والواجب فيها .

وما يفعله جماهير الناس فى المحافل التى يقرأ فيها القرآن كلما تم وغيرها من ترك الاستماع والاشتغال بالأحاديث المختلفة - فكروه كراهة شديدة ولا سيما لمن كانوا على مقربة من القارئ ، ولا يجوز لقارئ أن يقرأ على قوم لا يستمعون له ، وإن كان أكثرهم يستمع وينصت فشد بعضهم بمناجاة صاحبه بالجانب بلا تهويز على القارئ ولا على المستمعين كانت المخالفة سهلة لا تقتضى ترك القراءة ولا تنافى الاستماع . والواجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته كما يحرص على تلاوته وأن يتأدب فى مجلس التلاوة .

وجملة الأمر في ذلك ألا يصدر من السامع ما يعد في اعتقاده أو في عرف الناس أنه مناف للأدب : ولا بأس بقراءة القرآن حال القيام والعقود والاضطجاع والمشي والركوب ، ولا تكره مع حدث أصغر ولا مع نجاسة ثوب أو بدن ، وإن كان يستحب الوضوء حين القراءة حال الحدث ولا سيما للقارى في المصحف .

وتستحب القراءة بالترتيل والنغم الدالة على التأثير والخشوع من غير تكلف ولا تصنع ، فقد روى أبو هريرة مرفوعا « ما أذن (استمع) الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن » رواه الشيخان .

(واذا ذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال) أى واذا ذكر ربك الذى خلقك ورباك بنعمه في نفسك بأن تستحضر معنى أسمائه وصفاته وآلائه وفضله عليك وحاجتك إليه ، متضرعا له خائفا منه راجيا نعمه ، واذا ذكره بلسانك مع ذكره في نفسك ذكرا دون الجهر برفع الصوت من القول وفوق التخافت والسر بل ذكرا قصدا وسطا كما قال تعالى : « وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا » .

وذكر اللسان وحده دون ذكر القلب وملاحظة معانى القول لا يجدى نفعا ، فكم رأينا من ذوى الأوراد والأدعية الذين يذكرون الله كثيرا بالمئين والآلاف ولا يفيدهم ذلك معرفة بالله ولا مراقبة له ، لأن ذلك أصبح عادة لهم تصحبها عادات أخرى منكرة ومن ثم كان الواجب الجمع بين ذكر القلب وذكر اللسان .

وأجل الأوقات لهذا الذكر وقتان أول النهار وآخره لأنهما طرفا النهار ، ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديرا بأن يراقب الله ولا ينساه فيما بينهما ، ويكون هذا الذكر في صلاتي الفجر والعصر اللتين تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار ويشهدان عند الله بما وجدا عليه العبد كما ورد في صحيح الآثار .

(ولا تكن من الغافلين) عن ذكر الله بل أشعر قلبك الخضوع له والخوف من

قدرته عليك إذا أنت غفلت عن ذلك ، ومن غفل عن ذكره تعالى مرض قلبه وضعف إيمانه واستحوذ عليه الشيطان فأنساه نفسه .

ثم ختم سبحانه هذه الآيات بما يؤيد به الأمر والنهي السابقين فقال :

(إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) أى إن ملائكة الرحمن المقربين عنده لا يستكبرون عن عبادته كما يستكبر عنها هؤلاء المشركون ، وينزهونه عن كل ما لا يليق بعظمته وكبريائه وجلاله ومن اتخذ الند والشريك كما يفعل الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وأنادوا يحبونهم كحبه وله وحده يصلون ويسجدون فلا يشركون معه أحدا ، فالواجب على كل مؤمن أن يجعل خواص الملائكة والمقربين إليه تعالى من حملة عرشه والحافين به أسوة حسنة له فى صلاته وسجوده وسائر عبادته .

وقد شرع الله لنا السجود عند تلاوة هذه الآية أو سماعها إرغاما لمن أبى ذلك من المشركين واقتداء بالملائكة المقربين ، ومثلها آيات أخرى ستأتى فى مواضعها ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول فى سجوده لذلك : « اللهم لك سجد سوادى ، وبك آمن فؤادى ، اللهم ارزقنى علما ينفعنى ، وعملا يرفعنى » .

وفى الآية إرشاد إلى أن الأفضل إخفاء الذكر وقد روى أحد قوله صلى الله عليه وسلم : « خير الذكر الخفى » فأين هذا مما يفعله جهلة زماننا الذين يجأرون فى ذكرهم بأصوات منكرة يستتبجها الدين والعقل والعرف ، ولا علاج لمثل هذا إلا حملة نكراء من رجال الدين عليهم حتى يتفهموا ماطلبه الدين وما رمى إليه من التضرع إليه تعالى خفية ودون الجهر بالقول ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأسمى وعلى آله وصحبه وسلم .

خلاصة لما اشتملت عليه السورة من الأغراض والمقاصد

يمكن إجمال القول فى الأغراض التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة فيما يلى :

(١) التوخييد : وهو يتضمن دعاء الله وحده وإخلاص الدين له وتخصيصه

بالعبادة فإنه شارع الدين فيجب اتباع ما أنزله ولا يجوز اتباع الأولياء من دونه في العقائد والعبادات ولا التحليل والتحريم الديني كما قال : « اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » .

وأن القول عليه بغير علم بتشريع أو غيره لا يجوز لأحد كما قال : « أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ » .

وأن جميع ما يشرعه لعباده حسن وما سواه قبيح : « قُلْ إِنْ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ » ونحن مأمورون بذكره تضرعاً وخفية سرا وجهراً .

(٢) الوحي والكتب، ويتضمن ذلك إنزال القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم للإذثار به والأمر باستماعه والإنصات له رجاء الرحمة بسماعه والاهتداء به وأمر المؤمنين باتباع المنزل عليهم من ربهم .

(٣) الرسالة والرسول، ويشمل ذلك بعثة الرسل إلى جميع بني آدم كما قال : « يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي » وسؤالهم يوم القيامة عن التبليغ وسؤال الأمم عن الإجابة - ومحىء الرسل بالبينات من الله تعالى تأييداً منه لهم - وعقاب الأمم على تكذيب الرسل كما ذكر في قصص نوح وهود وصالح وشعيب .

(٤) عالم الآخرة : ويتضمن ذلك البعث والإعادة في الآخرة كما قال : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » ووزن الأعمال يوم القيامة وترتيب الجزاء على ثقل الموازين وخفتها، وأن الجزاء بالعمل، وإقامة أهل الجنة الحجة على أهل النار، والحجاب بين أهل الجنة وأهل النار، ونداء أصحاب النار أصحاب الجنة، واعتراف أهل النار في الآخرة بصدق الرسل، وصفة أهل النار، وقيام الساعة وكونها تأتي بغتة .

(٥) أصول التشريع : ويتضمن هذا وجوب اتباع الدين على أنه قرينة ثابته فاعلموا عليها ويعاقب تاركها في الآخرة، وتحريم التقليد فيه، والأخذ بأراء البشر وتعظيم شأن النظر العقلي، والتفكير لتحصيل العلم بما يجب الإيمان به، ومعرفة آيات الله وسننه .

في خلقه والأمر بالعدل في الأحكام والأعمال كما قال : « قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ » وحصر أنواع المحرمات الدينية العامة في قوله : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » الخ ، وبيان أصول الفضائل الأدبية والتشريعية في قوله : « خُذِ الْعَقْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .

(٦) آيات الله وسننه في الكون - ويتضمن ذلك خلق السموات والأرض في ستة أيام واستواءه على العرش ونظام الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره - وخلق الرياح والمطر وإحياء الأرض به وإخراجه الثمرات من الأرض - خلق الناس من نفس واحدة وخلق زوجها منها ليسكن إليها وإعداد الزوجين للتناسل - وتقضيل الإنسان على من في الأرض جميعا - خلق بنى آدم مستعدين لمعرفة الله وإشهاد الرب إياهم على أنفسهم أنه ربهم وشهادتهم بذلك بمقتضى فطرتهم بما منحوه من العقل وحجته تعالى عليهم بذلك - خلقهم مستعدين للشرك وما يتبعه من الخرافات - ضرب الأمثال لاختلاف الاستعداد لكل من الخير والشر وعلامة كل منهما فيهم يكون بما يرى من ثماره - وفي ذلك تعليم لنا بطلب معرفة الشيء بأثره ومعرفة الأثر بمصدره - عداوة إبليس والشياطين من نسله لبني آدم وإغوائهم بالفساد مع ذكر حكمة ذلك ، بيان أن الشياطين أولياء المجرمين الذين لا يؤمنون - منة الله على البشر بتسهيل أسباب المعاش لهم - آيات الله تعالى ونعمه على بنى إسرائيل إلى نحو أولئك مما فيه سعادة البشر في دينهم ودنياهم .

(٧) سننه تعالى في الاجتماع وال عمران البشرى - ويتضمن ذلك إهلاك الله الأمم بظلمها لنفسها ولغيرها وأن للأمم آجالا لا تتقدم ولا تتأخر عنها بما اقتضته السنن الإلهية العامة - ابتلاء الله الأمم بالبأساء والضراء تارة وبالرخاء والنعماء أخرى - وأن الإيمان بما دعا إليه والتقوى في العمل بشرعه فعلا وترك سبب لكثرة بركات السماء والأرض وخيراتها على الأمة كما قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا »

لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ « وَأَنْ لِّلَّ فِي إِرْثِ الْأَرْضِ وَاسْتِخْلَافِ الْأُمَمِ وَالسِّيَادَةِ عَلَى الشُّعُوبِ سِنًا لَا تَبْدُلُ كَمَا قَالَ : « قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » أَيْ إِنْ الْأَرْضُ لَيْسَتْ رَهْنٌ تَصْرَفُ الْمُلُوكُ وَالِدُولُ بِقُدْرَتِهِمِ الذَّاتِيَّةِ فَتَدُومُ لَهُمْ وَإِنَّمَا هِيَ لِلَّهِ ، وَلِلَّهِ سِنَنٌ فِي سُلْبِهَا مِنْ قَوْمٍ وَجَعَلَهَا إِرْثًا لِقَوْمٍ آخَرِينَ - وَقَدْ جَعَلَ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَسْيَابَ الضَّعْفِ وَالتَّخَاذُلِ وَالْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ وَيَتَصَفَّوْنَ بِضِدِّهَا وَبِإِسَاءَاتِ مَا تَقْوَى بِهِ الْأُمَمُ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ كَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .

وإِنَّا نَرَى أَنَّ بَعْضَ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِاسْتِعَارِ الدُّوَلِ الْأُورُوبِيَّةِ لَهَا يَأْسَةُ مِنْ اسْتِقْلَالِهَا وَعِزَّتْهَا لَمَّا تَرَى مِنْ رَجْحَانِ ذَوِي السِّيَادَةِ عَلَيْهَا فِي الْقُوَى الْمَادِيَّةِ جِهْلًا مِنْهُمْ بِسُنَّةِ اللَّهِ الَّتِي بَيْنَهَا لِلنَّاسِ فَإِنْ رَجْحَانُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ فَوْقَ رَجْحَانِ قُوَى السَّائِدِينَ وَقَهَرَهُمْ إِيَّاهُمْ .

وَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَّقُوهُ تَعَالَى بِاتِّقَاءِ كُلِّ مَاقَصِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ ذُنُوبِ الْأُمَمِ الَّتِي هَلَكَ بِهَا مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ حَتَّى دَالَتْ دَوْلَتُهُمْ وَزَالَ مَلِكُهُمْ وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ .

سورة الأنفال

آياتها خمس وسبعون، نزلت بعد البقرة، وهى مدنية إلا من آية ٣٠ لغاية ٣٦ فكية. ومناسبتها لسورة الأعراف أنها فى بيان أحوال النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه. وسورة الأعراف مبينة لأحوال الرسل مع أقوامهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
(١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ
دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) .

شرح المفردات

الأنفال : واحدها نفل (بالتحريك) من النفل (بالنسكون) وهو الزيادة على
الواجب، ومنه صلاة النفل، والمراد به هنا الغنيمة - وقيل الغنيمة كل ما حصل مستغنا
بتعب أو بغير تعب وقبل الظفر أو بعده ، والنفل يحصل للإنسان قبل القسمة من
الغنيمة ، والبين : يطلق على الاتصال والافتراق وعلى كل ما بين طرفين كما قال :
« لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ » وذات البين : الصلة التى تربط بين شيئين ، والوجل :
الفرع والخوف ، والدرجات : منازل الرفعة ومراقى الكرامة .

المعنى الجملى

نزلت هذه الآيات فى غنائم غزوة بدر إذ تنازع فيها من حازها من الشبان وسائر المقاتلة فقد روى أبو داود والنسائى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من قتل قتيلًا فله كذا وكذا، ومن أسر أسيرًا فله كذا وكذا، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم فقالت المشيخة للشبان : إنا كنا لكم رداء ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا فاخترصموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت : (يسألونك عن الأنفال؟ قل الأنفال لله والرسول) » وروى أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى عن سعد بن أبى وقاص أنه قتل سعيد بن العاص وأخذ سيفه واستوهبه النبى صلى الله عليه وسلم فمنعه إياه ، وأن الآية نزلت فى ذلك فأعطاه إياه لأن الأمر كله إليه صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(يسألونك عن الأنفال) أى يسألونك أيها الرسول عن الأنفال لمن هى ؟ الشبان أم للشيوخ ؟ أو للمهاجرين هى ، أم للأنصار ؟ أم لهم جميعا ؟ .

(قل الأنفال لله والرسول) أى قل لهم الأنفال لله يحكم فيها بحكمه وللرسول يقسمها على حسب حكم الله تعالى وقد قسمها صلى الله عليه وسلم بالسواء .

وقد بين الله بهذا أن أمرها مفوض إلى الله ورسوله، ثم بين مصارفها وكيفية قسمتها فى آية الخمس : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » الخ، وللإمام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس وقد روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : قتل أخى عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبني فجئت به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت إن الله شفى صدرى من المشركين فهب لى هذا السيف فقال لى عليه السلام : ليس هذا لى ولالك ، اطرحه فى القبض فطرحته

وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ياسعد سألتنى السيف وليس لى وقد صار لى نغذه» .

(فاتقوا الله) فاجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة والتنازع والاختلاف الموجب لسخط الله لما فيه من المضار ولا سيما فى حال الحرب .

(وأصلحوا ذات بينكم) أى أصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق ، وهذا الإصلاح واجب شرعا وعليه تتوقف قوة الأمة وعزتها وبه يحفظ وحدتها ، روى عن عبادة بن الصامت قال : نزلت هذه الآية فىنا معشر أصحاب ندر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا ففرعه الله من أيدينا فجعله لرسوله فقسمه بين المسلمين على السواء وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين .

(وأطيعوا الله ورسوله) أى فى كل ما يأمر به وينهى عنه ويقضى ويحكم فالله تعالى مالك أمركم والرسول مبلغ عنه ومبين لوجيه بالقول والفعل والحكم .

وعلى هذه الطاعة تتوقف النجاة فى الآخرة والفوز بشواهاها ، والرسول صلى الله عليه وسلم يطاع فى اجتهاده فى أمر الدنيا المتعلق بالمصالح العامة ولا سيما فى الشؤون الحربية ، لأنه القائد العام فمخالفته تخل بالنظام وتؤدى إلى الفوضى التى لا تقوم للأمة معها قائمة ، ولأئمة المسلمين من حق الطاعة فى تنفيذ الشرع وإدارة شؤون الأمة وقيادة الجند ما كان له صلى الله عليه وسلم بشرط عدم معصية الله تعالى ومشاورة أولى الأمر .

(إن كنتم مؤمنين) أى إن كنتم كاملى الإيمان فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة إذ كماله يقتضى ذلك لأن الله أوجبه ، فالؤمن بالله حقا يكون له من نفسه وازع يسوقه إلى الطاعة واتقاء المعاصى إلا أن يعرض له ما يغلبه عليها أحيانا من ثورة شهوة أو سورة غضب ثم لا يلبث أن ينفى إلى أمر الله ويتوب إليه مما عرض له .

ثم وصف الله تعالى المؤمنين بخمس صفات تدل على وجوب التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله فقال :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ) أى إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا الْمُخْلِصُونَ فِي إِيمَانِهِمْ هُمُ الَّذِينَ اجْتَمَعَتْ فِيهِمْ خِصَالُ خَمْسٍ :

(١) (الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) أى الَّذِينَ إِذَا ذَكَرُوا اللَّهَ بِقُلُوبِهِمْ فَرَعُوا لِعَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ أَوْ لَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَمَحَاسِنِهِ خَلَقَهُ ، وَالآيَةُ بِمَعْنَى قَوْلِهِ : « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ، الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » .

(٢) (وَإِذَا تَلَمَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) أى وَإِذَا تَلَمَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ الْمُنْزَلَةُ عَلَى خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَادَتْهُمْ يَقِينًا فِي الْإِيمَانِ وَقُوَّةً فِي الْأَطْمِئْنَانِ وَنَشَاطًا فِي الْأَعْمَالِ ؛ إِذْ أَنْ تَظَاهَرَ الْأَدَلَّةُ وَتَعَاوَدَ الْحُجُجُ يَوْجِبُ زِيَادَةَ الْيَقِينِ ، فَأَبْرَاهِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ كَانَ مُؤْمِنًا بِأَحْيَاءِ اللَّهِ الْمَوْتَى حِينَ دَعَا رَبَّهُ أَنْ يَرِيهِ كَيْفَ يَحْيِيهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : « أَوَلَمْ تَوُمنْ ؟ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَائِمِي » فَمَقَامُ الطَّمَأْنِينَةِ فِي الْإِيمَانِ يَزِيدُ عَلَى مَا دُونِهِ مِنَ الْإِيمَانِ الْمَطْلُوقِ قُوَّةً وَكَمَالًا . وَيُرْوَى أَنَّ عَلِيًّا الْمُرْتَضَى قَالَ : لَوْ كُشِفَ عَنِ الْحُجَابِ مَا أَزْدَدَتْ يَقِينًا ، وَالْعِلْمُ التَّفْصِيلِيُّ فِي الْإِيمَانِ أَقْوَى مِنَ الْعِلْمِ الْإِجْمَالِيِّ ، فَمَنْ آمَنَ أَنَّ اللَّهَ عَلِمًا مُحِيطًا بِالْمَعْلُومَاتِ ، وَحَكَمًا قَامَ بِهَا نِظَامُ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ ، وَرَحْمَةً وَسَعَتْ جَمِيعَ الْخُلُوقَاتِ ، عَلِمًا إِجْمَالِيًّا وَلَوْ سَأَلْتَهُ أَنْ يَبَيِّنَ لَكَ شَوَاهِدَهُ فِي الْخَلْقِ لَعَجَزَ - لَا يَوْزَنُ إِيمَانُهُ بِإِيمَانِ صَاحِبِ الْعِلْمِ التَّفْصِيلِيِّ بِسُنَنِ اللَّهِ فِي الْكَائِنَاتِ فِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخُلُوقَاتِ وَلَا سِيَّامَا فِي الْعُصُورِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي اتَّسَعَتْ فِيهَا مَعَارِفُ الْبَشَرِ بِهَذِهِ السَّنَنِ ، فَعَرَفُوا مِنْهَا مَا لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ عَشْرَ مَعَارِدهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْقُرُونِ الْخَوَالِي .

وَفِي مَعْنَى الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ

القرح فى غزوة أحد : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » وقوله : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ » .

(٣) (وعلى ربهم يتوكلون) أى إنهم يتوكلون على ربهم وحده ولا يفوضون أمرهم إلى سواه ، فمن كان موقفنا بأن الله هو المدبر لأُمُوره وأُمُور العالم كله لا يمكن أن يكل شيئا منها إلى غيره .

وإذا كان الشرع والعقل حاكمين بأن الإنسان كسبا اختياريا كلفه الله العمل به وأنه يجازى على عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وجب على الإنسان أن يسعى فى تدبير أُمُور نفسه على حسب ما وضعه الله فى نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات وأن هذا الارتباط لم يكن إلا بتسخير الله تعالى وأن ما يناله باستعمالها فهو فضل من الله الذى سخرها وجعلها أسبابا وعلمه ذلك ، وأن ما لا يعرف له سبب يطلب به فالؤمن يتوكل على الله وحده وإليه يتوجه فيما يطلبه منه .

أما ترك الأسباب وتكسب سنن الله فى الخلق فهو جهل بالله جهل بدينه وجهل بسننه التى لا تتبدل ولا تتحول .

(٤) (الذين يقيمون الصلاة) أى يؤدونها مقومة كاملة فى صورتها وأركانها الظاهرة من قيام وركوع وسجود وقراءة وذكر وفى معناها وروحها الباطن من خشوع وخضوع فى مناجاة الرحمن ، واتعاظ وتدبر فى تلاوة القرآن ، وبهذا كله تحصل ثمرة الصلاة من الانتهاء عن الفجشاء والمنكر .

(٥) (وما رزقناهم ينفقون) أى وينفقون بعض ما رزقناهم فى وجوه البر فى الزكاة المفروضة وبالنفقات الواجبة والمندوبة للأقرب بين والمعوزين وفى مصالح الأمة ومرافقتها العامة التى بها يعايشونها بين الأمم ويكون عليها تقدمها وعمرانها .

(أولئك هم المؤمنون حقا) أى أولئك الذين اتصفوا بتلك الصفات هم دون

من سواهم هم المؤمنون حق الإيمان ، وهو نتيجة لتصديق إذعانى له أثر فى أعمال القلوب والجوارح وبذل المال فى سبيل الله .

روى الطبرانى عن الحارث بن مالك الأنصارى رضى الله عنه أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال أصبحت مؤمناً حقاً . قال : انظر ماذا تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظأت نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاوون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، فقال : يا حارثة عرفت فالزم (ثلاثاً) » وروى عن الحسن أن رجلاً سأله أمؤمن أنت ؟ قال الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن ، وإن كنت تسألنى عن قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله الخ فوالله لا أدرى أنا منهم أم لا . وبعد أن ذكر سبحانه أوصافهم ذكر جزاءهم عند ربهم فقال :

(لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) أى لهم درجات من الكرامة والزلفى لا يقدر قدرها عند ربهم الذى خلقهم وسواهم وهو القادر على جزائهم على جميل أعمالهم فى دار الجزاء والثواب ، والله تعالى فضل بعض الناس ورفعهم على بعض درجة أو درجات فى الدنيا وفى الآخرة وعند الله تعالى كما قال تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَهَابَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » وقال تعالى فى الرسل : « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » الآية . وقال فى درجات الدنيا وحدها : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ولهم مغفرة من الله لذنوبهم التى سبقت وصولهم إلى درجة السكال ، ولهم رزق

كريم وهو ما أعدّ لهم من نعيم الجنة ، والكريم تصف به العرب كل شئ حسن لا قبح فيه ولا شكوى .

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى
الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَمْدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ
وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ
بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) .

شرح المفردات

الشوكة : الحدة والقوة ، وأصلها واحدة الشوك ، شبهوا بها أسنة الرماح ،
والطائفتان : طائفة العير الآتية من الشام ، وطائفة النفير التي جاءت من مكة
للنجدة ، وغير ذات الشوكة : هي العير ، ودابر القوم : آخرهم الذي يأتي في دبرهم
ويكون من ورائهم ، ويحق الحق : أى يعز الإسلام لأنه الحق ، ويبطل الباطل :
أى يزيل الباطل وهو الشرك ويمحقه .

المعنى الجملى

بدئت القصة بغزوة بدر الكبرى التي كانت أول فوز للمؤمنين وخذلان
للمشركين مع بيان أحكام الغنائم التي غنمها المسلمون منهم - ثم ذكر هنا أول القصة
وهو خروج النبي صلى الله عليه وسلم من بيته وكرهة فريق من المؤمنين لذلك ، وقد
كان من مقتضى الإيمان الإذعان لطاعته والرضا بما يفعله بأمر ربه وما يحكم أو يأمر به .

الإيضاح

(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) أى إن الأنفال لله يحكم فيها بالحق ، ولرسوله أن يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها من كانوا يرون أنهم أحق بها ، كأخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين ، وقد كان كثير من المؤمنين كارهين لذلك لعدم استعدادهم للقتال ولتحو هذا من الأسباب التى تعلم مما يلى .

وبيان ذلك — أن رسول الله لما سمع بأبى سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم وقال هذه غير قریش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فحق بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يكونوا يظنون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا — وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز من يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفا على أمر الناس حتى أصاب خيرا من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتى قریشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها فى أصحابه فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له ذفران حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قریش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وأخبرهم عن قریش فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » ولكن اذهب أنت وربك إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغناد (مدينة باليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له بخير ثم قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : « أشيروا على أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا ، نمنعك مما تمنع منه آبائنا ونساءنا ، وكان رسول الله صل الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى نصرته إلا بمن دمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ؛ قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال أجل ، فقال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرك الله ، فوالذي بعثك بالحق لنن استعرضت بنا هذا البحر نخضته لخصناه معك ، ما يتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول سعد ونشطه ذلك ثم قال : « سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين : العير القادمة من الشام وعلى رأسها أبو سفيان ، أو النفير الآتي من مكة لنجدتهم وعلى رأسهم أبو جهل والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

(يجادلونك في الحق بعد ما تبين) أى يجادلوك المؤمنون في الحق وهو تلقى النفير لا يشارهم عليه تلقى العير كراهية للقاء المشركين وإنكارا لمسير قريش حين ذكروا لهم بعد أن تبين لهم الحق بإخبارك أنهم سينصرون أينما توجهوا - ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير ، وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب وما كان هذا إلا لكراهتهم للقتال .

وبيان هذا أن المسلمين كانوا في حال ضعف ، فكان من حكمة الله أن وعدهم أولا إحدى طائفتي قريش تكون لهم على طريق الإيهام لا على طريق التعيين ، فتعلقت آمالهم بطائفة العير القادمة من الشام لأنها كسب عظيم لامشقة في إحرازه لضعف الحامية ، فلما ظهر لهم أنها فاتتهم ونجت إذ ذهبت من طريق سيف البحر (طريق الشاطئ) وأن طائفة النفير خرجت من مكة بكل ماله قريش من قوة ،

وأنها قد قربت منهم ووجب عليهم قتالها إذ تبين أنها هي الطائفة التي وعدهم الله تعالى بالنصر عليها - صعب على بعضهم لقاءها على قتلهم وكثرتها وضعفهم وقوتها وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها ، وطفقوا يعتذرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يخرجوا إلا للغير لأنه لم يذكر لهم قتالاً فيستعدوا له .

ولكن الحق تبين بحيث لم يبين للجدل فيه وجه - فلا ينبغي أن يقال إن طائفة الغير هي مراد الله لأنها نجت، ولا بأن يقال إننا لم نعد للقتال عدته لأنه مهما تكن حالها فلا بد من الظفر بها لوعده الله بالظفر عليها ، فإذا لا وجه للجدل إلا الجبن والخوف من القتال .

(كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) أى كأنهم لشدة ما هم فيه من جزع ورهب يساقون إلى موت محقق لاهرب منه لوجود أماراته وأسبابه حتى كأنهم ينظرون إليه بأعينهم ، إذ ما بين حالهم وحال عدوهم من التفاوت في القوة والعدد والخيال والزاد قاض بذلك وليسكن الله تعالى وعد رسوله والمؤمنين بالظفر والنصر عليهم (ووعده لا يتخلف) أما هذه الأسباب العادية فكثيرا ماتتخلف ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله الذي بيده كل شيء وهو القادر على كل شيء ، وهكذا أنجز الله وعده لرسوله والمؤمنين وكان لهم الظفر والفوز على عدوهم وكان هذا نصرا مؤزرا للمسلمين على المشركين ، وبه علا ذكرهم في البلاد العربية وهاجم قاصيها ودانيها .

(وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) أى وإذ كروا حين وعد الله إياكم أن إحدى الطائفتين لكم تتسلطون عليها وتتصرفون فيها .
(وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) أى تتمنون أن الطائفة غير ذات الشوكة : (وهي الغير) تكون لكم لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا ، وعبر عنها بذلك تعريضا لكراهم للقتال وطمعهم في المال .

(ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) أى ويريد الله بوعده غير ما أردتم ، يريد أن يثبت الحق الذي أراده بكلماته ، أى بآياته المنزلة على رسوله في محاربة ذات

الشوكة ، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب (بئر) بدر .

(ويقطع دابر الكافرين) أى يهلك المعاندين جملة ويستأصل شأقتهم ويمحق قوتهم ، وقد كان الظفر بيدر فاتحة الظفر فيما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة .

قال صاحب الكشاف : يعنى أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الأمور وألا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم ، والله عز وجل يريد معالى الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين ، وشتان بين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسر قوتهم بضعفكم وغلب كثرتهم بقلبتكم وأعزكم وأذلهم اه .

(ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) أى وعد الله بما وعد وأراد بإحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحق الحق وهو الإسلام ويثبتته ويبطل الباطل وهو الشرك ويزيله ، ولو كره المجرمون أولو الاعتداء والطغيان ، ولا يكون ذلك بالاستيلاء على العير بل بقتل أئمة الكفر من صناديد قريش الذين خرجوا إليكم من مكة ليستأصلوكم .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهَّرَ بِكُمْ بِهِ وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأُضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأُضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) .

شرح المفردات

الاستغاثة : طلب العوث ، وهو التخليص من الشدة والنقمة ، وممدكم : ناصركم
 ومغيثكم ، ومردفين : من أردفه إذا أركبه ورائه ، وتطمئن تسكن بعد ذلك
 الزلزال والخوف الذى عرض لكم فى جملتكم ، وعزير : أى غالب على أمره ، حكيم
 لا يضع شيئاً فى غير موضعه ، ويغشيك : يجعله مغطياً لكم ومحيطاً بكم ، والنعاس :
 فتور فى الحواس وأعصاب الرأس يعقبه النوم فهو يضعف الإدراك ولا يزيله كله
 فإذا أزاله كان نوماً ، والرجز والرجس : الركب : الشئ المستقذر حساً أو معنى ، ويراد
 به هنا وسوسة الشيطان ، والربط على القلوب تثبيتها وتوطئتها على الصبر ، والرعب :
 الخوف الذى يملأ القلب ، فوق الأعناق : أى الرؤوس ، والبنان : أطراف الأصابع
 من اليدين والرجلين ، شاقوا : أى عادوا وخالفوا ، وسميت العداوة مشاقة لأن كلا من
 المتعادين يكون فى شق غير الذى يكون فيه الآخر .

المعنى الجملى

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال : حدثنى
 عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى
 أصحابه وهم ثلثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف أو يزيدون
 فاستقبل نبي الله القبلة ثم مديده وجعل يهتف بربه : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ،
 اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبلاً
 القبلة حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه

وقال يابني الله ، كفناك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر سبعون . وروى البخاري عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر « اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك ، فخرج وهو يقول : « سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّونَ الدُّبُرَ » .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم بإعلام القرآن أن للنصر في القتال أسبابا حسية ومعنوية، وأن لله سننا مطردة وهو مع ذلك يعلم أن لله توفيقا يمنحه من شاء من خلقه فينصر به الضعفاء على الأقوياء والفئة القليلة على الفئة الكثيرة بما لا ينقض به سننه ، وأن له فوق ذلك آيات يؤيد بها رسله ، فلما عرف من ضعف المؤمنين وقتهم ما عرف استغاث الله تعالى ودعاه ليؤيدهم بالقوة المعنوية التي تكون أجدر بالنصر من القوة المادية، وكان كل من علم بدعائه يتأسى به في هذا الدعاء ويستغيث به كما استغاث .

الإيضاح

(إذ تستغيثون ربكم) أى اذكروا وقت استغاثتكم ربكم قائلين ربنا انصرنا على عدوك ، يا غياث المستغيثين أغثنا ، والأمر بهذا الذكر لبيان نعمة الله عليهم حين التجأهم إليه إذ ضاقت عليهم الحيل وطلبوا مخلصا من تلك الشدة فاستجاب دعاءهم كما قال :

(فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) أى فأجاب دعاءكم بأني ممدكم بألف من الملائكة يردف بعضهم بعضا ويتبعه ، وهذا الألف هي وجوههم وأعيانهم - وبهذا يطابق ما جاء في سورة آل عمران : « بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ . بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » .

(وما جعله الله إلا بشري وتطمئن به قلوبكم) أى وما جعل ذلك الإمداد إلا بشري لكم بأنكم تنصرون ولتسكن به قلوبكم من الزلزال الذى عرض لكم فكان من مجاداتكم للرسول فى أمر القتال ما كان وبذا تلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر .

(وما النصر إلا من عند الله) أى ليس النصر إلا من عند الله دون غيره من الملائكة أو سواهم من الأسباب ، فهو سبحانه الفاعل للنصر والمسخر له كتسخيره للأسباب الحسية والمعنوية ، ولا سيما ما لا كسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين فتفيد أرواحهم الثبات والاطمئنان .

(إن الله عزيز حكيم) أى إنه تعالى غالب على أمره ، حكيم لا يضيع شيئاً فى غير موضعه .

وظاهر الآية يدل على أن لإزال الملائكة وإمداد المسلمين بهم فائدة معنوية ، فهو يؤثر فى القلوب فيزيدها قوة وإن لم يكونوا محاربين ، وهناك روايات تدل على أنهم قاتلوا فعلاً .

وفى يوم أحد وعدهم الله وعداً معلقاً على الصبر والتقوى ولكن الشرط الأخير قد انتفى فانتفى ما علق عليه .

(إذ يغشاكم النعاس أمنة منه) أى إنه تعالى ألقى عليهم النعاس حتى غشاهم وغلب عليهم تأمينا لهم من الخوف الذى كان يساورهم من الفرق الشاسع بينهم وبين عدوهم فى العدد والعدة ونحو ذلك ، إذ من غلب عليه النعاس لا يشعر بالخوف ، كما أن الخائف لا ينام ولكن قد ينعس إذ تفرتمنه الحواس والأعصاب .

روى البيهقى فى الدلائل عن على كرم الله وجهه قال : « ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى تحت شجرة حتى أصبح » ، والمتبادر من الآية أن النعاس كان فى أثناء القتال ، وهو يمنع الخوف لأنه ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر .

(وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به، ويذهب عنكم رجز الشيطان، ويربط على قلوبكم، ويثبت به الأقدام) روى ابن المنذر من طريق ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنه : أن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء فظمى المسلمون وصلوا مجنبيين محدثين ، وكان بينهم رمال فالتقى الشيطان في قلوبهم الحزن وقال : أتزعون أن فيكم نبيا وأنكم أولياء وتصلون مجنبيين محدثين فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء فشرب المسلمون وتطهروا وثبتت أقدامهم (أى على الرمل اللين لتلبده بالمطر) وذهبت وسوسته .

وقال ابن القيم : أنزل الله في تلك الليلة مطرا واجدا فكان على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدم وكان على المسلمين طلا طهرهم به وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الأرض ، وصلب الرمل ، وثبت الأقدام ومهد به المنزل ، وربط على قلوبهم ، فسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداها من المياه ونزل رسول الله وأصحابه على الحياض وبنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش على تل مشرف على المعركة ، ومشى في موضع المعركة وجعل يشير بيده (هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى فما تعدى أحد منهم موضع إشارته) اهـ .

وقال ابن إسحاق : «إن الحُبَاب بن المنذر قال يا رسول الله : أرايت هذا المنزل ؟ أمئزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : (بل هو الحرب والرأى والمكيدة) قال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فنزله ثم تغور ما وراءه من القُلُب (الآبار غير المبنية) ثم بنى عليها حوضا فتملؤه ماء ثم تقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أشرت بالرأى ، وفعلوا ذلك » .

وقد فهم من الآية أنه كان لهذا المطر أربع فوائد :

(١) تطهيرهم حسياً بالنظافة التي تنشط الأعضاء وتدخل السرور على النفس وشرعياً بالغسل من الجنابة والوضوء من الحدث الأصغر .

(٢) إذهاب رجس الشيطان ووسوسته .

(٣) الربط على القلوب : أى توطين النفس على الصبر وثبيتها كما قال : « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا » وهذا لما للمطر من المنافع التي تكون أثناء القتال .

(٤) تثبيت الأقدام به ، ذلك أن هذا المطر لبد الرمل وصيره بحيث لا تنغوص فيه أرجلهم فقدروا على المشى كيف أرادوا ، ولولاه لما قدروا على ذلك .

(إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا) أى يثبت الله الأقدام بالمطر وقت الكفاح الذى يوحى فيه ربك إلى الملائكة أمراً لهم أن يثبتوا به قلوب المؤمنين ويقووا عزائمهم فيلهموها تذكر وعد الله لرسوله وأنه لا يخلف الميعاد ، فالمراد بالمعية فى قوله (أنى معكم) معية الإعانة والنصر والتأييد فى مواطن الجِدِّ ومقاساة شدائد القتال .

وهذه منة خفية أظهرها الله تعالى ليشكروها عليها وقد أخرج البيهقي فى الدلائل أن الملك كان يأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه فيقول : أبشروا فإنهم ليسوا بشيء والله معكم ، كرموا عليهم .

وقال الزجاج : كان ذلك بأشياء يلقيونها فى قلوبهم تصح بها عزائمهم ويتأكد جدهم ، وللملك قوة إلقاء الخير ويقال له إلهام ، كما أن للشيطان قوة إلقاء الشر ويقال لها وسوسة .

(سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) هذا تفسير لقوله إني معكم كأنه قيل إني معكم فى إعانتكم بإلقاء الرعب فى قلوبهم .

(فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) أى فاضربوا الهام وافلقوا

الروس واحتزوا الرقاب وقطعوها وقطعوا الأيدي ذات البنان التي هي أداة التصرف في الضرب وغيره .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمر بين القتلى بيد بعد انتهاء المعركة ويقول (نفلق هاما) فيتم البيت أبو بكر رضى الله عنه وهو :

نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلم

وفى ذلك دليل على ألمه صلوات الله عليه من الضرورة التي ألجأته إلى قتل صناديد قومه ، فالمشركون هم الذين ظلموه هو ومن آمن به حتى أخرجهم من وطنهم بغيا وعدوانا ثم تبعهم إلى دار هجرتهم يقاتلونهم فيها .

ثم بين سبب ذلك التأييد والنصر فقال :

(ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى ذلك الذى ذكر من تأييد الله للمؤمنين وخذلانه للمشركين بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله : أى عادوهما فكان كل منهما فى شق غير الذى فيه الآخر ، فالله هو الحق والداعى إلى الحق ، ورسوله هو المبلغ عنه ، والمشركون على الباطل وما يستلزمه من الشرور والآثام والخرافات .

(ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) أى ومن يخالف أمر الله ورسوله فهو الحقيق بعقابه فلا أجدر بالعقاب من المشاقين له الذين يؤثرون الشرك وعبادة الطاغوت على توحيدهم تعالى وعبادته ، ويعتمدون على أوليائه بمحاولة ردّهم عن دينهم بالقوة والقهر وإخراجهم من ديارهم ثم إتياعهم إلى مهجرهم يقاتلونهم فيه .

(ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) أى هذا العقاب الذى عجلت لكم أيها الكافرون المشاقون لله ورسوله فى الدنيا من انكسار وانهمزام مع الخزي والنذل أمام فئة قليلة العدد والعُدَد من المسلمين ، فذوقوه عاجلا ، واعلموا أن لكم فى الآخرة عذاب النار إن أصررتم على كفركم ، وهو شر العذابين وأبهما .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
 الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا
 إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَابْسِ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ
 تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ
 الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ
 مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ، وَإِنْ
 تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا
 وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) .

شرح المفردات

الزحف : من زحف إذا مشى على بطنه كالحية أو دبّ على مقعده كالصبي
 أو على ركبتيه ، أو مشى بثقل في الحركة واتصال وتقارب في الخطو كزحف صغار
 الجراد والعسكر المتوجه إلى العدو لأنه لكثرتهم وتكاثرهم يرى كأنه يزحف إذا الكل
 يرى كجسم واحد متصل فتحسن حركته بطيئة وإن كانت في الواقع سريعة ،
 والأدبار : واحدها دبر وهو الخلف ، ومقابله القبل ومن ثم يكنى بهما عن السوءتين ،
 وتولية الدبر والأدبار : يراد بهما الهزيمة لأن المنهزم يجعل خصمه متوجها إلى دبره
 ومؤخره ، والمتحرف للقتال وغيره : هو المنحرف عن جانب إلى آخر ، من الحرف وهو
 الطرف ، والفئة : الطائفة من الناس ، والمأوى : الملجأ الذي يأوى إليه الإنسان ،
 والموهن : المضعف ، من أوهنه إذا أضعفه ، والسكيد : التدبير الذي يقصد به غير ظاهره
 فتسوء عاقبة من يقصد به ، والاستفتاح : طلب الفتح ، والفصل في الأمر ؛ كالنصر
 في الحرب .

المعنى الجملى

ذكر الله تعالى في هذه الآيات حكماً عاماً لما سيقع من الوقائع والحروب في مستأنف الزمان ، وجاء به في أثناء قصة بدر عناية بشأنه وحثاً للمؤمنين على المحافظة عليه .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً) أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله ، إذا لقيتم الذين كفروا حال كونهم زاحفين لقتالكم زحفاً ، إذا الكفار هم الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين فقاتلهم ببدر .

(فلا تولوهم الأدبار) أى فلا تولوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين منهم وإن كانوا أكثر منكم عدداً وعدة ، ولكن اثبتوا لهم فإن الله معكم عليهم .

(ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) أى ومن يولهم حين تلقونهم ظهره إلا متحرفاً لمكان رآه أحوج إلى القتال فيه ، أو لضرب من ضروبه رآه أنكى بالعدو كأن يوم خصمه أنه منهزم منه ليغريه باتباعه حتى إذا انفرد عن أنصاره كرّ عليه فقتله - أو منتقلاً إلى فئة من المؤمنين في جهة غير التي كان فيها ليشد أزهم وينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم فصاروا أحوج إليه ممن كان معهم - من فعل ذلك فقد رجع متلبساً بغضب عظيم من الله ، ومأواه الذي يلجأ إليه في الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير هي :

ذاك أن المنهزم أراد أن يأوى إلى مكان يأمن فيه الهلاك فعوقب بجعل عاقبته دار الهلاك والعذاب الدائم وجوزى بضد غرضه .

وفي الآية دلالة على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصي ، وجاء التصريح بذلك في صحيح الأحاديث فقد روى الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً « اجتنبوا

السبع الموبقات (المهلكات) قالوا يارسول الله وما هن؟ . قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وقد خصص بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لا يزيدون على ضعف المؤمنين . قال الشافعي : إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين للقتال أو متحيزين إلى فئة ، وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ، ولا يستوجبون السخط عندى من الله لو ولوا عنهم على غير التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة . وروى عن ابن عباس قال : من فرّ من ثلاثة فلم يفر ، ومن فرّ من اثنين فقد فرّ .

(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) أى يأيها الذين آمنوا لا تولوا الكفار ظهوركم أبداً فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم بنصر الله تعالى ، انظروا إلى ما أوتيتم من نصر عليهم على قلة عددكم وعُدَّتكم وكثرتهم واستعدادهم ، ولم يكن ذلك إلا بتأييد من الله تعالى لكم وربطه على قلوبكم وتثبيت أقدامكم ، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذى أفنى كثيرا منهم بقوتكم وعُدَّتكم ، ولكن قتلهم بأيديكم ، بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملابستها لأرواحكم ، وبإلقائه الرعب فى قلوبهم ، وهذا بعينه هو ما جاء فى قوله تعالى : « فَأَتَوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِرُهُمْ وَيَنْصَرُّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ » .

والمؤمن أخرى بالصبر الذى هو من أجلّ عوامل النصر من الكافر ، إذ هو أقلّ حرصا على متاع الدنيا وأعظم رجاء لله والدار الآخرة ، يؤيد هذا قوله تعالى : « وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمِنُونَ كَمَا تَأْمِنُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ » .

ثم انتقل من خطاب المؤمنين الذين قتلوا أولئك الصناديد بسيوفهم إلى خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو قائدهم الأعظم فقال :

(وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) أى وما رميت أيها الرسول أحدا من المشركين فى الوقت الذى رميت فيه القبضة من التراب بإلقائها فى الهواء فأصابت وجوههم فإن مافعلته لا يكون له من التأثير مثل ماحدث ، ولكن الله رمى وجوههم كلهم بذلك التراب الذى ألقيته فى الهواء على قلته أو بعد تكثيره بمحض قدرته . فقد روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم رمى المشركين يومئذ بقبضة من التراب وقال : شأته الوجوه ثلاثا ، فأعقبت رميته هزيمتهم » .

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال فى استغاثته يوم بدر « يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا » قال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها وجوههم ، ففعل لما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين .

والفرق بين قتل المسالمين للكفار وبين رمى النبي صلى الله عليه وسلم إياهم بالتراب : أن الأول فعل من أفعالهم المقدورة لهم على حسب سنن الله فى الأسباب الدنيوية ، وأن الثانى لم يكن سببا عاديا لإصابتهم وهزيمتهم ، لأمشاهد كضرب أصحابه لأعناق المشركين ، ولا غير مشاهد إذ هو لا يكون سببا لشكاية أعينهم وشوهة وجوههم لقلته . وبعده عن راميهِ وكونهم غير مستقبلين له كلهم ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى بيان نقص الأول وعدم استقلاله بالسببية وبيان أنه لولا تأييد الله ونصره لما وصل كسبهم الحظ إلى هذا القتل ؛ لأنك قد علمت ما كان من خوفهم وكرهاتهم للقتال وبمجادلة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهم لو ظلوا على هذه الحال مع قتلهم وضعفهم لكان مقتضى الأسباب العادية أن يحققهم المشركون محققا .

فالفرق بين فعله تعالى فى القتل وفعله فى الرمي - أن الأول عبارة عن تسخير تعالى لهم أسباب القتل كما هو الحال فى جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية من كونها لا تستقل فى حصول غاياتها إلا بفعل الله وتسخيره لهم ، وللأسباب التى لا يصل إليها كسبهم عادة كما بين ذلك سبحانه بقوله « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ »

أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ » فالإنسان يحرث الأرض ويلقى فيها البذر ولكنه لا يملك إنزال المطر ولا إنبات الحب وتغذيته بمختلف عناصر التربة ولا دفع الجوامح عنه .

وأن الثاني من فعله تعالى وحده بدون كسب عادى للنبي صلى الله عليه وسلم في تأثيره ، فالرمى منه كان صوريا لتظهر الآية على يده صلى الله عليه وسلم فما مثله في ذلك إلا مثل أخيه موسى صلى الله عليه وسلم في إلقائه العصا « فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى » .

(وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) أى فعل الله ما ذكر لإقامته حجته وتأييد رسوله ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا بالنصر والغنيمة وحسن السمعة .

(إن الله سميع عليم) أى إنه تعالى سميع لما كان من استغاثة الرسول والمؤمنين بهم ودعائهم إياه وحده ولكل نداء وكلام ، عليم بنياتهم الباعثة عليه والعواقب التي تترتب عليه .

(ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) أى ذلكم البلاء الحسن هو الذي سمعتم - إلى أنه تعالى مضعف كيد الكافرين ومكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد والإصلاح قبل أن يقوى أمرها وتشتد .

وبعد أن ذكر خذلانهم وإضعاف كيدهم - انتقل منه إلى توبيخهم على استنصارهم إياه على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد روى محمد بن إسحاق عن الزهري أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينما كان أقطع للرحم وأتى بما لا يعرف فأحنه الغداة ، فكان ذلك منه استفتاحا . وقال السدي : كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين فأجابهم الله بقوله :

(إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) أى إن تستنصروا لأعلى الجندين وأهداهما فقد جاءكم الفتح ونصر أعلاهما وأهداهما .

وهذا من قبيل التهمك بهم ؛ لأنه قد جاءهم الهلاك والذلة .

(وإن تنتهوا فهو خير لكم) أى وإن تنتهوا عن عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وقتاله فلا انتهاء خير لكم ؛ لأنكم قد ذقتم من الحرب ما ذقتم من قتل وأسر بسبب ذلك العدوان .

(وإن تعودوا نعد) أى وإن تعودوا إلى حربيه وقتاله نعد إلى مثل ما رأيتم من الفتح له عليكم حتى يحىء الفتح الأعظم الذى به تدول الدولة للمؤمنين عليكم وبه يذل شرككم وتذهب ريحكم .

(ولن تغنى عنكم فتكم شيئا ولو كثرت) أى ولن يدفع عنكم رهطكم شيئا من بأس الله وشديد نعمته ولو كثرت عددا ، إذ لا تكون الكثرة وسيلة من وسائل النصر أمام القلة إلا إذا تساوت مع القلة فى أمور كثيرة كالصبر والثبات والثقة بالله تعالى ، فهو الذى بيده النصر والقوة .

(وأن الله مع المؤمنين) بمعونته وتوفيقه فلا تضرهم قتلهم ولا كثرة عددهم فهو يؤتى النصر من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) .

المعنى الجلى

بعد أن هدد الله المشركين بقوله : وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فتكم شيئا - قفى على ذلك بتأديب المؤمنين بالأمر بطاعة الرسول وإجابة دعوته إذا دعا للقتال فى سبيل حياطة الدين وصد من يمنع نشره ويقف فى طريق تبليغ دعوته فقال :

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون) أى أطيعوا الله ورسوله فى الإجابة إلى الجهاد وفى الإجابة إلى ترك المسال إذا أمر الله بتركه ولا تعرضوا عن طاعته وعن قبول قوله وعن معونته فى الجهاد وأنتم تسمعون كلام الله الداعى إلى وجوب طاعته ومولاته ونصره ، ولا شك أن المراد بالسماح هنا سماع الفهم والتصديق بما يسمع كما هو شأن المؤمنين الذين من دأبهم أن يقولوا « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

(ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) وهؤلاء القائلون فريقان : فريق الكفار المعاندين ، وفريق المنافقين الذين قال فى بعض منهم « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ؟ » .

(إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) الدواب، واحدها دابة : وهى كل مادب على الأرض كما قال « وَاللَّهُ خَاقٌ كُلِّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ » وقل أن يستعمل فى الإنسان بل الغالب أن يستعمل فى الحشرات ودواب الركوب ، فإذا استعمل فيه كان ذلك فى موضع الاحتقار ، أى إن شر مادب على الأرض فى حكم الله وقضائه هم الصم الذين لا يصغون بأسماعهم ليعرفوا الحق ويعتبروا بالموعظة الحسنة فهم بفقدهم لمنفعة السمع كانوا كأنهم فقدوا حاسته ، البكم الذين لا يقولون الحق ، ومن ثم كانوا كأنهم فقدوا المنطق ، الذين لا يعقلون الفرق بين الحق والباطل والخير والشر ؛ إذ هم لوعقلوا لطلبوه واهتدوا إلى مافيه المنفعة والفائدة لهم كما قال « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » .

والخلاصة — إنهم حين فقدوا منفعة السمع والنطق والعقل كانوا كأنهم فقدوا هذه المشاعر والقوى بأن خلقوا خداجا ناقصى هذه المشاعر أو طرأت عليهم آفات

أذهبت هذه القوى بل هم شر منهم ، لأن هذه المشاعر خلقت لهم فأفسدوها على أنفسهم إذ لم يستعملوها فيما خلقت لأجله حين التكليف .

(ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) أى ولو علم الله فيهم استعدادا للإيمان والهداية بنور النبوة ولم يفسد قيس الفطرة سوء القدوة وفساد التربية ، لأسمعهم بتوفيقه الكتاب والحكمة سماع تدبر وتفهم ، ولكنه قد علم أنه لاخير فيهم فهم ممن ختم الله على قلوبهم وأحاطت بهم خطاياهم .

(ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) أى ولو أسمعهم - وقد علم أنه لاخير فيهم - لتولوا عن القبول والإذعان وهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به كراهة وعنادا للداعى إليه ولأهله ففقدوا الاستعداد لقبول الحق والخير فقدراً تاماً ، لاقدراً عارضاً موقوتاً .

والخلاصة - إن للسمع درجات باعتبار ما يطالب الله به من الاهتداء بكتابه :

(١) أن يعتمد من يتلى عليه ألا يسمعه مبارزة له بالعدوان بادى ذى بدء خوفاً من سلطانه على القلوب أن يغلبهم .

(٢) أن يستمع وهو لا ينوى أن يفهم ويتدبر كالمناققين الذين قال الله فيهم : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفاً » .

(٣) أن يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض ، كما كان يفعل المعاندون من المشركين وأهل الكتاب وقت التنزيل وفى كل حين إذا استمعوا إلى القرآن أو نظروا فيه .

(٤) أن يسمع ليفهم ويتدبر ثم يحكم له أو عليه ، وهذا هو المنصف ، وكمن السامعين أو القارئین آمن بعد أن نظر وتأمل ؛ فقد نظر طيب فرنسى فى ترجمة القرآن فرأى أن كل النظريات الطبية التى فيه كالطهارة والاعتدال فى المأكول والمشرب وعدم الإسراف فيهما ونحو ذلك من المسائل التى فيها محافظة على الصحة

— توافق أحدث النظريات التي استقر عليها رأى الأطباء في هذا العصر فرغب في هذا كله وأسلم ؛ ورأى ربان بارجة انكليزية ترجمة القرآن واستقصى كل ما فيها من الكلام عن البحار والرياح فظن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من كبار الملاحين في البحار ، و بعد أن سأل عن ذلك وعرف أنه لم يركب البحر قط ، وهو مع ذلك أمي لم يقرأ كتابا ولا تلقى عن أحد درساً قال : الآن علمت أنه كان بوحي من الله لأن فيه حقائق لا يعلمها إلا من اختبر البحار بنفسه ، أو تلقاها عن غيره من المختبرين ، ثم أسلم وتعلم العربية .

وكثير من المسلمين يستمعون القراء ويتلون القرآن فلا يشعرون بأنهم في حاجة إلى فهمه وتدبر معناه ، بل يستمعون للتلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغم ، أو يقصدون بسماعه التبرك فقط ، ومنهم من يحضر الحفاظ عنده في ليالى رمضان ، ويجلسهم في حجرة البوايين أو غيرهم من الخدم تشبهاً بالأكابر والوجهاء .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا
فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ
(٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعدم التولى حين الجهاد ، أوردته بالأمر بالاستجابة له إذا دعاهم لهدى الدين وأحكامه عامة لما في ذلك من

تكميل الفطرة الإنسانية وسعادتها في الدنيا والآخرة ، وكرر النداء بلفظ المؤمنين تنشيطاً لهم إلى الإصغاء لما يرد بعده من الأوامر والنواهي ، وإيماء إلى أنهم قد حصلوا ما يوجب عليهم الاستجابة وهو الإيمان .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا استجبوا لله وللارسول إذا دعاكم لما يحييكم) أى إن الرسول قد دعاكم بأمر ربكم لما فيه حياتكم الروحية: من علم بسنن الله في خلقه وحكمة وفضيلة ترفع نفس الإنسان وترقى به إلى مراتب الكمال حتى يحظى بالقرب من ربه وينال رضوانه في الدار الآخرة — فأجبوا دعوته بقوة وعزم . كما قال في آية أخرى « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ » وطاعته صلى الله عليه وسلم واجبة في حياته ، وبعد مماته فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من أمور الدين الذى بعثه الله به كبيان لصفة الصلاة وعددها قولاً أو فعلاً، فقد صلى بأصحابه وقال: « صلوا كما رأيتموني أصلى » وقال « خذوا عني مناسككم » وبيانه لمقادير الزكاة وغيرها من السنن العملية المتواترة وأقواله كذلك ، فكل من ثبت لديه شيء منها يبعثه أو يبحث العلماء الذين يثق بهم ووجب عليه الاهتداء به .

أما الإرشادات النبوية في أمور العادات كاللباس والطعام والشراب والنوم ، فلم يعدها أحد من الأئمة ديناً يجب الاقتداء به فيه .

(واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون) نهينا الله في هذه الآية لأمرين لما خطرهما في سعادة الإنسان الأخروية ، وهما :

(١) أنه قد جرت سنة الله في البشر أن يحول بين المرء وقلبه ، وهو مركز الإحساس والوجدان والإدراك الذى له السلطان على الإرادة والعمل ، أى إنه تعالى يميئ القلب فتفتت الفرصة التى هو واجدها من التمكن من معالجة أدوائه وعمله ، ورده سليماً كما يريد الله ، وهذا أخوف ما يخافه المتقى على نفسه إذا غفل عنها وفرط

فى جنب الله ، وكذلك هو أرحم شىء يرجوه المسرف إذا لم يئأس من روح الله ، فإننا لنشاهد أن كثيراً من الناس يسرون على الهدى ويتقون الطرق التى تصل بهم إلى مهابى الهلاك والردى فإذا بقلوبهم قد تقلبت بعواصف تميل بهم عن الصراط المستقيم كشبهة الزعزع الاعتقاد أو شهوة يغلب بها الغى الرشاد فيطيعون أهواءهم ويسرون وراء وساوس الشيطان ، وفى ذلك إيحاء إلى أن الطائع الجدد لا يأمن مكر الله فيغتر بطاعته ويعجب بنفسه ، والعاصى المنصرف عن الطاعة لا يئأس من روح الله فيسترسل فى اتباع هواه حتى تحيط به خطاياها ، ومن لم يأمن عقاب الله ولا يئأس من روح الله كان جديراً بأن يراقب قلبه ، ويحاسب نفسه على خواطره ويعاقب نفسه على هفواته ، لتظل على الصراط المستقيم .

والمخلاصة — إن من سننه تعالى فى البشر أن من يتبع هواه فى أعماله تضعف إرادته فى مقاومته فلا تؤثر فيه المواعظ القولية ولا العبر المبصرة ولا المعقولة ، روى البخارى وأصحاب السنن قال : كانت يمين النبى صلى الله عليه وسلم « لا ومقلب القلوب » .

(٢) أن تذكر حشرنا إليه ومحاسنته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية ، ومجازاته إيانا بالعذاب أو النعيم ، فلا نألو جهداً فى انتهاز الفرصة لنعمل صالح الأعمال . وبعد أن أمرنا الله بتلك الأوامر ونهانا عن تلك النواهى التى تخص أعمال الإنسان الاختيارية ، أمرنا أن نتقى الفتن الاجتماعية التى لاتخص الظالمين ، بل تتعداهم إلى غيرهم ، وتصل إلى الصالح والطالح فقال :

(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) الفتنة : البلاء والاختبار ، أى اتقوا وقوع الفتن التى لا تختص إصابتها بمن يباشرها وحده ، بل تعمه وغيره كالفتن القومية التى تقع بين الأمم فى التنارع على المصالح العامة من الملك والسيادة أو التفرق فى الدين والشريعة والانقسام إلى الأحزاب الدينية والأحزاب السياسية ، ونحو ذلك

من ظهور البدع والتكاسل في الجهاد وإقرار المنكر الذي يقع بين أظهرهم والمداينة في الأمر بالمعروف ونحو ذلك من الذنوب التي جرت سنة الله بأن تعاقب عليها الأمم في الدنيا قبل الآخرة .

أخرج ابن جرير من طريق الحسن قال : لقد خُوفنا بهذه الآية ، ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ظننا أننا خصصنا بها ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر في الآية قال : نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير ، وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : علم والله ذوو الألباب من أصحاب محمد حين نزلت هذه الآية أن سيكون قتل . وروى عن ابن عباس قال : أمر الله المؤمنين ألا يقولوا المنكر بين أظهرهم فيعصمهم الله بالعذاب . وقال عدى بن عميرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على أن يفكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » وروى أحمد والبخاري وابن مردويه عن مطرف قال : قلنا لازييرا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة (عثمان) حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه فقال : إنا قرأنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » ولم نكن نحسب أننا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت .

وعلى الجملة ففتنة عثمان كانت أول الفتن التي اختلفت فيها الآراء فاختلفت أعمال أهل الحل والعقد، وخلا الجو للمفسدين من زنادقة اليهود والمجوس وغيرهم ، ثم أعقبتها فتنة الجمل بصفين ثم فتنة ابن الزبير مع بني أمية ، ثم قتل الحسين بكر بلاء ، إلى نحو ذلك من الفتن التي كان لها آثارها في الإسلام ، ولوتداركوها كما تدارك أبو بكر رضي الله عنه أهل الردة لما كانت فتنة تبعها قتل كثيرة أكبرها قتل الخلافة والملايك وفتن الآراء والمذاهب الدينية والسياسية .

(واعلموا أن الله شديد العقاب) أي إنه تعالى شديد عقابه للأمم والأفراد

خالفت سنته التي لا تبديل لها ولا تحويل أو خالفت هدى دينه المزكى للأنفس المطهر للقلوب .

وهذا العقاب منه ما هو في الدنيا وهو مطرد في الأمم ، وقد أصيبت به الأمة الإسلامية في القرن الأول الذي كان أهله خير القرون بعده ، إذ قصروا في درء الفتنة الأولى فعاقبهم الله عقابا شديدا على ذلك ثم تسلسل العقاب في كل جيل وقع فيه ذلك ثم امتزجت الفتن المذهبية بالفتن السياسية على الملك والسلطان حتى دالت الخلافة التي تنازعو وتنافسوا فيها وتقاتلوا لأجلها .

وقد يقع هذا العقاب للأفراد لكنهم ربما لا يشعرون به لأنه يقع تدريجيا فلا يكاد يحس به ، وأما العقاب الأخرى فأمره إلى الله العالم بالسر والنجوى والذي جعل العقاب آثارا طبيعية للذنوب التي تجترحها الأفراد والأمم .

(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض) هذا خطاب للمهاجرين يذكركم فيه سبحانه بما كان من ضعفهم وقتلهم ، وقد يكون الخطاب للمؤمنين عامة في عصر التنزيل يذكركم فيه بما كان من ضعف أمتهم العربية في الجزيرة بين الدول القوية من فارس والروم .

(تخافون أن يتخطفكم الناس) أى تخافون من مبدئ الإسلام إلى حين الهجرة أن يتخطفكم مشركو العرب من قريش وغيرها ، والمراد أن ينتزعوكم بسرعة فيفتكوا بكم كما كان يتخطف بعضهم بعضا في خارج الحرم وتتخطفهم الأمم من أطراف جزيرتهم كما قال تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » .

(فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) أى فأواكم أيها المهاجرون إلى الأنصار وأيدكم وإياهم بنصره في غزواتكم ، وسيؤيدكم على من سواكم من فارس والروم وغيرها كما وعدكم بذلك في كتابه الكريم ، ورزقكم من الطيبات

رجاء أن تشكروا هذه النعم وغيرها مما يؤتيكم من فضله كما وعد في كتابه :
« لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » .

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله (واذكروا إذ أنتم قليل) الآية .
قال كان هذا الحى أذل الناس ذلاً وأشقاء عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعره جلوداً ،
وأبينه ضلالةً ، معكوفين على رأس حجر بين فارس والروم ، لا والله مافى بلادهم
ما يحسدون عليه ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات منهم ردى في النار ،
يؤكلون ولا يأكلون ، لا والله ما نعلم قبيلة من حاضر الأرض يومئذ كان أشمر منهم
منزلاً ، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق ، وجعلكم به
ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا لله نعمه فإن ربكم
منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من نعم الله عز وجل .

وفي الآية من العبرة التي يجب على المؤمنين أن يتذكروها أنه أورث من اهتدى
بهديه سعادة الدنيا وبسطة السلطان ومكن لأهله في الأرض وأنالهم ما لم يكونوا يرجونه
لولا هدى الدين وأورثهم في الآخرة فوزاً ورضواناً من ربهم وروحاً وريحاناً وجنة نعيم
هذا حين كانوا يعملون بهديه ، فلما أعرضوا عنه ونأوا بجانبهم عاقبهم الله بما جرت به
سننه في الأرض فأضاعوا ملكهم وسلط عليهم أعداءهم ، فليعتبر المسلمون بما حل
بهم وليرجعوا إلى تاريخ أسلافهم وليستضيئوا بنورهم ويشوبوا إلى رشدهم ، لعله يعيد
إليهم تراثهم الغابر وعزم الماضي : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ (٢٧) وَعَلِمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) .

شرح المفردات

الخيانة : لغة تدل على الإخلاف والخيبة بنقص ما كان يرجى ويؤمل من الخائن ، فقد قالوا خانه سيفه إذا نبا عن الضريبة ، وخانته رجلاه إذا لم يقدر على المشي ، ومنه قوله : « عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَهُ أَنْفُسَكُمْ » أى تنقصونها بعض ما أحل لها من اللذات ، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء لأن الرجل إذا خان الرجل فقد أدخل عليه النقصان . والأمانة : كل حق مادي أو معنوي يجب عليك أدائه إلى أهله قال تعالى : « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا » والفتنة : الاختبار والامتحان بما يشن على النفس فعله أو تركه أو قبوله أو إنكاره ، فهي تكون فى الاعتقاد والأقوال والأفعال والأشياء ، فيمتحن الله المؤمنين والكافرين والصادقين والمنافقين ، ويجازيهم بما يترتب على فتنهم من اتباع الحق أو الباطل وعمل الخير أو الشر .

المعنى الجملى

روى أن أبا سفيان خرج من مكة : (وكان لا يخرج إلا فى عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين) فأعلم الله رسوله بمكانه ، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان : إن محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله (لا تخونوا الله والرسول) الآية . وروى أنها نزلت فى أبي لبابة فإنه كان حليفا لبني قريظة من اليهود ، فلما خرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد إجلاء إخوانهم من بني النضير ، أرادوا بعد طول الحصار أن ينزلوا من حصنهم على حكم سعد بن معاذ وكان من حلفائهم من قبل غدرهم ونقضهم لعهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فأشار إليهم أبو لبابة ألا تفعلوا وأشار إلى حلقه (يريد أن سعدا سيحكم بذبهم) فنزلت الآية . قال أبو لبابة : ما زالت قدماى عن مكانهما حتى علمت أنى خنت الله ورسوله ،

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل امرأته : « أيصوم ويصلى ويغتسل من الجنابة ؟ » فقالت إنه ليصوم ويصلى ويغتسل من الجنابة ويجب الله ورسوله .
وقد روى أن أبا لبابة شد نفسه على سارية من المسجد وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله عليّ ، ثم مكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ، ثم تاب الله عليه ، فقيل له : قد تيب عليك ، فقال : والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني ، فجاء فحله بيده .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) أى لا تخونوا الله فتعطلوا فرائضه أو تتعدوا حدوده وتنتهكوا محارمه التي بينها لكم في كتابه ، ولا تخونوا الرسول فترغبوا عن بيانه لكتابته إلى بيانه بأهوائكم أو آراء مشايحكم أو آبائكم أو أوامر أمرائكم ، أو ترك سنته إلى سنة آبائكم وزعمائكم زعما منكم أنهم أعلم بمراد الله ورسوله منكم .

(وتخونوا أماناتكم) أى ولا تخونوا أماناتكم فيما بين بعضكم وبعض من المعاملات المالية وغيرها حتى الشؤون الأدبية والاجتماعية ، فإفشاء السر خيانة محرمة ويكفى في العلم بكونه سرا قرينة قولية كقول محدثك : هل يسمعون أحد؟ أو فعلية كالانكشاف لرؤية من عساه يحىء ، وآكد أمانات السر وأحقها بالحفظ ما يكون بين الزوجين .
كذلك لا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولى الأمر من شؤون سياسية أو حربية فتطاعوا عليها عدوكم وينتفع بها في الكيد لكم .

والخيانة من صفات المنافقين ، والأمانة من صفات المؤمنين ، قال أنس بن مالك : قلما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال : « لا إيمان لمن لا عهد له » زواه الإمام أحمد .

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أئتمن خان ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » .

(وأنتم تعلمون) أى وأنتم تعلمون مفسد الخيانة وتحريم الله إياها وسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة ، وقد يكون المعنى - وأنتم تعلمون أن ما فعلتموه خيانة لظهوره ، فإن خفى عليكم حكمه فالجبل له عذر إذا لم يكن مما علم من الدين ضرورة أو مما يعلم ببدهة العقل أو باستفتاء القلب كمفعلة أبى لبابة التى كانت سببها الحرص على المال والولد ، ومن ثم فطن لها قبل أن يبرح موقفه .

(واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى إن فتنة الأموال والأولاد عظيمة لاتخفى على ذوى الأبواب ، إذ أموال الإنسان عليها مدار معيشته وتحصيل رغائيه وشهواته ودفع كثير من المكاره عنه ، من أجل ذلك يتكافى فى كسبها المشاق ويركب الصعاب ، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ويرغبه فى القصد والاعتدال ، ويتكلف العناء فى حفظها وتتنازعه الأهواء فى إنفاقها ، ويفرض عليه الشارع فيها حقوقا معينة وغير معينة : كالزكاة والنفقات والأولاد والأزواج وغيرهم .

وأما الأولاد فخبهم مما أودع فى الفطرة فهم ثمرات الأفئدة وأفلاد الأكباد لدى الآباء والأمهات ، ومن ثم يحملهما ذلك على بذل كل ما يستطيع بذله فى سبيلهم من مال وصحة وراحة ، وقد روى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم « الولد ثمرة القلب وإنه مجبنة مبخلة محزنة » .

فحب الولد قد يحمل الوالدين على إقرار الذنوب والآثام فى سبيل تربيتهم والإففاق عليهم وتأثيل الثروة لهم ، وكل ذلك قد يؤدى إلى الجبن عند الحاجة إلى الدفاع عن الحق أو الأمة أو الدين ، وإلى البخل بالزكاة والنفقات المفروضة والحقوق الثابتة ؛ كما يحملهم ذلك على الحزن على من يموت منهم بالسخط على المولى والاعتراض

عليه إلى نحو ذلك من المعاصى كنوح الأمهات وتمزيق ثيابهن ولطم وجوههن ؛ وعلى الجملة ففتنة الأولاد أكثر من فتنة الأموال ، فالرجل يكسب المال الحرام ويأكل أموال الناس بالباطل لأجل الأولاد .

فيجب على المؤمن أن يتقى الفتنتين ، فيتقى الأولى بكسب المال من الحلال وإففاقه في سبيل البر والإحسان ، ويتقى خطر الثانية من ناحية ما يتعلق منها بالمال ونحوه بما يشير إليه الحديث . ومن ناحية ما أوجبه الدين من حسن تربية الأولاد وتعويدهم الدين والفضائل وتجنبهم المعاصى والردائل .

(وأن الله عنده أجر عظيم) فعليكم أن تؤثروا ما عند ربكم من الأجر العظيم بمراعاة أحكام دينه في الأموال والأولاد على ما عساه قد يفوتكم في الدنيا من التمتع بهما .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) .

شرح المفردات

التقوى : ترك الذنوب والآثام وفعل ما يستطاع من الطاعات والواجبات الدينية ، وبعبارة أخرى : هي اتقاء ما يضر الإنسان في نفسه وفي جنسه ، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والغايات الحسنة ، والفرقان : أصله الفرق والفصل بين الشيئين أو الأشياء ، ويراد به هنا نور البصيرة الذى به يُفَرَّقُ بين الحق والباطل والضرار والنافع ، وبعبارة ثانية : هو العلم الصحيح والحكم الرجيح ، وقد أطلق هذا اللفظ على التوراة والإنجيل والقرآن وغلب على الأخير قال تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » من قَبْلِ أَنْ كَلَّمَهُ تَعَالَى يَفَرِّقُ فِي الْعِلْمِ وَالْإِعْتِقَادِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْعَدْلِ وَالْجُورِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

المعنى الجملى

لما حذر الله تعالى من الفتنة بالأموال والأولاد ، قفى على ذلك بطلب التقوى التى
ثمرتها ترك الميل والهمى فى محبة الأموال والأولاد .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فِرْقَانًا) أى إن تتقوا الله
فستنبعوا أوامر دينه وتسيروا بمقتضى سننه فى نظام خلقه يجعل لكم فى نفوسكم
ملكاً من العلم تفرقون بها بين الحق والباطل وتفصلون بين الضار والنافع ، وهذا
النور فى العلم الذى لا يصل إليه طالبه إلا بالتقوى هو الحكمة التى قال الله تعالى فيها
« وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » .

واتقاء الله يتحقق بمعرفة سننه فى الإنسان وحده ، أو فيه وهو فى المجتمع الإنسانى
كما ترشد إلى ذلك آيات الكتاب الحكيم فى مواضع متفرقة منه ، ومن ثم كانت
ثمرة التقوى حصول ملكة الفرقان التى بها يفرق صاحبها بين الأشياء التى تعرض له
من علم وحكمة وعمل فيحصل فيها بين ما ينبغى فعله وما يجب تركه .

وعلى الجملة فالملتقى لله يؤتیه الله فرقانا يميز به بين الرشد والنعى ، ومن ثم كان
الخلقاء والحكام من الصحابة والتابعين من أعدل حكام الأمم فى الأرض ، حتى لقد
قال بعض المؤرخين من الإفرنج : ما عرف التاريخ قائماً أعدل ولا أرحم من العرب .

(وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) أى ويح بسبب
ذلك الفرقان وتأثيره ما كان من دنس الآثام فى النفوس فنزل منها داعية العودة
إليها ، ويغطيها فيسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها ، والله الذى يفعل ذلك بكم له الفضل
العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه .

وفى قوله (والله ذو الفضل العظيم) إيماء وتنبية إلى أن ما وعد به المتقين من المثوبة فضل منه وإحسان تفضل به علينا بدون واسطة وبدون التماس عوض .

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ
آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ، إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ (٣١) .

شرح المفردات

ليثبتوك : أى ليشدوك بالوثاق ويرهقوك بالقيد والحبس حتى لا تقدر على الحركة ،
والمكر : هو التدبير الخفى لا يصال المكروه إلى المكور به من حيث لا يحتسب ،
والغالب أن يكون فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل ، وإذا نسب إلى الله كان
من المشاكلة فى الكلام بتسمية خيبة المسعى فى مكرهم أو مجازاتهم عليه باسمه ،
والأساطير : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأحدثة وأحاديث وهى الأقاصيص
التي سطرت فى الكتب بدون تمحيص ولا تثبت من صحتها ، وفى القاموس : الأساطير
الأحاديث لا نظام لها واحدها إسطار وإسطير وأسطور وبالهاء فى الكل ، وأصل
السطر الصف من الشيء كالكتاب والشجر اهـ .

المعنى الجملى

لما ذكر المؤمنين عامة بنعمه عليهم بقوله (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون
فى الأرض) ذكر هنا نعمه على رسوله خاصة بدفع كيد المشركين ومكر الماكرين
بنصره عليهم وخبية مسعاهم فى إيقاع الأذى به بعد أن تأمروا عليه وقطعوا برأى
معين فيه .

الإيضاح

(وإذ يمكر بك الذين كفروا) أى واذا ذكر أيها الرسول نعمته تعالى عليك فى ذلك الزمن القريب الذى يمكر بك فيه قومك الذين كفروا بما يدبرون فى السر من وسائل الإيقاع بك ، فإن فى ذلك القصص على المؤمنين والكافرين فى عهدك ومن بعدك لأكبر الحجج على صدق دعوتك ووعد ربك بنصرتك .

(ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) أى إن كلمتهم قد اتفقت على إيقاع الأذى بك بإحدى خلال ثلاث : إما الحبس الذى يمنعك من لقاء الناس ودعوتهم إلى الإسلام ، وإما القتل بطريق لا يكون ضررها عظيما عليهم كما سيأتى ، وإما الإخراج والنفي من الوطن .

وقد روى أن أبا طالب قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما يأتى بك قومك ؟ قال : يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني ، قال من حدثك بهذا ؟ قال ربى ، قال نعم الرب ربك فاستوص به خيرا ، قال أنا أستوصى ؟ بل هو يستوصى بى فنزلت (وإذ يمكر بك الذين كفروا) الآية .

وقد تحدثوا بهذا الحديث فسمعه أبو طالب فبلغه للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن إجماع الرأى عليه والشروع فى تنفيذه قد وقع بعد موت أبى طالب .

(ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) أى إن دأبهم معك ومع من اتبعك من المؤمنين تدبير الأذى لكم والله يحبط لهم ما دبروا فقد أخرجك من بينهم إلى دار الهجرة ووطن السلطان والقوة ، والله خير الماكرين لأن مكره نصر للحق وإعزاز لأهله وخذلان للباطل وحزبه .

وفى الآية إيماء إلى أن هذه حالهم الدائمة فى معاملته صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من المؤمنين .

وحديث ذلك المكر الذى ترتبت عليه الهجرة إلى المدينة ، وبها ظهر الإسلام
وخذل الشرك روى من طرق عدة أقربها رواية ابن إسحق فى سيرته قال :

إن نفرا من قریش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة واعترضهم
إبليس فى صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا من أنت ؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت
بما اجتمعتم له فأردت أن أحضرکم ولن يعدمکم منى رأى ونصح ، قالوا أجل فادخل
فدخل معهم ، فقال : انظروا فى شأن هذا الرجل فوالله ليوشكن أن يؤانیکم فى أمرکم
بأمره ، فقال قائل : احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من
كان قبله من الشعراء : زهير والنابعة فإنما هو كأحدهم ، فقال عدو الله الشيخ النجدى
لا والله ما هذا لكم برأى ، والله ليخرجن رأد من محبسه لأصحابه فليوشكن أن يشبوا
عليه حتى يأخذوه من أيديکم ثم يمنعوه منکم ، فما آمن علیکم أن يخرجوکم من بلادکم
فانظروا فى غير هذا الرأى ، فقال قائل : فأخرجوه من بين أظهرکم فاستريحوا منه ،
فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وأین وقع ، وإذا غاب عنکم أذاه استرحتم منه ، فإنه
إذا خرج لم يضركم ما صنع وكان أمره فى غيرکم ، فقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا
لکم برأى ، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه ،
والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن إليه ليسيرن إليکم حتى يخرجکم من
بلادکم ويقتل أشرافکم ، قالوا صدق والله ، فانظروا رأيا غير هذا ، فقال أبو جهل
والله لأشیرن علیکم برأى لا أرى غيره قالوا وما هذا ؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلاما
وسطا شابا نهدا ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربونه به ضربة رجل
واحد ، فإذا قتلتموه تفرق دمه فى القبائل كلها ، فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم
يقدرון على حرب قریش کلهم ، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل (الدية) واسترحنا
وقطعنا عنا أذاه ، فقال الشيخ النجدى : هذا والله هو الرأى ، القول ما قال الفتى
لا أرى غيره وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له ، فأتى جبريل عليه السلام رسول الله
صلی الله علیه وسلم فأمره ألا یبیت فى مضجعه الذى كان یبیت فيه وأخبره بمكر القوم

فلم يبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك في الخروج وأمرهم بالهجرة . وافترض عليهم القتال فأمر الله : «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ» الآيتين فكان أول ما أنزل في الحرب وأنزل بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه . (وإذ يمكر بك الذين كفروا) الآيتين .

ولما قص الله مكرهم في ذات محمد قص علينا مكرهم في دين محمد فقال : (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) أى وإذا تتلى على هؤلاء الذين كفروا آيات كتاب الله الواضحة لمن شرح الله صدره لفهمه قالوا جهلا منهم وعنادا للحق وهم يعلمون أنهم كاذبون : لو نشاء لقلنا مثل هذا الذى تلى علينا ، وقد نسب هذا القول إلى النضر بن الحرث من بنى عبد الدار وكان يختلف إلى أرض فارس فيسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وكبار العجم ، ويمر باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والإنجيل .

ثم عللوا هذه الدعوة الكاذبة بما هو أصرح منها في الكذب فقالوا : (إن هذا إلا أساطير الأولين) أى إن أخبار القرآن عن الرسل وأقوامهم تشبه قصص أولئك الأمم فهم يستطيعون أن يأتوا بمثلها فما هى من خبر الغيب الدال على أنه وحى من الله .

وقد يكون النضر أول من قال هذه الكلمة فقلده فيها غيره ، ولكنهم لم يكونوا يعتقدون أنها أساطير مختلقة وأن محمدا هو الذى افترها إذ لم يكونوا يتهمونهم بالكذب كما قال تعالى : « فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » وهم ما كانوا يعتقدون صدق هذه المقالة لأنهم يعلمون أنه أمى لا يتعلم شيئا ، بل قالوا ذلك ليصدوا العرب عن القرآن وقد كذبهم الله فيه فما استطاعوا له إثباتا .

وقد روى أن النضر هو الذي أنزل فيه : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي هُوَ
الْحَدِيثَ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا » فقد اشترى قميئة جميلة
تغنى الناس بأخبار الأثم لضمهم عن سماع القرآن ، وهذا منتهى الجحود والعناد .
وقد كان زعماء قريش كالنضر بن الحرث وأبي جهل والوليد بن المغيرة يتواصون
بالإعراض عن سماع القرآن ويمنعون الناس عنه ، ثم يختلفون أفرادا إلى بيت النبي
صلى الله عليه وسلم ليلا يستمعون إليه ويعجبون منه ومن تأثيره وسلطانه على القلوب
حتى قال الوليد بن المغيرة كلمته المشهورة : إنه يعلو ولا يعلى عليه ، وإنه يحطم ماتحته ،
تخافوا أن تسمعها العرب وما زالوا يلحون عليه ليقول كلمة منفرة فقال : « إِنَّ هَذَا
إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ » .

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا
حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا
يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ
أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ
صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ (٣٥) .

المعنى الجملى

روى أنه لما قال النضر : إن هذا إلا أساطير الأولين ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ويلك إنه كلام رب العالمين فقال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية .

الإيضاح

(وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) أى اللهم إن كان هذا القرآن وما يدعو إليه هو الحق منزلاً من عندك ليدين به عبادك كما يدعى محمد صلى الله عليه وسلم فافعل بنا كذا وكذا .

وفى هذا إيماء إلى أنهم لا يتبعونه وإن كان هو الحق المنزل من عند الله ، بل يفضلون الهلاك بحجارة يرمجون بها من السماء أو بعذاب أليم سوى ذلك ، كما أن فيه تهكما وإظهاراً للجزم واليقين بأنه ليس من عند الله - وحاشاه - ومنه يعلم أيضاً أن دعاءهم كفر وعناد ، لأن ما يدعونه إليه قبيح وضار .

روى أن معاوية قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ما كوا عليهم امرأة ! فقال : أجهل من قومى قومك حين قالوا : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) ولم يقولوا : فاهدنا له .

ثم قال تعالى بياناً للموجب لإمهاهم والتوقف فى إجابة دعائهم .

(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) أى وما كان من سنة الله ولا من مقتضى رحمته ولا حكمته أن يعذبهم وأنت الرسول فيهم ، لأنه إنما أرسلك رحمة ونعمة لأعدابا ونعمة - إلى أنه قد جرت سنته أيضاً ألا يعذب أمثالهم من مكذبي الرسل وهم بين أظهرهم ، بل كان يخرج الرسل أولاً كما حدث لهود وصالح ولوط .

(وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) أى وما كان الله ليعذبهم هذا العذاب الذى عذب بمثل الأم قبلهم فاستأصلهم ، وهم يستغفرون : أى وفيهم من يستغفر ، وهم المسلمون الذين بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين .

روى ابن جرير قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فأنزل الله : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ثم خرج إلى المدينة فأنزل الله : (وما كان الله

معذبهم وهم يستغفرون) وكان من بقى في مكة من المؤمنين يستغفرون فلما خرجوا أنزل الله : (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) الآية فأذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذى وعدم به .

(وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) أى وأى شئ يمنع تعذيبهم بما دون عذاب الاستئصال عند زوال المانع منه ، وكيف لا يعذبون وهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام ولولأداء النسك ؟ فما كان مسلم يقدر أن يدخل المسجد الحرام ، فإن دخل مكة عذبه إذا لم يكن فيها من يجيره ، والمراد بالعذاب هنا عذاب بدر إذ قتل صنائدهم ورؤوس الكفر كأبى جهل وأمر سراتهم .

(وما كانوا أولياءه) أى وما كانوا مستحقين للولاية عليه لشركهم وعمل المفساد فيه كطوافهم فيه عراة رجالا ونساء ، وهذا ردّ قولهم : نحن ولاية البيت والحرم نصدق من نشاء وندخل من نشاء .

(إن أولياؤه إلا المتقون) أى إنه لا يلى أمره إلا من كان برّاً تقياً ، لا من كان كافراً عابدا للصنم .

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) أنهم ليسوا أولياء الله ، ولا أن أولياءه ليسوا إلا المتقين ؛ فهم الآمنون من عذابه بتمتضى عدله فى خلقه والجديرون بولاية بيته .

وقد نسب هذا الجهل إلى الأكثر إذ كان فيهم من لا يجهل حالهم فى جاهليتهم وضلالهم فى شركهم وكون الله لا يرضى عنهم ، كما كان فيهم من يكتم إيمانه خوفاً من الفتنة ، ومنهم المستعدون له بسلامة الفطرة ، وقد جرت سنة القرآن أن يدقق فى الحكم ، ولا يقول إلا الحق ولا يقول كما يقول الناس : إن القليل لاحكم له .

هذا ، وإن جماهير المسلمين الآن صاروا يجهلون ولاية الله لأوليائه ، فصارت هذه الولاية عندهم تشمل المجانين والمجاذيب الذين يسئل اللعاب من أشداقهم وترتع الحشرات فى ثيابهم وأجسادهم ، وتشمل أصحاب الدجل والخرافات والدعاوى الباطلة للكرامات وصاروا يؤيدون دعاويهم من رؤى الأنبياء والأقطاب فى المنام .

ثم بين الله سوء حالهم في أفضل ما بنى البيت لأجله ، وهى الصلاة ، فقد كانوا يطوفون عراة فقال :

(وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) المكاء : الصغير ، والتصدية : التصفيق ، وكان أحدهم يضع يده على الأخرى ويصفر ، قال ابن عباس : كانت قریش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق ، وروى عنه أن الرجال والنساء منهم كانوا يطوفون عراة مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون ، وروى عن سعيد بن جبیر قال : كانت قریش يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم فى الطواف يستهزئون ويصفرون فزلت (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) .

وعلى الجملة فقد كانت صلاتهم وطوافهم من قبيل اللهو واللعب سواء عارضوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى طوافه وخشوع صلاته وحسن تلاوته أم لا .

(فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى فذوقوا عذاب القتل لبعض كبرائكم والأسر للآخرين منهم وانتهزام الباقين مدحورين مكسورين يوم بدر .

والخلاصة — فذوقوا العذاب الذى طلبتموه ، وما كان لكم أن تستعجلوه إذ قلتم (أو اتينا بعذاب أليم) .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَهُنَّ
ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ
(٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ
فَيَزَكِّهِ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوَّلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه أحوال هؤلاء المشركين فى الطاعات البدنية بقوله : وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية — ففى ذلك بذكر أحوالهم فى الطاعات المالية .

روى عن ابن عباس ومجاهد أن الآية نزلت في أبي سفيان وما كان من إنفاقه على المشركين في بدر ومن إعانته على ذلك في أحد - ذلك أنه لما نجا بالغير بطريق البحر إلى مكة مشى ومعه نفر من المشركين يستنفرون الناس للقتال فجاءوا كل من كان لهم تجارة فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم وقتل رجالكم فأعينونا بهذا المال على حربه فعلننا ندرك منه ثأراً - ففعلوا .

وقال سعيد بن جبيرة : إنه استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش (واحد حاجباشة : الجماعة ليسوا من قبيلة واحدة) يقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى من استجاش من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية (والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً من الذهب) .

الإيضاح

(إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) سبيل الله دينه واتباع رسوله : أى إن مقصدهم بالإنفاق الصد عن اتباع محمد وهو سبيل الله وإن لم يكن عندهم كذلك .

(فسيفنقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) أى إنه سيقع هذا الإنفاق وتكون عاقبته الحسرة لأنه سيذهب المال ولا يصلون إلى المقصود ، بل يغلبون كما قال تعالى : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وسينكسرون المرة بعد المرة .

(والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) أى والذين كفروا يساقون يوم القيامة إلى جهنم إذا هم أصروا على كفرهم حتى ماتوا فيكون لهم شقاء الدارين وعذابهما .

وقد كان للمسلمين العبرة في هذه الآية فينفقون أموالهم في سبيل الله لأن لهم بها سعادة الدارين ، وهكذا كانوا أيام قاموا بمحقوق الإسلام والإيمان .

والكفار في هذا العصر ينفقون الكثير من الأموال للصد عن الإسلام وفتنة الضعفاء من العامة بالدعوة إلى دينهم وتعليم أولاد المسلمين في مدارسهم ومعالجة

رجالهم ونساءهم في مستشفياتهم إلى نحو ذلك من الوسائل الناجعة في نشر دينهم وفتنة المسلمين عن دينهم وهم لا يبالون ماذا يفعلون — ألساء ما كانوا يعملون . . . (ليميز الله الخبيث من الطيب) أى إن الله كتب النصر والغلب لعباده المتقين والخذلان والحسرة لمن يعاديههم ويقاثلهم من الكفار للصد عن سبيل الله ، ليميز الكفر من الإيمان والحق والعدل من الجور والطغيان .

وهذا التمييز بين الأمرين في سنن الاجتماع هو بقاء أمثل الأمرين وأصلحهما : فَأَمَّا الرِّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ « وسنن الله في الدنيا والآخرة واحدة ، فالخبيث في الدنيا خبيث في الآخرة ومن ثم قال : (ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون) أى ويجعل الله الخبيث بعضه منضما متراكبا على بعض على حسب سنته تعالى في اجتماع المتشاكلات واختلاف المتباكرات كما جاء في الحديث « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ثم يجعل أصحابه في جهنم إلى يوم القيامة ، وبئس المصير لمن خسر نفسه وماله .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ، وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُوَلَّىكُمْ، نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه حال من يصر على الكفر والصد عن سبيل الله وقتال رسوله والمؤمنين وعاقبة أعمالهم في الدنيا والآخرة — قفى على ذلك ببيان من يرجعون عنه ويدخلون في الإسلام لأن الأنفس في حاجة إلى هذا البيان فقال :

الإيضاح

(قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الكفار: إن ينتهوا عما هم عليه من عداوتك وعنادك بالصد عن سبيل الله ، يغفر لهم الله ما قد سلف منهم من ذلك ومن سواه من الذنوب ، فلا يعاقبهم على شيء من ذلك فى الآخرة ، ويغفر لهم الرسول والمؤمنون فلا يطالبون قاتلا منهم بدم ولا سالباً أو غنائماً بسلب ولا غنم .

روى مسلم من حديث عمرو بن العاص قال: « فلما جعل الله الإيمان فى قلبى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت ابسط يدك أبايك ، فبسط يده فقبضت يدي ، قال مالك ، قلت أردت أن أشتري . قال ماذا تشترط ؟ قلت أن يغفر لى ، قال أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ » .

(وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين) أى وإن يعودوا إلى العدا والصد والقتال تجر عليهم سننه المطردة فى أمثالهم من الأولين الذين عادوا الرسل وقتلواهم ، من نصر المؤمنين وخذلانهم وهلاكهم كما حدث لهم يوم بدر كما قال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .

ثم بين ما سلف من قوله: فقد مضت سنة الأولين، ورغب المؤمنين فى قتالهم فقال : (وقتلواهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) أى وقتلواهم أيها الرسول أنت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة فى الدين بالتعذيب وضروب الإيذاء لأجل تركه كما فعلوا ذلك حين كانت لهم القوة والبطش فى مكة إذ أخرجوكم منها لأجل دينكم ثم أتوا لقتالكم فى دار الهجرة ، وحتى يكون الدين كله لله فلا يستطيع أحد أن يفتن أحدا عن دينه ويكرهه على تركه إلى دين المسكره تقيّة وخوفا .

وخلاصة ذلك — قاتلوهم حتى يكون الناس أحرارا فى عقائدهم لا يكره أحد

أحدا على ترك عقيدته إكراها ولا يؤذى ويعذب لأجلها كما قال تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرِّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » والمسلمون إنما يقاتلون لحرية دينهم ولا يكرهون عليه أحدا من دونهم .

وروى عن ابن عباس تفسير الفتنة بالشرك - والمعنى عليه - قاتلوهم حتى لا يبقى شرك وتزول الأديان الباطلة فلا يبقى إلا الإسلام .

ويؤيد الرأي الأول أنه جاء رجلان في فتنة ابن الزبير إلى عبد الله بن عمر فقالا إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما يمنعك أن تخرج ؟ قال يمنعني أن الله حرم على دم أخى المسلم . قالا ولم يقل الله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) قال قد قاتلنا حتى ألم تكن فتنة وكان الدين لله وأتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله .

(فإن اتهموا فإن الله بما يعملون بصير) أى فإن اتهموا عن الكفر وعن قتالكم فإن الله يجازيهم على ما فعلوا على حسب عمله .

(وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير) أى وإن أعرضوا عن سماع تبليغكم ولم يتهموا عن كفرهم وفتنتهم وقاتلهم لكم فأيقنوا بنصر الله ومعوته لكم وهو متولى أموركم فلا تبالوا بهم ولا تخشوا بطشهم ، وهو نعم المولى ونعم النصير فلا يضيع من تولاه ولا يغلب من نصره .

وما غلب المسلمون في العصور الأخيرة . وذهب أكثر ملكهم إلا لأنهم تركوا الاهتداء بهدى دينهم وتركوا الاستعداد المادى والحربى الذى طلبه الله بقوله : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » واتكلوا على خوارق العادات وقراءة الأحاديث والدعوات ، وذلك مالم يشرعه الله ولم يعمل به رسوله - إلى أنهم تركوا العدل والفضائل وسنن الله في الاجتماع التى انتصر بها السلف الصالح ، وأنفقوا أموال الأمة والدولة فيما حرم الله عليهم من الإسراف في شهواتهم .

وعلى العكس من ذلك اتبع الإفرنج تعاليم الإسلام فاستعدوا للحرب واتبعوا سنن الله في العمران فرجحت كفهم ، والله الأمر .

وما مكن الله لسلف المسلمين من فتح بلاد كسرى وقيصر وغيرها من البلاد إلا لما أصاب أهلها من الشرك وفساد العقائد في الآداب ومساوى الأخلاق والعمادات والانغماس في الشهوات واتباع سلطان البدع والخرافات - فجاء الإسلام وأزال كل هذا واستبدل التوحيد والفضائل بها ، ومن ثم نصر الله أهله على الأمم كلها .

ولما أضاع جبهة المسلمين هذه الفضائل واتبعوا سنن من قبلهم في اتباع البدع والذرائل وقد حذرهم الإسلام من ذلك ، ثم قصروا في الاستعداد للمادى والحزب للنصر في الحرب عاد القلب عليهم لغيرهم ومكن لسوهم في الأرض : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مَنْ بَعْدَ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أي الصالحون لاستعمارها والانتفاع بما أودع فيها من كنوز وخيرات .

وفق الله المسلمين إلى الهدى والرشاد وجعلهم يعيدون سيرتهم الأولى ويبتدون بهدى دينهم ويستمسكون بأدابه ويتبعون سيرة السلف الصالح فيكتب لهم العز في الدنيا والسعادة في الآخرة ، والحمد لله أولاً وآخراً .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء في ليلة العشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وألف بمدينة حلوان من أرباض القاهرة ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٤	حب الوطن لا يبلغ منزلة حب الدين .
٥	أوجب الله الهجرة على من يستضعف في وطنه فيمنع من إقامة دينه فيه .
١٥	الإيمان الصحيح سبب سعادة الدنيا والآخرة .
١٦	الأمن من مكر الله خسران ومفسدة كاليأس من رحمته .
١٧	في قصص الماضين عبرة للحاضرين .
٢٢	ذكر اسم موسى في القرآن أكثر من مائة وثلاثين مرة .
٢٤	الفن السياسية والأكاذيب التي حدثت في الصدر الأول مرجعها إلى القرس الذين كانوا يروجون الغش والتدليس لإفساد الإسلام .
٢٦	السحر وضروبه ورواجه في البلاد الممجية .
٢٧	السحر صناعة تتلقى بالتعليم .
٣٥	اتهم فرعون السحرة بالتواطؤ مع موسى .
٣٧	التاريخ المصري يدل على أنه كان للعصريين آلهة كثيرة .
٣٩	ما كتبه المفسرون عن بني إسرائيل منقول بالسمع منهم أو مأخوذ من كتب لا يوثق بصدقها .
٥١	طلب بنو إسرائيل من موسى أن يجعل لهم آلهة يعكفون على عبادتها .
٥١	سحرة موسى كانوا من العلماء .
٥٣	في القرآن وعد بزوال الوثنية من مصر .

الصفحة	المبحث
٥٩	الأخبار متعارضة في رؤية الله يوم القيامة .
٦٦	كثير من تعلم العلم في البلاد الغربية من المسلمين يحتقرون هداية الدين الروحية .
٦٨	عجل السامري وصفته وكيف كان صنعه، ورد القرآن على من اتخذوه إلهًا .
٧٨	اختار موسى من قومه سبعين رجلاً .
٨١	صفات النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن .
٨٩	ما جاء في التوراة عن عدد بنى إسرائيل الذين كانوا في التيه، ورد ابن خلدون على ذلك .
٩٣	الحكمة في كون النبي محمد عليه الصلاة والسلام أميًا لا يقرأ ولا يكتب .
٩٦	هل كان مسخ بنى إسرائيل في الخلق أو في الخلق ؟
١٠٩	ضرب الله المثل لمن يميل إلى الدنيا ويتبع هواه بالكلب في أقبح حالاته .
١١٣	المؤمن تسمو نفسه بمعرفة ربه فلا يذل لغيره ولا يخاف منه .
١١٤	المسلمون أهملوا النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق .
١١٥	الإسلام يحض على استعمال الطيبات في الحياة بلا تقتير ولا إسراف .
١١٧	إن لله تسعة وتسعين اسمًا .
١٢٣	عقاب الأمم مبني على النواميس التي سنّها الله في الخليقة .
١٢٥	الأمر بالنظر في ملكوت السموات والأرض .
١٢٨	تأني الساعة على الناس بغتة وهم لا يشعرون .
١٣٠	الحكمة في إخفاء الآجال والأعمال .
١٣١	عمر الدنيا وما جاء في ذلك من الآثار .
١٣٢	أشراط الساعة وأماراتها .
١٣٣	اللهدى المنتظر .

الصفحة	المبحث
١٣٦	الرسول لا يعلم من الغيب إلا ما أطلمه الله عليه .
١٥١	قوى الروح بالإيمان والتقوى لا تؤثر فيه نزغات الشيطان .
١٥٢	المؤمن إذا مسه طائف من الشيطان تذكر فأناوب إلى ربه .
١٥٣	أوصاف القرآن .
١٥٥	ما يفعله جماهير الناس فى المحافل عند سماع القرآن .
١٥٦	ذكر الله باللسان وحده لا يجدى نفعاً .
١٦٨	قصة بدر وسببها .
١٧٢	دعاء النبي ربه قبل الغزوة .
١٧٣	إنزال الملائكة مدداً للمؤمنين
١٧٩	الفرار من الزحف من السكباتر .
١٨٨	من يتبع هواه لا تؤثر فيه النصائح .
١٩٠	عقاب الأمم على ذنوبها مطرد دون عقاب الأفراد .
١٩٣	الخيانة من صفات المنافقين والأمانة من صفات المؤمنين .
١٩٦	المتقى يؤتبه الله فرقاناً يميز به بين الرشد والغبى .
١٩٨	اتفقت كلمة المشركين على إيقاع الأذى بالنبي صلى الله عليه وسلم بإحدى ثلاث .
٢٠٥	أهل الكفر الآن ينفقون الأموال للصد عن الإسلام وفتنة الضعفاء
٢٠٨	ما غلب المسلمون وذهب أكثر ملكهم إلا لتركهم هدى الإسلام .